اسماء عبد فهد اسماء عبد

الشمس في برج الحوت

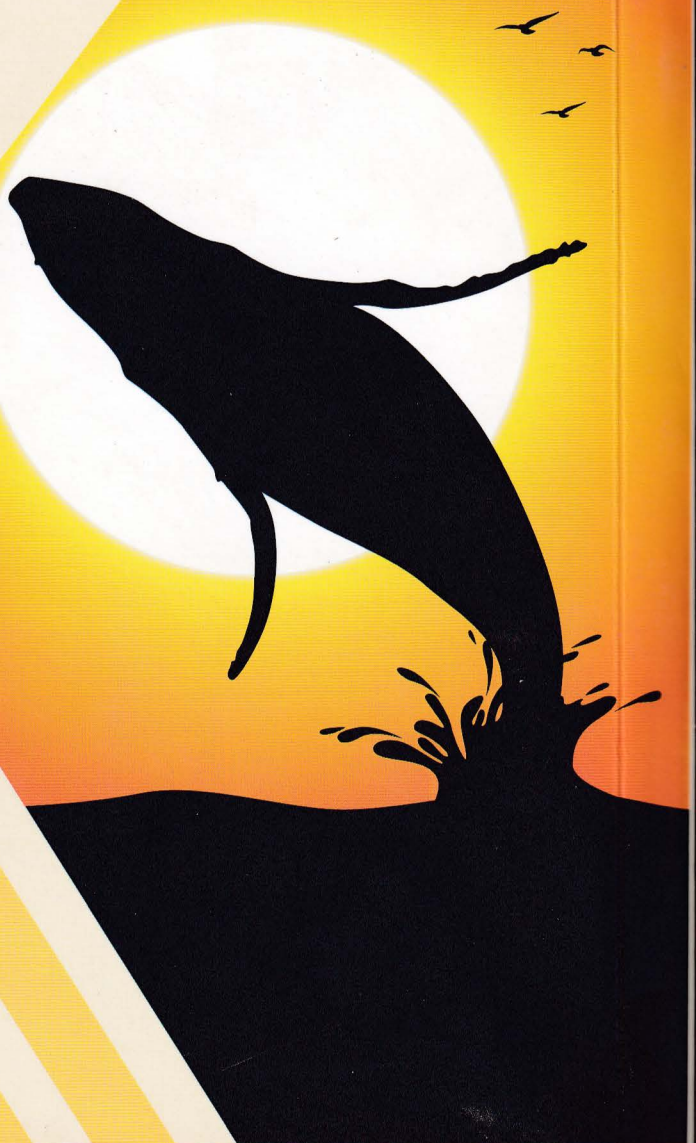

1

أحداثيات زمن العزلة

سباعية روائية

نوفا بلس للنشر والتوزيع
NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING

الطبعة الثالثة

العنوان

الشمس في برج الحوت

«إحداثيات زمن العزلة»

تأليف

اسماعيل فهد اسماعيل

الطبعة

الثالثة 2013

الرسوم الداخلية

الفنان البحريني / عبدالله يوسف

تصميم وإخراج

ميرور العالمية للدعاية والإعلان

شادي أديب سركيس

بدر عبدالوهاب حطيط

جميع الحقوق محفوظة

نوفا بلس للنشر والتوزيع

NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING

www.novapluskw.com

طبع بدعم من المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
بدولة الكويت

الشمس في برج الحوت

«إحداثيات زمن العزلة»

اسماعيل فهد اسماعيل

نوفا بلس للنشر والتوزيع
NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING

الإهداء

إلى من يهمه الأمر*

اسماعيل

---

* حقوق الإهداء محفوظة للدكتور سليمان الشطي

(1)

حالة عبور غير منطقية. محاولة بائسة للبقاء ضمن مناخ حلم غائم متلاش، يواكبها إلحاح عجيب من مصدر مهيمن متواتر يصر على النفاذ.

"من أين يجيء الصحو؟!".

تنمله ذاكرته. بقايا الحلم بمزيد من التلاشي. الوعي بحضور متردد. يبذل ذهنه كي يلم. غرفته. بيته. وهو هنا.

"الكويت".

دوي مكيف الهواء. إحساس طارئ بالبرد. يتذكر أنه نام حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل. أذناه، وهذا التواتر الموقوت لرنين جرس التليفون.

"الاستيقاظ لا يأتي اعتباطا!"

من أين له همّة ينهض لكي يتوجه يلتقط سماعة التليفون. آلو .. نعم. ليواجه استجابة الطرف الآخر للخط سائلة عن ماذا؟!.

الساعة الآن – وحين تطلع في معصمه – الثامنة صباحا. آلة التليفون تصر بتواصل غبي. خادمته الفلبينية ليتا تنشغل في مكان ما. لا بد له – والحالة هذه – يبادر يتحرك. هدوء كما القنوط يخيم على عموم المنزل. لو لا هذا..

- آلو .. نعم!

رددها متحاملا على انزعاجه، يجيئه الرد متضمنا استعطافا مشوبا خوفا غامضا:

- سيدي سلطان .. أردنا نسألك إن كنت تأذن لنا نقفل المكتب!

كيف لتوقع ما هو غير متوقع؟!

- ماذا؟!

السؤال – إذا أخذ مجردا – يتمخض عن إجابة مكررة. وكان..

الصوت يعرف مصدره. شاب من العاملين لديه. كيف لتوقع ما .. لحظتها ورد استدراك الآخر:

- لعلك لم تعرف بعد!

عجالته تلفظه كلماته تكشف مدى اضطرابه، وأضاف هادفا يوضح:

- الجنود العراقيون..

لكن جملته بقيت عالقة.

- ماذا؟!

السؤال لا يؤخذ مجردا. أصوات طلقات مدافع رشاشة تسمع عبر سماعة التلفون. لم يملك سلطان جزعه.

- آلو !

ما كان له يسمع ردا، في وقت بقي الخط عالقا.

***

ليس من وهلة أولى، ولا أخيرة، ولا حتى مستمرة. مطلوب من سلطان يعرف. مطلوب له أن ..

- " .. أردنا نسألك! .. لعلك لم تعرف بعد .. "

أمس – كما أفادت الإذاعات – عاد ولي العهد الكويتي الشيخ سعد العبد الله من اجتماع جدة. الطرفان : الكويتي والعراقي – كما أفادت الإذاعات لم يتوصلا إلى حل، لكنهما اتفقا على عقد اجتماع ثان، وان لزم الأمر .. ثالث..

الذهن وجهد الاستنتاج. كيف يتسنى لسلطان يربط المعلومات المستقاة بالوقائع ضمن غموضها المستعصي؟!.. وخزة حادة في الصدر، مع قلق الانغمار في زمن عائم.

خط التليفون الواصل بمكتبه بقي عالقا. اجتماع طرفي الخلاف – الكويتي والعراقي – بقي عالقا. ربط المعلومات المستقاة يقتضي: ما دام الأمر قد ارتهن باجتماع ثان فالحشود العراقية – كما هو مفترض – باقية ملازمة حدود الكويت الشمالية، عدا .. خوض العراق حربا ما – إثر حربه الطويلة مع إيران .. بناء على مقتضيات المنطق الموضوعي – انتحار أخرق.

"أعمالك فكرك .. كيف؟!"

إحساس قاهر بعجز الفهم، يصحبه آخر طارئ بالخزي. ان تكون ذا توجه قومي يقترن هاجسا جرى التعارف عليه أنه تقدمي معارض .. بغض النظر، وبغض النظر فإن الحالتين تحققان شعورا هامشيا بالذنب جراء عروبة ما هو قومي، أو قومية ما هو عراقي.

«الكويت أين؟!»

الحدث المصيبة، أن كان شخصيا، هول المفاجأة. حالة ذهول وقتي، يعقبها تشبث بالادراك. يطالبك وعيك لحظتها تتماسك، ويناشدك أن تكون عقلانيا، ترقى إلى مستوى المسؤولية بصفتك.

«الحدث الداهم..»

مطالبتك نفسك تكون عقلانيا أو منطقيا .. كيف؟! .. وخزة الصدر بأشد، وحتى اتضاح ما يتوجب.

***

عبر باب غرفته حيث بهو المنزل. البهو باتساعه. ستائر النوافذ مشرعة. ليتا تحرص تزيح الستائر في الصباح المبكر. الإضاءة النهارية تنتشر المكان. طراوة الهواء من جراء التكييف المركزي، وجانب اخضرار أشجار حديقة المنزل ما وراء زجاج النوافذ.

«الأشياء باعتيادتها!».

إن كان الحدث قائما.. كيف العزلة؟! .. صباحاته عامة كان يرفع صوته مناديا ليتا، تسرع إليه. صباحها ابتسامة رقيقة وكوب حليب مثلج اعتاده افطارا له قبل إزماعه المغادرة إلى مكتبه.. وسط المدنية.

«الحدث باستيعابه!»

مكتبه – عامله الذي هناك. استئذانه اقفال المكتب. صدى طلقات مدافع رشاشة، كما لو أن ساحة معركة ما.

الذهن والصورة الناقصة. ماذا لو أن الحلم الغائم – وقد سبق استيقاظه – في حالة تلاش كاذب، وأن ما يعيشه الآن لا يعدو كونه يقظة وهمية؟! .. لحظة رن جرس التلفون من جديد. أهو مكتبه ثانية؟!

- ألو!

يفاجأ يسمع صوتا رجاليا لا هفا يستوضحه متسائلا:

- سلطان!

نبرات الصوت ليست غريبة على أذنه لولا شعور الزمن العائم. يحصر ذهنه بمحاولة معرفة مهاتفه.

- أنا سلطان.

أراد يختصر حيرته، فاختصر الآخر كلماته:

- أنا محمد خلف..

قسمات وجه الآخر تتداعى في مخيلته. صديق معرفة، يعمل مراسلا صحفيا لجريدة كويتية في أوروبا.

- أكلمك من صوفيا..

محمد خلف يوضح بكلمات مستارعة. يضيف:

- حاولت أهاتف الجريدة .. انما..

سلطان يصغي. الآخر يدلي بسؤاله:

- أبعاد الاجتياح العراقي لبلدكم؟!

لم يعرف سلطان يضبط انفعاله. ندت عنه ضحكة قصيرة مريرة. أصدق محدثه رده:

- لا أدري!!

الآخر لا يخفي دهشته:

- الأخبار المصورة .. الإذاعات .. العالم كله..

سلطان بدوره لا يخفي خيبته الحائرة:

- حتى الآن .. لا أدري!!

***

محمد خلف أنهى مكالمته آسفا. سلطان حالة عطالة ذهنية باقية. شعوره وحدته يتأكد داخله كما لم يحدث له منذ طلاقه من زوجته إيمان قبل ثلاث سنوات وآثر يعيش منفردا في الطابق الأرضي للمنزل. بعدما ارتأت مطلقته أن تساكنه الطالب الفوق.

"المذياع!".

فكرته تنبجس في ذهنه. اتصاله بالعالم الخارجي واستقاء الأخبار من مصدرها ..

"الظرف!".

غموض الموقف العام وحدس الخطر الداهم يقتضيانه يلازم منزله لحين إدراك طبيعة ما يحدث. كلمات عامل مكتبه:

- « الجنود العراقيون..».

وكذا كلمات محمد خلف من صوفيا باقية تتردد في مخيلته. استنتاجه الوارد:

"مع النظام العراقي لا يمكنك استبعاد ما هو مستبعد".

تلفت حواليه. تذكر أن المذياع بحوزة إيمان. البارحة بالذات سألته استعارته. كونهما منفصلين لا يعني قطيعة بائنة.

- ".. الحشود العراقية.. اجتماع جدة".

اهتمام إيمان ومتابعتها الأخبار يفوق حافزه نفسه.

- "توقعاتك عما سيحدث؟".

سألته البارحة. صارحها إجابته:

- " لا أحد يعرف يجزم بتوقع محدد".

اتفاقهما يعيشان كل في طابق. وكانت اعتادت بين يوم وآخر أن تقتطع حينا من وقتها. تطل عليه، تجالسه وهلة، يتبادلان أحاديث ليست ذات خصوصية. صيغة ارتباط مستحدثة، ومرارة فقدانك الآخر رغم بقائه في المتناول.

"مكابرة في الألم!".

الكبرياء. كان سلطان اتخذ قراره يمنع نفسه يبادر يصعد الطابق الفوق لأي سبب خشية مفاجأة الآخر بالتطفل. مغالبة النوازع..

الحدث الراهن. معاناته شعوره الحاد، وحدة داخلية أشبه بضياع المتاهة. احتياجه مشاركته أيما انسان. إيمان بالذات. يدري أنها في الطابق الفوق. يدريها مازالت نائمة، وإلا كانت ركضت نازلة مفجوعة، عدا.. المذياع هناك .. الوسيلة؟! .. أم مغالبة النوازع؟!

***

- "الصيغة الزوجية ما عادت مؤهلة تستمر!"

ذاك ما قالته إيمان قبل ثلاث سنوات.

- "انغمارك الكلي باهتماماتك السياسية على حساب حياتك العائلية.."

طلاقهما جاء بإصرار منها. كان ما يزال يحبها، وما كان له يجادلها.

- " نبقى صديقين خير من أن يفقد واحدنا احترامه للآخر.."

لازمه قنوطه. تاريخه الشخصي بزيجتين فاشلتين سابقتين. الأولى قبل حوالي ربع قرن. أثمرت عن عيسى وسهى، كبرا فتزوجا، ليستقل كل منهما في بيته. الثانية منذ ما يقرب من سبع عشرة سنة أثمرت عن هدى وموسى، يعيشان في كنف أمهما. زواجه من إيمان أثمر عن سليمان.. يكاد يكمل عامه السادس.

"انغمار الفعل السياسي؟!.. أم انغمار الفشل؟!"..

هما يبرمان عقد طلاقهما ناشدته إيمان:

- "نبقي خبرنا سرا!".

سألها مستغربا:

- "لماذا؟!".

أجابته بصوت واعد:

- "ربما تنصلح أمور علاقتنا..".

زمن انتظار مفتوح على المجهول، الإحباط رهن معطياته. نمط العلاقة شفافية نازفة.

- "نبقى صديقين خير من ..".

سلطان – بعد انفصالهما – اتخذ قراره اعتزل فعله السياسي. كرس وقته كله لعمله، تجارة مواد غذائية. إيمان – من جانبها واصلت مزاولة مهنتها محامية لتخصص جانبا من وقتها لنشاط سياسي معارض.

"تبادل مواقع!".

استوقفته ذات يوم مخبرة:

- "اضطررت اطلع أمي على خبرنا ..".

لم يجد ما يعقب به. واستوقفته ذات يوم مبدية إعجابا:

- "نجاحك على الصعيد التجاري مادة حديث لمن يعرفونك سابقا"!".

ود لو يكاشفها:

- "الفشل على الصعيدين.. العائلي والسياسي مدعاة نجاح على صعيد ثالث".

***

البهو بأرجائه. الهدوء يشمل المنزل. أما عما يحدث في الخارج..

"الاجتياح .. كيف ؟!".

الأخبار لا يمكن تكون غير مؤكدة، فأين لك ما تدافع عنه؟!

"قومية المعركة.. كيف ؟!".

شعورك الذنب أو مركبك النقص.. احتياج المكاشفة وضرورة التمامك على غيرك. اللمة وحدها كفيلة أن تطرد وحدتك القاحلة.

طابق أرضي.. طابق فوق .. ليس سوى السلم.. كان سلطان وسط انشداهه حسم أمره يصعد.

«وجوبية الظرف».

***

السلم المؤدي إلى فوق بدرجات عشرين. يتذكر - وهو يتابع تنفيذ بناء المنزل قبل ما يزيد على عقد من السنوات - اراد السلم بدرجات أقل، لكن المهندس المقاول ومستلزمات التصميم.

ذلك الحين ما كان التقى بإيمان بعد. ما كان عرفها، حياته - بالتالي - ما كانت أخذت منعرجها..

«الكويت .. اجتياح عسكري.. وهذا الذهن حالة اجتياح أخرى!».

شمس الثاني من أغسطس تسطع قاهرة في الخارج وأرجاء الطابق الفوق من منزله بعتمة ثقيلة كما المساءات الشتائية الغائمة. إيمان تصر تبقى ستائر النوافذ مسدلة دائما. باب غرفة نوم ابنه سليمان موارب. يبقى نائما ما دامت أمه كذلك. باب غرفة نوم إيمان نصف مغلق. يتسلل بنظراته إلى الداخل. العتمة هناك، رغمها.. كانت ملامح الجسد والدثار غير المحكم. سر علاقتك بالأشياء بمدى فهمك لها. بناء.. ظلت علاقته بإيمان ماثلة ضمن إطار حب مرفوض عبر تقبله.

«لماذا العمر بامتداد متكرر لهزائم متعددة؟!.. ومهزوم اليوم أو منتصره – ما بين الدم والدم .. عراق .. كويت – من سيكونه في الغد؟!».

عيناه واعتياد العتمة. يطوي أصابع كفه. يمدها مترددة إلى الباب. ينقر.

- همم..

تأتي استجابتها غمغمة احتجاج. ما كانت تنبهت تماما. جسدها الصغير بتدويراته الثلاثينية الموحية يكاد يضيع في إطار سريرها الكبير.

الغرائب لا تأتي مصادفة. أبان اشتداد الحرب العراقية الايرانية كانت له إيمان بأصولها الفارسية.

- نعم !

تساءلت، دون أن تكلف نفسها عناء تفتح جفنيها، مما اضطره يخطو داخلا. مناخ الغرفة بروائح متخمرة لمزيج من عطور شتي.

- " سلام".

أرادها تحية تمهيدية. جفناها يطرفان. تفتح عينيها. تلم دثارها حول جسدها. قلقها يتشرب فضولها:

- " خير !!".

خيرها بمواجهته يعني:

- "ماذا تريد مني؟!".

يكاد يشم رائحة جسدها المتأهب لليقظة. لم يشأ يباغتها خبره. عيناه تقعان على المذياع عند جانب السرير. يده تشير.

- أردت استعارة المذياع!

تبقى تحدق إليه في عينيه. قلقها يكبر في صوتها:

- هل هناك أخبار هامة؟!

- أخبار مفجعة!

أفلتها فمه. كان بأمس الحاجة لأن يفضي. واجهته صيحتها الملتاعة:

- ماذا؟!

بحث عن كلماته:

- الجيوش العراقية..

تحرى دقة تعبيره:

- .. على ما يبدو ..

شيء كما الغصة يطبق على حنجرته، أتم:

- .. اجتاحت الكويت.

- ماذا قلت؟!

تساؤلها يتضمن رفضها تصدق. وجهها قبالته. عيناها هاجس الفجيعة. اكتفى أكد خبره بهزة من رأسه. لم يفاجئه رد فعلها:

- مجرمون جبناء !!

هتفت بقهر حاقد. قبل أن تجهش باكية بمرارة.

- "الكويت راحت!!".

لم يتذكر عنها أصولها الفارسية. لم ير تدويرات جسدها. وجد نفسه يأخذها إلى صدره. لم يدر في خلده يواسيها كلمة ما.

"الكلمات لا .. ".

من خلال انتحابها عند صدره سمعها تسأله بصوت مخنوق:

- ماذا عن الأمير جابر؟!

من أين له يعرف؟!

- لا أدري!

وهلة الوقت الماثلة منذ استيقاظه مع رنين الهاتف وحتى لحظتها تبدو وكأنها اقتطاع عابر لزمن ملغي.

سنوات نضاله السياسي. شعار العمر.. "قومية المعركة".. من أين لك ما تدافع عنه. وهذا الشعور الطارئ بالخزي..

- لم أتأكد من ايما خبر بعد.

وضح إجابته. عادت تساءلت بما يشبه الضياع:

- كيف ؟!

خيل إليه أن تساؤلها لا يشمل توضيحه، لكنه يدور في إطار العجز عن فهم حالة غلط قائمة وحادثة من خلال حضور آلي جبار.

"الكلمات لا ..".

ببادرة لم يتوقعها أبعدت رأسها عن صدره. توجهت بعينيها نحو السقف. حالة الخلوص هذه يعرفها. شيء كما القشعريرة.

- رب احفظه!!

لهجت بخشوع متوسل، لتعود تدفن وجهها في صدره مواصلة نحيبها. للمرة الأولى- منذ سنوات طفولته المبكرة، وبفعل غير مدرك - تنبجس في عين سلطان دمعة كبيرة. لم يتسن له يسأل نفسه:

- "كيف؟!".

وللمرة الأولى - منذ تلفون عامل مكتبه - يزايله شعوره الطارئ بالخزي.

(2)

المذيع بأهمية " متميزة. وحده - كما هو مفترض - يبدد أنماط الحيرة كافة، ليؤكد جسرا من المعرفة بواقع الأحداث.

" أيها الشعب الكويتي الأبي.."

حواس سلطان تستنفر تصغي.

" .. حان الآن وقت التضحية والفداء. دافع عن وطنك ووجودك. أشهر سلاحك في وجه الغزاة البرابرة!"

الصوت المستنجد مألوف لسلطان. وما هو غير مألوف صيغة الطلب المتصل بالسلاح. من أين لأي مقصود بالنداء بأي سلاح يشهره؟!.. شر البلية ما يبعث على الاستغراب العاجز حد المذلة.

- أيهما فات أوانه..

تساءل سلطان بصوت أسيف، وواصل بالصيغة ذاتها:

- .. توزيع السلاح؟!.. أو الاحساس بالتقصير؟!

إيمان لا تنتبه تسمع ما قاله. يدها تمتد إلى مؤشر المذياع تحركه.

" أيها الشعب الكويتي الأبي.."

مذيع آخر يصرخ متحمسا عبر إذاعة أخرى:

".. بوركت لك ثورتك التحررية الظافرة"

الصوت غير مألوف لدى سلطان، وما هو غير مألوف أن يسمع أخبار ثورة ظافرة تقوم هنا لتحدث هناك.

- اللعبة.. أم اللاعب!!

يتبادل مع إيمان نظرات تتفق على تسفيه الادعاءات المسموعة، وتتفق .. "مهما كان حجم وطبيعة الخسارة الناجمة عن اجتياح اليوم، فأن الحدث برمته محكوم بوضع له حده خلال أيام قليلة قادمة".

***

كانا - إيمان وهو - قد انتقلا إلى الطابق الأرضي، حيث البهو، الذي تحول - بفعل

الاعتياد - غرفة معيشة.

اليوم غيره عن كل الأيام. هدوء أشبه بالانقطاع. ونهار ساطع يبدو وكأنه مشبع بدخان ثقيل خانق غير مرئي.

وهما يهبطان السلم التقطت أذناه أصوات أواني الطعام لدى احتكاكها ببعضها قادمة من ناحية المطبخ الملحق ببناء المنزل.

وتيرة الحياة اليومية بالنسبة للخادمة ليتا تتواصل اعتيادية. هي لم تعرف الأخبار بعد. إيمان كانت سترت جسدها بثوب بيتي فضفاض، وحين دخلت ليتا حاملة عينات طعام الافطار، اكتفيا - إيمان وهو - أخذا كوبي شاي.

- ما رأيك؟

سؤال ايمان، رغم اختزاله تفاصيل كثيرة، يحيط بالأحداث القائمه، ومن دون تفكير مسبق أجابها باختزال مواز:

- كابوس مؤقت.

تساءلت متشككة.

- تظن؟

ولم تنتظر عليه تعقيبه. يدها إلى المذياع تواصل تحريك المؤشر بحثا عن إذاعات أجنبية، بمحاولة لنشدان أخبار موثوقة.

" في الساعات الأولى من فجر هذا اليوم تعرضت الكويت.."

الإذاعات العالمية تستبق:

".. علما بأن هذه الدولة الصغيرة الواقعة في الطرف الشمالي للخليج، والتي يقوم دخلها الأساسي على عائدات النفط..".

إذاعات أخرى:

".. حتى ساعة إعداد هذه النشرة لم تتوفر أخبار مؤكدة عن مصير أمير دولة الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح، وولي عهده الشيخ سعد العبد الله الصباح".

يتبادلان، إيمان وسلطان، نظرات مضيعة. هل يتعامل مع الخبر على أنه مدعاة للأمل، أو العكس..

- ما رأيك؟

تعيد عليه السؤال.

- الكويت بلد محدود المساحة، بلا تضاريس..

ود لو يستطرد:

- .. بلا استحكامات دفاعية كفيلة.

"لكنه آثر يختصر. أضاف:

- .. يسير جدا على جيش كبير مدرب كالجيش العراقي.. بحكم سيطرته الكاملة خلال ساعات.

م ترفع عينيها عن وجهه.

- إذن ؟!

فهم ما يجول في ذهنها . أجاب:

- لا بد من تدخل خارجي.

***

لاستنتاج على عواهنه. التدخل الخارجي شأن له تعقيداته، ولن يتم بالسرعة التي تم بها الاجتياح الذي اعتمد المباغتة.

لأمر الأقرب إلى المنطق: موقف عربي - دولي حازم يجبر المعتدي يتراجع. ويبقى لسؤال المرير .. « لماذا ؟!»، وسؤال محير أكثر مرارة.. «لمصلحة من ؟!»، عدا عن سماجة ادعاء.

.. بوركت .. ثورة تحريرية ظافرة».

يمان لا تكف تحرك مؤشر المذياع.

أجرى جلالة الملك.. «.

مذيع يمهد لخبره. يواصل:

تصالات هاتفية بفخامة الرئيس العراقي..».

كثيرة متنوعة تلك المشاعر التي ضغطت أنفاس سلطان منذ لحظة استيقاظه وحتى الآن.

مدعاة حيرة!».

إيمان تصر تتطلع إليه في عينيه، باحثة عن رد فعلة إزاء السماع هل يخبرها شعوره المستجد بالتخلي؟!

«مدعاة قنوط!».

ليس من السهل على عقلية ذات توجه سياسي بفهم منطق الأحداث أن تؤلف ما بين ضرورة مبادرة طرف عربي فاعل بتدخل فوري، وبين .. « فخامة ..

«هل هو منطق الاعلام العربي في حالاته؟!»

يمسك زفرة يائسة كادت تنفلت من فمه. يهرب بعينيه عن مواجهة عيني إيمان. يقول هادفا تعويم فهمه:

- يجب لا نتعجل الحكم على الظواهر.

***

بدهشة منها - رغم انفصالهما - ظلت تركن إليه كلما دعتها الحاجة، مما يؤكد له ثقتها به ما زالت ضمن حدود ارتأتها هي.

هذا الموقف استدعاه يستمهلها ذات ظرف، يسألها أسبابها، ليواجه ردا فوريا بدا وكأنه عفوي:

- صداقتنا فوق كل اعتبار.

ولأنه لم يعقب أضافت متسائلة:

- أليس كذلك؟!

أنى له امكانية يتسلل إلى وعيها، يجعلها تدرك استحالة التوفيق - بالنسبة إليه - بين واقع أنه كان يملكها كلها عبر امتدادهما في زمنهما المشترك، وبين أن يتساكنا .. طابق تحت .. طابق فوق؟!

«علاقتك بالأشياء مرهون بمدى فهمك لها».

من منهما فهم ما الذي تعنيه معاناة الآخر ! .. ورد الفعل المترتب ؟!

«في تصريح لأحد مسؤولي المنظمة من تونس..».

المذياع يواصل .. وأعتى مواقف الأقربين وأشدها قسوة على القلب أن يجيء التخلي في وقت تكون فيه المحايدة عملا مشينا.

«صرح رئيس وزراء..».

التوالي يعني الاتفاق أو التفاهم. جسامة المصاب عندما يحل فهمه متأخرا، وما جرؤ سلطان يقول لإيمان:

- يجب نتعجل الحكم على الظواهر.

***

إذاعات العالم من أقصاه إلى أقصاه تتحدث عن الكويت. سلطان موجود هنا. منطقة بيان من الكويت، وهذا الشعور الطاغي بالانقطاع عن كل ما له صلة بالعالم الخارجي بصفته كرة أرضية.

الابتسامة.. أيما ابتسامة، لا بد تعني شيئا، أو تؤكد معنى ما، عبر الشفتين أو العينين. كثيرة هي المرات التي تعاطى فيها سلطان الابتسامة. هذه المرة وحدها تختلف عن سابقاتها كلها.

ابتسامته، الآن، تبدأ في داخله، لتظل هناك في الأعماق، مريرة كما الحب، شامتة كما الأشقاء.

من أين للكويت - وهي مكانية جغرافية - تتلبسه من أعماقه، لتتمثله احساسا جياشا يستحيل معه الفصل بينهما. ليشعر بأنه هو الكويت، وأن الاستباحة الماثلة واقعة عليه بشخصه.

«جدلية الذات والمكان».

التفت إلى إيمان.

- لنا شرف يهتم العالم أجمعه يتحدث عنا.

ما كان تخلص من ضغط ابتسامته الداخلية الدالة. تطلعت فيه. عيناها بسؤال ضمني:

- "العبرة؟!".

تتواتر الأحداث والأخبار وردود أفعال ومواقف جهات عربية متفاوتة. إذاعة بغداد والإذاعة الكويتية الناطقة بلسان إذاعة بغداد:

"فتية من الكويت آمنوا بربهم..".

الإيمان والنظام العراقي صنوان!

".. ثاروا على الظلم والفساد.. وفي لحظة مشرقة من الانبعاث العربي القومي المؤزر تمت الإحاطة بعروش البغي في كويت السؤدد..".

النتيجة المستقاة:

"الثوار المزعومون - بعدما نجحوا سيطروا على مقاليد البلد كافة، وخوفا من تدخل خارجي لصالح النظام السابق المنهار - طلبوا مساعدة أشقائهم من نشامى العراق، فهب هؤلاء يلبون النداء".

اجتماع جدة كان أمس. من هم هؤلاء الفتية وقد آمنوا بربهم .. كيف ؟ ! النشامى تلبية النداء !!.. اللعبة واللاعب!!

أيا كان تدني مستوى ذكاء القائمين على أنظمة بعينها .. لا بد للكذب المقصود يحاك مقبولا، وإلا مدعاة ماذا؟!

الكويت تعرف ناسها فردا فردا بأسمائهم وأهوائهم، وإن كان هناك من ثاروا فهم في حقيقتهم ليس حقيقتهم.

في السنوات الأخيرة جرى تداول مفهوم « تصدير الثورة»، أما عن استيرادها .. يحز في نفسك حد الحقد العاجز المشرب بالغثيان يواجهك من يستبيحك. يكشر لك مبتسما. لا يندى جبينه وهو يردد على مسامعك:

- أنا هنا لنصرتك.

***

دخلت ليتا حاملة صينية صغيرة بفنجاني قهوة. تعابير وجهها لا تكاد تخفي انطباعها بالقلق والخوف.

«لعلها بدأت تعرف!».

ردد سلطان مع نفسه. كانت ليتا قدمت قهوتها ولم تنصرف مباشرة كعادتها. نقلت نظرتها بين وجهي إيمان وسلطان، قبل أن تتفوه سؤالا مترددا يشي ببوادر جزعها:

- هناك حرب!!

إيمان تحيل مهمة الإجابة إلى سلطان، الأخير يسعى يوضح هادفا يخفف وقع خبره:

- بهذا الشكل أو ذاك.

خوف ليتا وقلقها يكبران في عينيها. سلطان يواصل:

- الأمور لم تتضح بعد.

نظراتها تبقى عالقة في وجهه تستوضحه المزيد.

- هي أزمة أيام .. على الأغلب.

لا يبدو عليها أنها اقتنعت بما سمعت، مما حفزه يضيف:

- الأحداث بطبيعتها تنحصر بين العراقيين والكويتيين.

يترسم دقة استنتاجه. يكمل:

- الجالية الفلبينية بمنأى عما يحدث.

استسلمت بتسليم حزين حائر، لتنسحب بالهدوء الذي قدمت به، ما كان بدا عليها بعد اقتنعت بما سمعت.

***

الكويت. خصوصية التركيبة السكانية. الجاليات التي لا حصر. الفراغ الأمني المترتب، الداخل ... وما هو متوقع.

ملاحقتك مؤشر المذياع بحثا عن أخبار. الإذاعات الخارجية تلاحق ردود أفعال الخارج. أما عما يحدث هنا .. وكالات الأنباء العالمية تجمع:

- لا يزال الغموض يحيط الأوضاع داخل الكويت".

إذاعة الناطقة بلسان بغداد أوردت:

- بيان مجلس قيادة ثورة الكويت المحررة يؤكد للمواطنين الأشاوس أن الأوضاع مستتبة.."

دهشة إيمان لا تخفي مرارة سخريتها:

- صار لدينا مجلس قيادة ثورة!

- أيا كان مستوى عبقرية القائمين على نظام بعينه .. لا بد للكذب - في حالات منه - أن يصبح مدعاة..".

مجلس قيادة الثورة المعني يناشد الكويتيين – دون غيرهم – أن يكفوا عن إبداء مظاهر ابتهاجهم بنجاح ثورتهم المؤزرة، ويهيب بهم، بلهجة مشبعة وعيدا، ملازمة منازلهم... حتى إشعار آخر.

- معنى هذا ..

تساءلت إيمان بلهجة تتضمن جانبا من طموح خفي، واستطردت:

- .. الاحتلال لم يفرض سيطرته الكاملة على الكويت!

استغرب منها استخدامها كلمة " احتلال". أدبياته السياسية تفيده أن الاحتلال يجيء استعماريا غربيا بالدرجة الأولى، أما والحالة عربية عراقية.. فوضى الذهن باختلاط المفاهيم وتبادل مواقع القيم. الإذاعة الناطقة بلسان بغداد تواصل إعلان اجراءات:

«بناء على مقتضيات المصلحة الوطنية العليا قرر مجلس قيادة الثورة في الكويت المحررة إغلاق المعابر الحدودية.. الموانيء .. المطار الدولي .. بدءا من ساعة إعلان هذا البيان..».

أناشيد وأغان وطنية عراقية حماسية وقراءة إذاعية لسيل من برقيات التهنئة والتأييد وإرادة عن أرجاء القطر العراقي الشقيق، بقطاعاته الرسمية والشعبية المختلفة.

«الأمور مبيتة. أوراق اللعبة لم تكشف كاملة بعد!».

تحليل إخباري لإذاعة لندن:

«خلال سنوات الحرب العراقية الإيرانية لعبت الكويت دور حليف أساسي إلى جانب العراق، ودفعت لقاء ذلك ثمنا باهظا تمثل في زعزعة استقرارها الأمني وعرقلة نموها الاقتصادي.. النظام العراقي أثر انتهاء حربه مع إيران.. صناعته العسكرية واقتصاده المثقل بالديون. تطلعه إلى جارته الغنية.. جانب آخر.. إصرار العراق يكون له منفذه البحري في المياه العميقة. وطموح الاستيلاء على جزيرة بوبيان الكويتية. افتعال الخلاف حول حقل الرميلة النفطي.. جهود وساطة عربية عالية المستوى تكللت بتحقيق لقاء قمة الطرفين في جدة.. آمال التوصل إلى تسوية، لكن نظام بغداد استغفل الجميع.. هاجم الكويت بقوات تفوق من حيث العدد عشرات أضعاف الجيش الكويتي، مما يشير إلى ..».

يتحول سلطان بانتباهه عن المذياع. جرس التلفون عاود رنينه.

***

التلفون وسيلة أخرى لمعرفة ما يدور. يد إيمان تمتد إلى المذياع تضبط مستوى الصوت. يد سلطان تمتد إلى سماعة التلفون.

- آلو!

يباغته صوت رحّال:

- صباح الخير.

لله في خلقه شؤون. يحسده تماسكه. ويدهشه تذكره يهاتف. علاقتهما - بما هي عليه - لا ترقى..

- "أهلا رحّال".

رددها دون أن يعرف كيف يخفي مشاعر قلقه واستفزازه. رحال - في فترة سابقة من زمن الاهتمامات السياسية التقدمية- كان أحد الشركاء النشطين حد التطرف. كان - كما خبر عنه - كويتي الولادة يساري التوجه، ريثما اشتد أوار الحرب العراقية الإيرانية فآل رحال إلى توجه ديني طائفي، معلنا شجبه النظام العراقي المعتدي وقتها، ومانحا نفسه حق مناصرة المعارضة العراقية المستضعفة.

- ما هو رأيك بالمتغيرات الحالية؟!

رحال يسأل. السؤال بحد ذاته إذا أخذ بالصيغة واللهجة يصبح مدعاة للشك. يمسك سلطان على نفسه شعوره بالاستفزاز.

"من منهما أخطأ الآخر؟!".

ويظل ملزما يساير محدثه. يردد كلمته كمن يستوضحها:

- متغيرات؟!

تتدافع كلمات محدثه موضحة:

- المتغيرات التي طرأت على الساحة الكويتية اليوم!

دماء سلطان تتدافع في رأسه. تضغطه من عينيه. الغضب حالة لها ما يبررها. سؤال رحال يزمع يستشف موقفه. يشككه نفسه.

«من منهما أخطأ الآخر؟!».

الساحة - كحدث حالي - هوية مستباحة. والحد الأدنى من المنطق - سياسي أو غير .. - لا بد يفهمها بصفتها ساحة حرب فجيعة، مؤهلة تضع حدها فجيعة أخرى مماثلة، أو أشد.

- في الحقيقة..

سلطان يتحرى حذره. رحال - كما تبادر إلى ذهنه - لم يبادر بمهاتفته بإيعاز ذاتي محض. لعل أولئك الذين تعاملوا مع الحدث على أنه متغيرات..

- .. أنا ما زلت في موقف المراقب.

أكمل سلطان إجابته باذلا جهده يهيمن على انفعاله.

- طيب ..

قالها محدثه. لعله فهمه. وختم:

- .. سأحاول اتصل في وقت لاحق.

تنبه سلطان إلى أنه كان يلهث. الغضب حالة لها ما يبررها. وتنبه إلى إيمان تسأله باهتمام أليف يتشرب محبة:

- ما بك؟

كان أعاد سماعة التلفون مكانها، وكان يحتاج يلم أشتاته. إيمان تواصل بقلق مشارك:

- وجهك محتقن بالدم!!

افتعل ابتسامة مطمئنة.

- رحال.

قالها كلمة مجردة، ولم يضف. كان ما زال يحتاج يلم أشتاته.

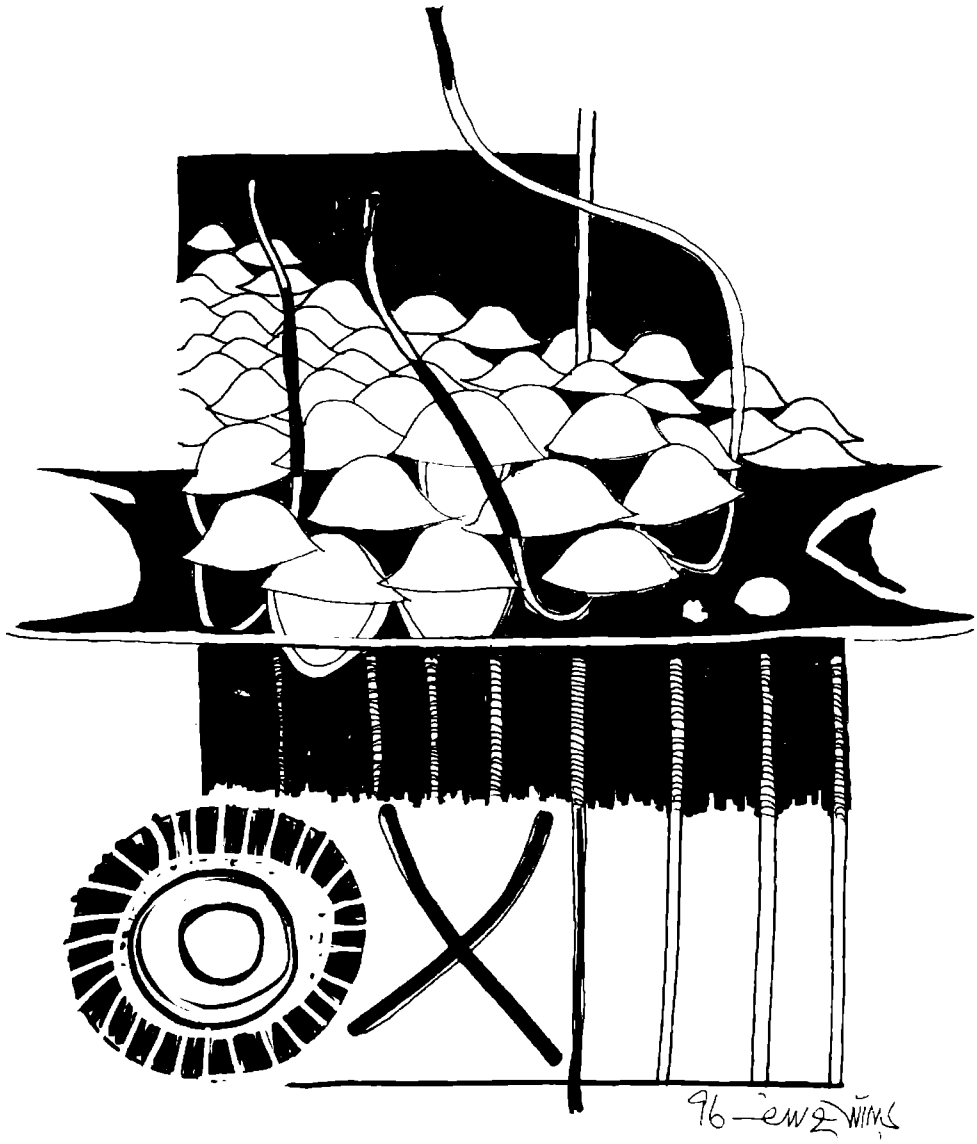
96 EWE WINKS

(3)

العالمون ببواطن الأمور من هم؟!.. ما حدث لا يمكن يتم بمعزل عن تخطيط متفق عليه مع أكثر من طرف .. منطق الأحداث يؤكد ذلك.

يبقى سلطان يضرب أخماسه بأسداسه على ما لا نهاية، ولو أن حيرته وقفت عند حده وحده .. لكنها تتسع لتحتوي وطنا بأسره.

عجيب أمره الإنسان، لا يعرف الثمن الحقيقي للأشياء إلا بعد فقده لها. رقعته الجغرافية .. "كويت"

كم هو الزمن الذي عاشها أو عاشته؟!.. كم هي حالات الفرح والاحباط؟! .. توه يدرك معنى كلمة وطن.

في حالات سابقة كان يستشعر شيئا ما، بالذات حين يسافر خارجا ويغيب. الشوق للأهل والأصدقاء. حنين المكان .. نكهة ورائحة وحركة..

يحدق إلى إيمان المنشغلة تبحث في مؤشر المذياع. الوضع الآن يختلف عما سبق خبره. حالة عاجزة من انعدام الوزن ضمن فراغ موحش مترام ومجهول في آن واحد، وفي آن واحد يرى نفسه يتفرج على نفسه من خلال متابعة أخبار الإذاعات العالمية، ليعرف مجريات ما حدث ويحدث له.

في ظرف تكون حكومة وقوانين وحضور وحدود جغرافية يمكنك تميز بين مفهومي وطن ومواطن، أما والاستباحة واقعة فالمواطن هو الوطن.

يعرف أنه لدى تعاطيه السياسة رصد جانبا من اهتمامه للقضية الفلسطينية بصفتها الهم القومي في مقامه الأول. حاليا – معاناة ما استجد – بقدر يستشعر واقعيا هامش الاغتراب .. ولا عذر.

***

صيف الكويت اللاهب واعتياد نسبة كبيرة من السكان قضاء الإجازة في الخارج.

أفراد .. عوائل .. توزع غير محدد في شتي العواصم العربية والأجنبية.

أغسطس .. العد التنازلي لانقضاء الإجازة الصيفية .. بدء استعداد من هم في الخارج للعودة إلى الوطن.

الاجتياح العراقي في الوقت الضائع.. هول المفاجأة.. أن لا يكون لك وطن تعود إليه. وأن تكون منقطعا في الشتات.

« أين لك تستوعب ما يحدث؟!».

العواصم .. حيث توجد سفارة كويتية.. الكويتيون يتراكضون إلى سفارتهم.

«كيف ؟!».

وحيث لا توجد سفارة .. أين؟!

وكالات الأنباء تتناقل تشير. الحالة - بغض النظر عن وصفها - تكشف حجم المعضلة. آلاف.. عشرات الآلاف من العوائل الكويتية يتصادف وجودهم خارج الكويت، بما يكفي لتشكيل تعداد شعب صغير.

الانقطاع .. شعور فجيعة ما يحدث للأهل في الداخل .. الوطن .. الأرواح .. الممتلكات .. وسؤال بحضور هائل:

«ماذا عن غد؟!»

***

شعور كويت الداخل بالعزلة بدأ يتعمق أكثر. الغزاة - من خلال إحكامهم قبضتهم - قطعوا خطوط الاتصال الهاتفي الدولي.

«الإجراء القادم!!»

الصياد واستفراده فريسته في الفخ. ليس أمامك سوى توقع الأسوأ. الإذاعات وأنباء تفيد أن العديد من العواصم العربية تهاتف بعضها. أحاديث عن جهود وساطة عاجلة تطمح تتدارك.

احتمالات النجاح والفشل يقابلها إقدام حكومة بغداد إعلان اعترافها الرسمي بالكيان الكويتي الصنيعة.

«التصعيد المقصود لمصلحة من؟!»

بعيدا عن قيم الجوار والشيم العربية .. المعايير والأعراف الدولية أين؟!

***

لغط من جملة أصوات بشرية متباينة يتعالى عند بوابة المرآب المطلة على الشارع

الخلفي للمنزل. سلطان وإيمان يتبادلان نظرات قلقة.

العلاقة بما هو خارج باقية مقتصرة على المذياع. مناخ الانتظار الهش، والتراكض ما بين الإذاعات .. الجزع الناجم عن توقع الحدث الأسوأ.

ماذا لو أن الغزاة بدأوا يجتاحون منازل الكويتيين؟!.. لو .. كيف سيكون الفعل؟! وما هو رد الفعل المترتب؟!.. حالة ضعف عزلاء مستفردة. جزعهما يكبر في عيونهما. الخيارات محددة حد السكين. أن يأتي التسليم هكذا:

- "حياكم الله"

والصيغة البديلة تسليم صامت يتخلله احتجاج ضمني يروم يتشبث بأذيال رد اعتبار مهدور مفروغ منه.

- ترى..

هدفت إيمان تصرح عما جال في ذهنها وكفت. ليتا كانت دخلت مسرعة.

- سيدتي!

قالت لافتة اهتمام إيمان، خبرت:

- .. أهلك وصلوا!

لتنفلت تعود من حيث أتت. الأثنان. إيمان وسلطان يتنفسان صعداءهما. الواقعة المتخيلة ما زالت مؤجلة. رغم هذا لم تتردد إيمان تفصح دهشتها عاقدة حاجبيها:

- أهلي!!

غمغمت مستغربة، لتؤكد تساؤلها بآخر أشد استغرابا.

- كيف وصلوا هنا؟!

***

ارتفاع شمس ضحى ثاني أغسطس. اللمة في ظرف خطر مستغلق الغموض تمنح قدرا من الاحساس بالأمان.

- أخشى نكون قد فاجأناكم بمجيئنا!

تحدثت أم إيمان ممهدة لاعتذارها.

- أبدا.

بادرها سلطان بلهجة قطعية، أضاف:

- جئتم على الرحب.

استعداده كان صادقا، وكان يهدف يلم بعددهم.

- وجدنا حالنا مضطرين..

إجمالي عددهم ثمانية. حالة لجوء من نوع خاص.

- .. الجنود العراقيون اقتحموا المبنى .. حيث نسكن .. طلبوا من السكان الاخلاء خلال نصف ساعة.

تبادر إلى ذهن سلطان.

"الاحتلال .. بوادر أولى!".

في حين واصلت، الأم توضح:

- عملوا على إخلاء المباني المواجهة للبحر كافة.

سنها قاربت الستين. لهجتها باقية بردة فارسية، رغم كونها وفدت الكويت منذ صدر شبابها.

- إجراءات دفاعية.. على ما يبدو.

زوجها الحاج محمد هو الذي تحدث هذه المرة. اجتهاده يبدي رباطة جأشه لم يخف نغمة الخوف من صوته.

- مداهمة الجنود للمبنى..

عادت الأم أخذت زمام الحديث. أكملت بأسى باد:

- .. نصف ساعة .. تحت تهديد السلاح.

تند عنها زفرة تسليم بائس. تختم:

- .. ما كانت كافية للتفكير بأخذ أي شيء!

هدف سلطان يهون:

- المهم وصولكم سالمين.

رآها تهرب بعينيها عن مواجهة عينيه.. شعورها التطفل. ألأنها وحدها تعرف خبر طلاق ابنتها إيمان منه مما يلغي لديها جانب أحقيتها تجيء بيته.

« مقتضيات الظرف القاهر!».

لم يراوده هاجس يحتج. وراودته رغبة يعرف أيما معلومات تختلف عما تابعه عن الإذاعات مذ لازم مذياعه.

- ما هي أخبار الناس؟!

تساءل لاهفا، ويده تشير تشمل ما وراء جدران منزله.

- الجنود العراقيون..

إجابة الحاج محمد بعدما فهم السؤال على طريقته، أكمل.

- .. ينتشرون كالجراد. يملأون الشوارع والساحات والمباني.

سؤال سلطان يندفع عفويا من فمه:

- والجنود الكويتيون؟

تطلع الحاج محمد ناحية ابنه عبد الله كمن يستمزحه رأيه قبل رده:

- لم نر أيا منهم.

سنه تقارب سن زوجته. لغته العربية سليمة مع لكنة أقرب لأن تكون عراقية جنوبية، جاءت من جراء قضائه سنوات صباه في عبادان.

- الجنود العراقيون يكادون يسيطرون على البلد.

عبد الله الابن يتطوع يفضي معلوماته.صوته يتشرب مرارة حزنه:

- .. يتصرفون بصفتهم أصحاب الأمر والنهي..

السماع والصورة المتخيلة. وسؤال لا يجرؤ يفصح عن نفسه:

"كم هي مساحة الأمل؟!".

حالة لجوء ذات طابع خاص.. الربكة والقلق وغموض ما هو آت. الأم - رغم الترحيب الذي أبداه سلطان - لم تطمئن بعد. كانت انتحت بابنتها إيمان ركنا، وطفقتا تتداولان كيفية تدبر الموقف المستجد.

تتوافر لسلطان فرصة يتفحص الوجوه. يراها مرهقة كلها، وكلها تشي بانطباعات الجزع والتوقع والخوف من المجهول.

حنان، الأخت الكبرى لإيمان، في السادسة والثلاثين. قصيرة القامة والشعر. بتقاطيع

وجه حادة وتحديقة عين نفاذة. عظامها البارزة وهزالها يؤكدان مزاجها العصبي. تبدو تبذل جهدها تبقى هادئة. ابتسامتها المترددة تنم عن أنوثة مهملة لم تجد فرصتها لتمارس سحرها.

زوج حنان، رمضان، يكبرها بضعة أعوام، قامة عملاقة.. شعر رمادي. نظرات ذكية تكشف عن خبرة حياتية كافية، أهلته لأن يعمل مقاول بناء لدى إحدى الشركات الكويتية ذات الاختصاص. كان رمضان يبذل قصاراه يبدو دمثا، دون أن يوفق يخفي مشاعره كونه يتطفل على المكان.

جعفر.. صبي في الرابعة عشرة.. ثمرة زواج حنان ورمضان. قامة نامية ملامح وجه تشير إلى وسامة رجولية مبكرة.

تنبه سلطان إلى أن الصبي يراقب والده من طرف خفي، بمحاولة دائبة لترسم شخصية الأب، هادفا يتسلك غرارها.

شيرين، الأخت الثانية لإيمان، في الثالثة والثلاثين من عمرها. تعمل سكرتيرة في شركة البترول الوطنية. كانت - قبل اثنتي عشر سنة - تزوجت من شاب إيراني يعمل مدرسا هناك، مما دعاها تتغرب في وطنها.. إيران، لتعود بعد غياب ثلاث سنوات مطلقة، بصحبة طفلتها وفاء.

تفصح تقاطيع وجهها وهالة شعرها عن جمال فارسي وحشي، في حين ينم الخطان اللذان يحوطان فمها عن حساسية مفرطة ومعاناة تجربة حياتية قاسية سبق تعرضت لها.

وفاء أبنة العاشرة. نبته برية طالعة متمردة، تؤكد في جانب كبير من سلوكها - شخصية أمها.

يبقى عبد الله. الأخ الوحيد لإيمان. يصغرها ثلاثة أعوام. وسيم، لين، اتكالي في أغلب حالاته، يشكل مع رمضان ثنائيا غير متجانس.

***

إيمان وأمها ما زالتا تنتحيان ركنهما تتشاوران. سلطان - وسط توزع ذهنه من جراء الغموض الذي يحيط بالأحداث عامة - لم يتسن له يفكر في الكيفية التي سيستضيف بها وافدية الجدد.

«لجوء اضطراري!».

ذاك ما خطر له لحظة وصولهم، ولم يتوقف بينه وبين نفسه يسألها عما بعد، ريثما بادرته إيمان:

- سلطان!.

صوتها يستميحه يستجيب، ويدها تشير له.. اقترب، لدى وصوله عندها همسته بلطف مستضعف:

- أمي تتساءل..

ترددت لثوان، أفصحت أثرها بخجل طموح:

- .. إن كان وجودهم يثقل عليك..

هيمنة خبر الكارثة. أحس سلطان كما لو أن هناك من يستعديه قاصدا يقينياته.

- هم هنا!

قاطعها بعتب حاد ولم يضف. شاعت في وجهها ابتسامة عرفان غمغمت بما يشبه اعتذار متأخر:

- كنت واثقة!

لحظة انصرافه حانت عنه التفاتة خاطفة إلى الأم. رأي عينيها تشملانه اعتزازا تشوبه محبة خالصة.

***

- سليمان!

هتاف مرحب صدر عن الأم. تنبه سلطان يرى صغيره يهبط السلم تصحبه ليتا، وآثار النوم باقية تكبس جفنيه. انشغالهما هو وإيمان بما استجد جعلهما يغفلان أمر أبنهما تماما، حيث واصل نومه وحيد الطابق الفوق..

«هيمنة الكارثة!!».

سليمان وقد فوجئ بازدحام المكان يغفل نداء جدته. يحث خطوه تجاه أبيه. يندس عنده.

«حين يلتم عليك بعضك!».

دفق من حنو الأبوة وحزن بطعم المأساة. كيف سيكون رد فعل الأطفال إزاء ما

يجري؟!.. وماذا عن قراءة التاريخ مستقبلا؟!

- سليمان!

الدعوة هذه المرة صدرت عن وفاء أبنة العاشرة. سليمان يتململ برهة، قبل أن يلبي دعوة أبنة خالته. يلتحق بها.

"الأطفال لا يعدمون اهتمامات مشتركة".

ليتا تقترب من سليمان تسأله وجبة إفطاره. الأخير يصرفها بإشارة من يده، كان محتفيا بوجود وفاء معه.

"الأطفال – آنية الكارثة – آخر من يستوعب يدرك، وهم – كنتائج مترتبة لاحقة – أفدح من يدفع!".

قلق سلطان بدأ يستفزه. تذكر أبناءه الآخرين. مفروض به يطمئن عليهم ، يهاتفهم على الأقل. تذكر أخوته الخمسة.. مفروض به أيضا. ورد في ذهنه أكثر من اسم لأكثر من صديق.

"الجدوى؟!".

تساؤل مخذول يشغل عليه مشاعره. إقدامه يهاتف المعني بهم أو إحجامه.. يبقى اطمئنانه الشخصي وعدمه سيان ما بقيت حال البلد..

***

منذ بدء الأحداث وحتى لحظته تلك لم يغادر سلطان منزله. حاجته الملحة لمعرفة ما دار ويدور في البلد. عبد الله ورمضان.. كونهما شاهدي عيان قدما لتوهما من خارج طفقا يتناوبان يرويان.

- يقال إن القوات العراقية لجأت إلى أسلوب المخادعة كي تغرر بالكويتيين.. تتغلغل داخلا دون مقاومة.. ذلك من خلال رفع أعلام كويتية.

- الجيوش العراقية.. بأعدادها الهائلة .. اندفعت – كما هو واضح – ضمن خطة معدة مسبقا، لتحتل المواقع والمراكز الحساسة بسرعة فائقة، بدت البلد بعدها وكأنها وقعت تحت سيطرتها الكاملة.

- الطيران الكويتي قام بطلعات متعددة بهدف التصدي للقوات المندفعة.. توقفت هذه الطلعات بعدما جرى قصف مدرجات المطارات من جانب المدفعية العراقية.

- معارك شرسة دارت بين المهاجمين ووحدات الجيش الكويتي في أكثر من موقع، مع عنصر المباغتة، والتفوق العددي الكبير..

- جهراء .. جيوان ... الحرس الوطني.. الكلية العسكرية..

- قصر دسمان تعرض لقصف مركز قبل اقتحامهم له.

- قصر الشعب تعرض بالمثل.

معنى الحاضر في ذهن سلطان:

"يحتلون رموز الوطن!".

رغب يستوضح متسائلا، لولا مواصلة عبد الله:

- "رتال الجيوش العراقية الجرارة ما زالت..

"عقبه رمضان.

- وارتل لا نهاية له من السيارات الكويتية المحملة بالبشر.. أغلبهم من النساء و الأطفال .. باتجاه الحدود مع السعودية..

سلطان وازدحام ذهنه أسئلته. كان أوشك يدلي لحظة أشارت إيمان للجميع.. ان صمتوا. يدها باتجاه المذياع.

"شعبنا الكويتي العظيم.. نزف إليك هذا الخبر.."

صوت المذيع يعرفه سلطان. أمله يتفرع في صدره. يكف يتنفس كي ينصت كله. مذيع يواصل بصوت متهدج:

".. أميرنا الشيخ جابر الأحمد الصباح وولي عهده الشيخ سعد العبد الله الصباح سلمان وفي مكان آمن".

صيحات فرح غامر. جعفر ووفاء يعبران عن ابتهاجهما بالتصفيق. سليمان يحذو حذوهما. شيرين وحنان تنتحبان باكيتين سعادة. الأم.. دمعة كبيرة مغفلة، الحاج محمد يشيح بوجهه مخفيا رد فعله.

قشعريرة حادة تهز كيان سلطان. كيف لشعر الجسد والحالة فرح ان ينتصب؟! وكيف لسلطان والحالة فرح بداخله شعور بالتقصير إزاء رد الفعل العفوي لضيوفه؟!

«أيهما كويتي من الآخر؟!».

(4)

إيمان، والبيت يضيق بالوافدين الجدد، تتلبس على الفور شخصية مسؤولة حازمة. استيعاب الحدث. التعامل معه وكأنه دائم.

- علينا أن نبدأ!

بادرت جمعت أمها وأختيها. أشبه بلقاء مصغر.

- الحدث .. مضاعفاته!!

الأخريات ينصتن بفضول.

- .. ربما نشوب حرب لا نعرف أبعادها!

هاجس الخوف من المجهول.

- .. احتمال غارات جوية!

تبدو وكأنها تهيب بمن يسمعها:

- ضبط النفس .. معرفة ما هو مطلوب، ومبادرة اتباع خطوات محددة.

تنبه سلطان يصغي.

- .. التجمع - لحظتها - سيكون تحت السلم.

أصبع إيمان تشير. تواصل موضحة:

- أمتن ما في بناء البيت سلّمه.

تتذكر تضيف:

- .. الابتعاد عند النوم عن النوافذ. تهشم الزجاج لا يكون جراء القصف وحده، هناك انفجارات بالغة الشدة، وطائرات حربية تخترق حاجز الصوت.

الحالة. المباغته. وجوب استنفار الذهن بقصد استدعاء معلومات ضرورية.

- أمر هام يجب لا يغيب عن البال..

الصيغة التحذيرية تتشرب صوت إيمان. تتم:

النظام العراقي - حربه القريبة مع إيران مثال أكيد - قد يستخدم أسلحته الكيماوية..

****

الاجتماع النسوي أخذ جانب وقته.

- الأزمة القائمة.. تطول أو تقصر..

الحال بمفرداتها. كانت إيمان قد أصرت تحدد مسؤوليات تصريف شؤون المنزل، تولت توزيعها بين الأربع.

- أنت أغفلت الخادمة ليتا!

أختها الكبرى حنان رددت تذكّر، فانبرت لها إيمان:

- لم أغفلها.

وأضافت:

- .. كذلك لم أغفل مضاعفات محتملة لاحقة.

تنقّل نظراتها على وجوه الثلاث.

- لا نملك حق نلزم غيرنا بالبقاء معنا... مطلوب منا نقرر نتدبر أمورنا بيننا!

الاعتراض غير وارد، وحين أنهت إيمان اجتماعها ذاك بدا عليها مشغولة الذهن بأمر آخر.

- أردت محادثتك .. دقيقة!

قالت لسلطان بطلب رقيق، ولم تنتظر عليه رده. سبقته باتجاه الباب الموصل ديوانية المنزل بالبهو.

***

بعدما لحق بها هناك بادرت إيمان أغلقت الباب.

"خلوة ثنائية!.. توقعات محتملة، وغير..!

كان يقف قبالتها.

- مفروض بنا نتصرف!

شعور المشاركة باستخدام ضمير الجماعة. صوتها ألفة محببة. أومأ برأسه مؤمنا على كلامها، فاستطردت:

- توفير احتياطي أطعمة تحسبا للطوارئ!

خطر له يعقب:

" الطوارئ الآن!".

لكنه آثر يسمعها أكثر.

- .. مستلزمات اسعافات أولية.. أدوية .. احتياجات ضرورية.

- يحاصره شعور بالحيرة.

- اليوم حرب!.

قال باحتجاج ضمني، ووضح:

- استحالة وجود أسواق!

بدا عليها انها استغربت عليه رده. شعور الحيرة يحاصره أكثر. قرر يصدقها وضعه. يرسم فمه ابتسامة باهتة.

- حقيقة الحال أني لا أملك من النقود سوى خمسة دنانير..

نظراتها إليه ما زالت تؤكد استغرابها رده، مما حدا به يزيد موضحا:

- كنت قررت أسحب مبالغ نقدية من البنك صباح اليوم، لكن..

ـ يكمل. لا حاجة به إلى أن يزيد موضحا:

- "صباح اليوم صباح احتلال!".

عيناها تبتسمان مشاركة. قالت:

- أنا لم أطلب مالا!

كد يسألها:

- "إذن؟!".

كانا يقفان متواجهين. يفاجأ بها تسكته بقبلة خاطفة في فمه. شيء ما لم يحدث منذ ن .. طعم المباغتة يمنح الفعل رد فعل متأخر. وهي تستعيد وجهها إليها يحس ثر القبلة قائما كحدوث.

"ماذا؟!".

تساؤل مهوم طوف في ذهنه. سمعها تقول مفسرة تصرفها:

- هذا .. لأجل موقفك الشهم من أهلي.

خدر لذيذ يتنمل شفتيه. لم يتسن له يستغرب:

- "موجبات الشهامة!!".

سمعها تستطرد قائلة:

- .. فيما يخص المال. سنرى كيف نتدبر..

لم تراوده فكرة يعقب بكلمة. كانت إيمان قد انصرفت، وكان سلطان يتأمل مساحة انفعاله.

***

المذياع. متابعة الأخبار.

"دعوة مجلس الأمن الدولي لاجتماع طارئ لبحث موضوع العدوان العراقي على..".

"ما دام الاجماع الدولي يفيد..".

في المقابل، فان ذاكرة الأحداث تفيد.. حيث اجتاحت اسرائيل دولا عربية عام 67 دعي مجلس الأمن الدولي لاجتماع طارئ، واجتماعات أخرى غير طارئة ترتبت عليها قرارات لا حصر..

"مدى مشابهة اليوم بالبارحة؟!".

خلاف حول صياغة قرار!.. أو اقدام عضو دائم.. حق الفيتو!.. وإن لم .. فالاجماع على الإدانة يعني إلزاما مكتوبا، بالدرجة الأولى، يجري تداوله إعلاميا.

على مدى عشرات السنوات كانت هناك مسميات لقضايا عربية وغير عربية جرى تداولها في أروقة الأمم المتحدة.. هل سيضاف إلى رصيد المسميات السياسية مسمى يخص القضية الكويتية؟!

موجبات الموقف تستدعي تدخلا خارجيا فوريا، وبعكسه.. حصيلة أمر واقع. المؤشرات العامة.. عربية أو عالمية أبعد ما تكون عن .. إزاء ذلك .. التفاؤل أو التشاؤم .. كلاهما فعل معطل.

***

حوالي منتصف النهار دخلت ابنته الكبرى سهى. بدءا أفصحت عن استغراب صامت جراء كثافة الحشد البشري داخل المنزل، قبل توجهها لأبيها بسؤالها المعتاد:

- كيف الحال؟!

ود يصارحها:

"اليوم بالذات لا يوجه مثل هذا السؤال!"

وجهد يخفي دهشته كونها - والحالة حرب - غامرت وغادرت بيت زوجها في منطقة القادسية لتصل إليه في منطقة بيان.

جاوزت العشرين من عمرها بقليل. عفوية حد السذاجة. جامحة حد التوحش، طيبة يسهل استغفالها، قوية الشخصية فاتكة إذا ما استفزت. وجه متناسق جميل يوحي ببراءة طفولية. كانت جلست إلى جانبه. ندت عنه زفرة تسليم وهو يجيب تساؤلها:

- كما ترين.

لتتوفر له فرصة يتفحصها عن قرب. طبقة من غبار شفيف تحوط شعرها. آثار سخام تتبدى على أماكن متفرقة من ثوبها. أزمع يستوضحها:

- " من أين ؟!"

لولا بادرت خبرت:

- ذهبت إلى بيت أخي عيسى صباحا..

عيسى ولده البكر. بيته أقصى منطقة الفردوس. المعنى المستنتج.. أن سهى قطعت الطريق من ..

- كيف ؟!

سؤال سلطان يسبق عليه أفكاره. سهى تتطلع فيه مستفهمة، مما يدعوه يواصل بسؤال لاحق:

- ماذا عن العسكر العراقيين؟!

لا تتردد تجيبه:

- يملأون الشوارع.

حاجباه يرتفعان استغرابا، فتضيف مؤكدة:

- الناس عامة أيضا.. كويتيون وغير كويتيين.

اتساع رقعة استغرابه لا تعني سواه. سلطان وحده - على ما يبدو - يعاني حالة إدراك متأخر.

***

القوات العراقية. الاجتياح.. الجيش الكويتي - على امكاناته المحدودة مقارنة - يتصدى. اشتباكات. معارك خاطفة غير متكافئة.

القيادة الكويتية.. يقينية ان التصدي المتواصل يعني اختيار افناء لا مجد .. بناء .. صدرت الأوامر للقطعات الكويتية تنسحب باتجاه الحدود مع السعودية. قيل عن حصيلة ضحايا الجانب الكويتي..

وقيل عن حصيلة قتلى الطرف المهاجم تفوق مرات، لكن الكثافة البشرية الهائلة ولا مبالاة القيادة العراقية..

جانب من الوحدات المهاجمة خصص لغرض الهيمنة على البلد، والجانب الأكبر واصل اندفاعه باتجاه الحدود الكويتية السعودية.

مئات من ضباط الجيش الكويتي واعداد أكبر من أفراده لم تتوفر لها فرصة الالتحاق بالوحدات المنسحبة، وربما آثر البعض البقاء .. استبدلوا أزياءهم العسكرية بأخرى مدنية.. تزودوا أسلحة خفيفة.. شكلوا مجموعات مقاومة محدودة العدد نزلوا إلى الشوارع. طفقوا يهاجمون آليات العدو.. اضرب واهرب .. أعداد كبيرة من المدنيين الكويتيين لديها سلاحها الخاص بها، أو انها حصلت على السلاح من المخافر، نزلت بدورها..

البعض ممن لا سلاح لديه. وجد وسيلته.. إشعال النار في آليات الجيش العراقي، مما يُعُطل، فيُترك على قارعة الطريق.

- هذا السخام!

أبدى سلطان ملاحظته مشيرا بأصبعه. احمرار خجل يلون خدي سهى.

أجابت بعد تردد قصير:

- امتداد طريق الدائري الرابع.. قبالة منطقة الرقعي.. رأيت ثلاثة شباب يهمون يضرمون النار بشاحنتين عسكريتين عراقيتين متروكتين على جانب الطريق .. تصمت برهة. تتطلع في وجه أبيها كمن يجس رد فعل الآخر. لم يخف سلطان ابتسامة

اعتزازه. يشيع امتنانها في وجهها.

- شاركتهم عمليتهم..

الحال بمفرداتها. سهى تتم:

- لم نغادر المكان إلا بعدما جاءت النار على ..

***

هل يسألها:

- "جانب مخاطرتها بحياتها!!".

وتذكر سألها:

- أخوها عيسى.. أخباره!!

- كان غاضبا جدا.

قالت بمعنى دال، فسرت:

- وصول زوجته عائدة من القاهرة مساء اليوم.. لكن الأحداث ..

"لعل حسن حظ البعض..".

خاطرة وردت ذهنه. سارع طردها. عادل سأل سهى بقلق الأب:

- اين عيسى الآن؟!

- لا تدري.

أجابت دون تردد. انفرج فمها ابتسامة مبهمة. واصلت:

- كان عرف تزود بندقية وخرج.

«من يملك حق يحتج على ماذا؟!».

اليوم .. المبادرة الفردية وحدها .. وحده سلطان يقبع حيث هو يترصد مبادرات سواه .. مساهمة أن تكون .. متى؟!

***

سليمان ينفصل عن وفاء، يقترب من سهى، حتى إذا ما صار عندها أدار ظهره إليها حاشرا جسده بين ركبتيها. سهى تستجيب لبادرته بحنو. تحتوى كتفيه بذراعيها.

- حبيبي.

رددت لدى احتضانها له. سليمان يغتنم فرصته.

- "عندك حلاو!".

اعتادها – في زيارات سابقة – تخصه شيئا يحبه. تطوف وجهها سحابة أسى محبط.

- اليوم .. لا..

صوتها يتضمن صيغة اعتذار حزين. لا يجادلها سليمان ردها. ينسل من عندها بالهدوء الذي قدم به. يعود يلتحق بوفاء. عينا سهى تشردان للحظات، قبل أن تستعيد حضورها. تنفض رأسها كأنها تطرد خيالا ما. تلتف ناحية أبيها، تسأله:

- عندك فلوس؟!

كما المباغتة، لكنه تمالك صراحته.

- لا.

تبتسم بوهن.

- كنت أدري.

وتضيف بما يقرب من الغياب:

- غالبية الناس هكذا.

هل يعقب عليها:

" لو كان حساب الغدر لكان حساب الحذر!".

تند عنها ضحكة هزيلة مشبعة مرارة.

- كويتيون بلا فلوس!!

الاستحالة لا تعني النفي. مدت يدها إلى جيبها.

- كان زوجي ترك لدي مائة دينار..

زوجها يعمل مضيفا.. الخطوط الجوية الكويتية. إيرادها خبرها نم عن معنى مضاف، أوحى لإيمان تسألها:

- زوجك خارج الكويت؟

- في رحلة إلى نيويورك.

أجابتها سهى، حبست زفرة كادت تفلت عنها، قبل اتمامها:

- .. منذ يومين.

***

حين دفعت أوراقها النقدية لسلطان تردد الأخير يقبلها. واجهته بإصرار:

- أنا لا أحتاجها!

لم يشأ يجادلها أكثر. كانت نهضت، فاستمهلتها إيمان متسائلة بقلق:

- إلى أين؟!

- إلى السرة.

إجابة سهى جاءت مختصرة. أدرك سلطان أن ابنته بصدد الوصول إلى أختها هدى وأخيها موسى. شعوره الامتنان.. وشعوره التأنيب.. هناك من يؤدي مسؤولياته نيابة عنه. سهى تأخذ طريقها مغادرة. صوت إيمان يلحقها ينبهها:

- خذي حذرك!

وسليمان يركض إليها يتعلق بها.

- "أروح معك!".

ستعطافه الدال يستوقفها حائرة.

- كان بودي!

ردت بحزن محاصر، واستطردت بدافع من حقد عارم:

- .. لولا أولئك الكلاب!

فضول سليمان يأخذ عليه وجهه. يتساءل باستفزاز بريء:

- كلاب؟!

حقد سهى يتدافع في صدرها لدى إجابتها موضحة:

- العراقيون.

كانت إيمان تدخلت. سارعت أخذت ولدها من يدها.

- تعال!.. أختك، هذه المرة، مشغولة.

كان سليمان استسلم مخذولا، وكانت سهى غادرت. كان جو من وجوم وكمد ثقيلين.

***

رغم معاناة خذلانه بقي سليمان يغالب فضوله المستفز، أمر ما استغلق عليه فهمه.

اقترب بعد لحظات من أبيه. واجهه بسؤال:

- لماذا .. العراقيون كلاب؟!

أحس سلطان كما لو أنه يخض من داخله. المفاجأة .. الاستغراب الرافض.. ونكي الجرح أشد إيلاما من الجرح ذاته.

- إياك تكرر ما قلت!

رددها سلطان تحذيرية عفوية، ونفى مؤكدا:

- العراقيون ليسوا كلابا.

فهم سليمان يستغلق عليه أكثر. احتجاجه يتضمن توزعا حائرا:

- أختي سهى قالت!!

توزعه الحائر ينتقل بدوره إلى سلطان. طفله يفحمه ببراءته. عيناه تستنجدان بإيمان. الأخيرة تجد تفسيرها:

- سهى كانت غاضبة، ولم تعن ما قالته.

فضول سليمان لم ينضب بعد. واجه أمه محاججا:

- ما الذي كانت تعنيه إذن؟!

(5)

المذياع. الارتباط. المتابعة.

"في تصريح أدلى به الأمين العام لجامعة الدول العربية..".

وجه آخر للتخلي.. أم وجه لاجماع البيع؟! .. يواجهك من يتحدث باسمك! سلطان، واستعادته ذاكرة الأحداث.. عندما طالب عبد الكريم قاسم بالكويت قضاء تابعا لمدينة البصرة تمخضت جامعة الدول العربية حينها عن قرار فعل، وإبعاد تصريحات اليوم..

".. الخلاف عربي، يتوجب حله عربيا، دون تدخل من أجنبي حاقد أو مستعمر طامع..".

الخلاف حول تسمية خلاف.. إذ أن اجتياحا عسكريا مدمرا وغادرا في الوقت نفسه، تعزيزه ادعاءات مدعمة بإجراءات جرى التجهيز لها مسبقا.

".. خاصة وأن مثل هذه الخلافات ما بين العرب الأشقاء يجب .. تحل.." إزماع مفاوضات.. على طاولة من؟!.. وبعد ماذا؟!.. الحقد والطمع لا يجتمعان في عربي، فتجري الإشارة إلى طرف أجنبي لا وجود له، يمثل خطرا محدقا على أي..

"خلاف أشقاء طارئ..".

تؤكده إذاعة بغداد:

"أيها الكويتيون الشرفاء.. بوركت لكم ثورتكم العظيمة، وسحقا لقارون وزمرته السادرة في الغي والفساد..".

الشرف صفة منسوبة، والزمرة السادرة هي الشعب الكويتي كله، والتبريك مزفزف لأوليك المنزهين على ايما حقد أو طمع.

كان في باله يعتب على سهى زلة لسانها. صار في باله يعتب.. من؟!

***

الحدث والمراوحة ضمن حالة رفض غير مدرك. استحالة امكانية تقبل الوضع كحقيقة واقعة يلزمك ظروفك تتأقلم معها.

شيء أشبه بحالة توزع مقرونة انتظارا قدريا لحدوث تغير مفاجئ يعيد الأمور إلى

ما كانت عليه قبلها.

البيت، اللمة وهاجس الكابوس في الخلفية من وعي الجميع، حين تردد صوت جرس الباب.

- من؟!

سؤال جزع صدر عن إيمان. العيون تلتقي بعضها متوجسة طارئا ما.

"حساب الأسوأ!!"

المكالمة التي كانت وردت عن رحال، ولا أحد يجزم يحكم مضاعفات ما يستجد.

- "علي أرى!!"

رددها سلطان بتسليم ونهض لحظة دخلت ليتا مخبرة:

- سيدي .. محمد صالح يطلبك!

خبرها موجه إلى سلطان

- ما الذي جاء به الآن؟!

استغرابه لم يخف ارتياحه.

- أنا قادم.

أجاب ليتا لحظة تدخلت إيمان:

- دعيه يدخل!

- خاطبت ليتا، وأشارت لسلطان:

- اجلس!

انصياع سلطان لم يخف ارتياحه أكثر.

***

محمد صالح .. شريك لسلطان في أمور تجارته. في أربعينياته. عراقي متحدر عن أصول كردية إيرانية. شرده وطنه. جراء تعاطيه سياسة معارضة النظام، منذ عام 1968، ليوثر يستقر في الكويت بصفتها البلد الأقرب، انتظارا لحدوث تحولات نحو الأفضل، ليحدث خلاف النظام العراقي مع حكم الشاه في إيران أيامها، مما نتج عنه ترحيل حكومة بغداد كافة العراقيين المتحدرين عن أصول إيرانية، أو المشكوك..

لهم أصول .. لعند الحدود مع إيران، استنادا لمقولة "خونة محتملين" أو "جواسيس غير منكشفين،" عدا عن ذلك. إمعانا بالشماتة من إيران قام نظام بغداد بمصادرة جميع الأموال المنقولة وغير المنقولة لأولئك المعنيين، وكذا وثائقهم الثبوتية، محققا لإيران مشكلة إيوائهم والتصرف بشأنهم.

عددهم - إحصاء الأمم المتحدة - يقارب مائتي ألف عراقي، حشروا - والأرض جيرية جرداء - ضمن مخيمات مؤقتة على خط الحدود العراقية الإيرانية.

المخيمات الفلسطينية في واجهة الأحداث، ويكون نصيب محمد صالح من ذلك التهجير ثلاثة أخوة وأربع أخوات بعوائلهم، وما يلحق..

- الضمير العربي ميت. أعرف هذا ..

ردد محمد صالح وقتها، واصل بحقد مقهور:

- .. أتساءل عن الضمير العالمي!!

سلطان - ملابسات الظرف - ما كان بمشاركة وجدانية ترقى إلى ..

منازعات، خلافات، حروب إقليمية، أمور لا حصر .. تحكمها توازنات ومصالح دولية. حلف الناتو .. حلف السنتو، وعلى الهامش من هذا وذاك يرتبط العراق بمعاهدة إستراتيجية مع الاتحاد السوفيتي، مما يمنحه نكهة يسارية تجدر تزكيتها قبل البحث في أمر إدانة..

- «.. الضمير العربي .. أدري..».

***

حين تجاوز محمد صالح الباب إلى البهو..

- "سلاما .."

مظهره - على غير عادته - غير معتني به، دشداشة نوم، رأس حاسر، وما عرف يداري استغرابه جراء كثافة الحشد داخل المنزل.

- أسف !.. لم أكن أعرف

إيمان تقطع عليه اعتذاره:

- "حياك!".

رددت مرحبة، لتضيف مفسحة مكانا بينها وبين سلطان:

- اجلس هنا.

بصرف النظر عن الأسباب التي دفعت محمد صالح كي يقوم بزيارته في مثل هذا الظرف .. وبصرفه عن كونه عراقيا.. فان شعورا بالعرفان سرى في أعطاف سلطان، يمازجه نوع من اعتزاز بالنفس، كأن يهتم آخرون يفدون إليه مقارنة مع حجم مخاطرة من يخرج إلى الشارع..

- أن أكون عراقيا..

همس له محمد صالح في أذنه، وأكمل بحزن يخالطه ندم:

- .. وان تستباح الكويت من نظام يدعي أنه عراقي!!

الاعتذار صيغ متنوعة. فكر سلطان يهون على ضيفه: قال:

- "غمة وتزول!".

يتطلع إليه الآخر مشككا.

- تظن؟!

سلطان يجد إجابته:

- لا دوام لغلط.

خيل إليه أن مضيفه كاد يقدم يعيد سؤاله:

- "تظن؟!".

لو لا ما صدر عن المذياع:

"مجلس قيادة الثورة العراقي يجتمع.. يصدر بيانا شديد اللهجة يحذر فيه القوى الأجنبية كافة مغبة التدخل .. من قريب أو بعيد في الأحداث الجارية..

الجارة الشقيقة.. الجمهورية الكويتية الفتية .. وأن القوات المتجحفلة للجيش العراقي العظيم .. ستضرب بيد من حديد..".

تنبه سلطان سمع محمد صالح يغمغم مع نفسه:

- "ديرة بطيخ".

***

ـ كان له يطيل بقاءه.

- جئت لمجرد الاطمئنان.

قالها محمد صالح هادفا يبرر، تململ بعدها في جلسته، ثم نهض. أدرك سلطان أن غرض الزيارة ليس الاطمئنان وحده، نهض مرافقا ضيفه.

- على العموم..

ردها محمد صالح مفتوحة، كانا اجتازا باب المنزل حيث الحديقة. سماء أغسطس كمدة. الأشجار بأغصان ساكنة. شيء ما مختلف.. أصوات تخاطف السيارات مسرعة في الدائري الخامس ما عادت تسمع.

- .. أردت أن ..

جملته الثانية ناقصة مفتوحة كسابقتها. تطلع فيه سلطان يستحثه، فواصل بصيغة تتضمن رجاء:

- أتمنى تتفهم!

فرج فم سلطان ابتسامة عاتبة، لحظتها امتدت يد محمد صالح إلى جيبه.

- "أعرفك خالي الجيب..".

منحى دعابته لا يوفق يداري خجله.

- "محبة أن يحضرك التذكر في وقته..!

قبله كان موقف سلطان مع ابنته سهى، وما عنّ له يعترض. كان محمد صالح دس مظروفا يحوي أوراقا نقدية وانفلت مسرعا مبتعدا.

- وسط حالة التشتت العاجز وفوضى المشاعر إزاء ما هو مدرك حد الإبهام تأتيك محبة حضور ندي .. المحبة ان ..

***

حين عادت سهى بعد ساعة عادت مكفهرة الوجه، مما ولد قلقا حادا لدى الجميع، سلطان على وجه الخصوص. ابنته هدى .. ابنه موسى ربما تعرضا.. كلاهما أو حدهما.. انتظر عليها تجلس، بادرها سؤالا جزعا:

- ماذا هناك؟!

أدركت قصده. أجابت دون حماس:

- هدى وموسى بخير.

توفرت لسلطان فرصة ينفرج من داخله ارتياحا. وبدورها واصلت باللهجة ذاتها:

- .. أمهم تعاني حالة يأس .. زوجها كان سافر الأردن منذ أسبوع..

تدخلت إيمان مهونة بما يشابه العتب:

- ليست مصيبة!

اكتفت سهى عقبت زفرة حقد موجهة إلى مجهول. مما حدا بسلطان يعيد سؤاله:

- ماذا هناك؟!

حافزه حنان أبوي يخالطه فضول.

- العراقيون..

حقد سهى يترجم الكلمة كما سخط عارم. ود يستمهلها تجانب تعميمها غير المقصود، في وقت واصلت فيه بصوت يوشك يجهش:

- .. قتلوا ثلاثة شباب كويتيين رميا بالرصاص تحت جسر محول بيان.

رد فعل إيمان صرخة ملتاعة. شعورك الاعتداء الواقع عليك. سهى أهداب تماسكها .. أكملت:

- .. أدركوهم يهمون يحرقون شاحنة عسكرية معطله.

الذهن ضمن إطار الصورة المتخيلة. بلادة اللغة أن تكون .. طوفان الحقد أعمي، وتأكيد شعور الاعتداء واقع.. أين أنت؟!

الأحداث بأسبابها. اللحظة بأسبابها. إحساس جبار يعجز محاصر، وخيال قاصر يلهث وراء .. استحالة حدوث ما هو حادث.

***

اليوم احتلال، واليوم - بما يتواتر فيه - ليس كغيره من أيام مضت.

- "أنا أحرق الشاحنة!"

جملة لم تصرح بها سهى، في حين أنها..

- أريد خرقة قماش!

كانت عرفت استعادت جانب تماسكها. رفعت صوتها، طلبت ليتا.

- .. كيروسين!

واصلت أوضحت، وأكدت:

- .. علبة ثقاب!

ليتا بادرت لبت.

"ماذا لو..!"

سؤال غير مكتمل عبر ذهن سلطان، ولم يصرح به.

- لن أغيب طويلا!

سرعت سهى قالت، ثم سارعت غادرت، وقبلها ابنه عيسى عرف تزود بندقية، وسارع غادر منزله إلى أين..

غزو يتسم فعل استباحة عامة، ورد فعل الكويتيين يتجسد رفضا عارما من خلال صيغ مقاومة عامة ممكنة.

"أن تكون أنت..".

ومعادلة باهتة لا أوان لها:

"مخاطرة والجدوى".

حراق شاحنة عسكرية معطلة على جانب الطريق لا يعطل فعل الغزو. الشباب ثلاثة الذين قتلوا .. جسر محول بيان.

"حتمال سهى..".

يتكك قلقك أم لا .. طردك هاجسك من مقدمة ذهنك أو الإبقاء عليه.. أمر يجب تحزم به: المواطنة حق شخصي بالمرتبة الأساس.

***

زمه المتباطئ لمرور الوقت، وهذا الشعور الطارئ بعطالة غير مسبوقة. هل هو حساس بالتقصير ما وراء حضور الوعي؟!.. البلد..الحالة.. وجوبية أن تكون .. يكفيك أن عيسى وسهى يؤديان دورك احالة.

- "تسمح!".

تنبه سلطان إلى عبد الله يستمحيه مشيرا إلى جهاز التلفزيون.

- هناك بث!!

تساؤل مستغرب صدر عن سلطان. اليوم احتلال.. واليوم فوضى ذات منحى لا يتكرر.

"ما الذي يمنع؟!".

كان وافق عبد الله بإيماءة من رأسه. وكان عبد الله بادر التلفزيون.

"أيها الكويتيون النشامي..".

قناة البث كويتية. المذيع بزي كويتي يبعث على ماذا؟!.. العقال المائل.. البدو من بر الجزيرة.. العقال ووضع الغترة..

"..هذا أوان احتفالنا بالتخلص وإلى الأبد من الطغمة الفاسقة المبادة التي عاثت في بلدنا الحبيب..".

من أين؟!.. فإذا أخذت الحال بما حدث وجاري الحدوث فان إطلالة المعني من شاشة التلفزيون لا تبعث على السخرية، لكنه اشمئزاز عات، يصحبه حقد جبار محاصر في دائرة العجز.

- "ثورتنا التحررية الظافرة.. نصرنا المؤزر..".

عينا سلطان تعلقان في الشاشة. وجه المذيع- رغم كونه أول مرة – ليس غريبا عليه.

".. انبعاث فجر الأمة.. والتقاء الإرادة الحرة ما بين..".

يكاد يجزم أنه سبق رآه في مكان ما.

".. نقرأ عليكم نص برقية تأييد احرار القادسية لاحرار كويت المجد.."

ذهن سلطان يركض وراء مؤشرات التذكر..

".. كنتم رمزا للعزة والفداء، وليكن تحرير الكويت من براثن الطغمة السادرة في عمالتها ورجعيتها منارة رحلة تحرير القدس الشريف".

أصداء كلمة "رحلة" تتردد في الذاكرة .. التذكر.

"رحال!!"

حضور الاسم، تعقبه ملامح الوجه، لتتوالى وقائع الاستعادة.

***

سنوات عدة ماضية. الوقت ليل. كان سلطان مارا يلتقي صديقا. مجمع النقرة الشمالي، لدى مغادرته التقطه صوت رحال مبديا ترحيبا مستغربا:

- ما الذي جاء بك هنا؟!

كان رحال مصحوبا بزوجته أمينة.

- بالأحضان يا رجل!

أسلوبه الاستعراضي. ابتسامته الواسعة تخفي ودا حاقدا، ذراعاه على سعتهما، ومواصلة صوته:

- للأصدقاء حق..

عتبه لا يداري شماتته:

- .. أم أن التجارة صنعت منك برجوازيا آخر!

مزيد للإهانة تبدو غير مقصودة، لولا دفء الترحيب في عيني زوجته أمينة وابتسامتها البريئة.

- .. منذ كم لم نرك؟!

مبالغته أموره وأمور غيره.

- .. تعال أعرفك على صديق عزيز جدا.. من المعارضة العراقية.. تقدمي حتى النخاع!

عترض سلطان:

- في الحقيقة .. أنا ..

لكنه رحال، ولا فرصة للتفكير بالاعتراض. كان أخذه من ذراعه وسحبه معه خطوات.

- هنا!

مدخله مخزنا لبيع وإصلاح الآلات الموسيقية.

- صديقي المناضل الكبير..

صوته باحتفاليته. يده تشير إلى رجل جالس وراء مكتب صغير، واستطرد:

- .. الأستاذ عمر فاضل.

الاسم، اللقب، النسبة، وابتسامة باهته لا ينقصها لؤمها.

- "تشرفنا!".

"عمر فاضل" اسم مشبوه، يجري تداوله.. أوساط المقيمين من المعارضين العراقيين، من جراء كونه أحد عيون سفارة نظام بغداد في الكويت.

- "أهلا وسهلا!".

كان على سلطان وقتها يسارع ينسحب من دكان الموسيقى تاركا نظرة فضول في عيني عمر فاضل.

- "عسى نلتقي!".

الأخير - ذاته - يطل على سلطان من شاشة تلفزيونه.

- .. يا أبناء يعرب وقحطان..".

الأمنية حد الإيلام أن لا تحل لحظة .. يواجهه رحال، يطل عليه من شاشته ذاتها.

(6)

أمسك الحاج محمد زفرة كادت تفلت عنه.

- أخرج إلى الحديقة!

قالها كمن يفيد:

- "أتنفس هواء آخر!".

ونهض. عمر فاضل يواصل - في شاشة التلفزيون - حث الكويتيين على الاحتفال بالثورة الشماء، ويهيب بهم في الوقت نفسه التزام جانب الحيطة والحذر من حفنة علماء خونة مندسين، يهدفون بأعمالهم التخريبية اليائسة إلى تعكير صفو الأمن والاستقرار، إنما..

".. وليكن في بال هؤلاء المرتزقة الموتورين أن يد الثورة طويلة، وأنها ستطالهم حيث..".

عبد الله يتطوع يقترب من التلفزيون، ومن غير أن تراوده فكرة يستأذن.. الشاشة تغرق في الصمت.

"أخرج إلى الحديقة أيضا!".

همسها سلطان لنفسه. الجو الكئيب داخل المنزل رغم كون النهار أعلاه، واحتياجه الملح يلتم على بعضه.

***

ساعات معدودة منذ الاحتلال وزخم الأحداث يسابق منطقها. كيف.. فيما لو دامت الحال أسبوعا .. شهرا؟!

المسؤولية ليست رباطة جأش.. ليست استعدادا لمواجهة الأسوأ.. إنما أن تكون بدور ما، يمنحك تحققك من عندك، وليس إحالة على ما يؤديه غيرك نيابة عنك.

الحديقة ما وراء سور المنزل. الأشجار حالة سكون، لا نأمة، وهيمنة من صمت معبأ يكاد يشمل الكويت.

"أهو الانقطاع على داخل؟!".

الحاج محمد يقف ثابتا دون حراك، عيناه شاخصتان جهة الغرب، حيث موقع قصر المؤتمرات وجسر محول بيان.

"قلق أو توقع؟!".

سلطان واصطراعه أفكاره. معاناته جزعه أبوته، ومعضلته يرى نفسه جزيرة منعزلة..

"الأخوة، المعارف وضرورة الاتصال أو التواصل!!".

وقع المفاجأة وحالة الذهول العامة يجب تنتهي عند حد. معرفتك موقع القدم.. الموقف .. البيّنة .. الاستعداد .. التصرف..

"هذا وذاك .. كيف؟!".

- الله أكبر !!

صيحة فرح مفاجئ تصدر عن الحاج محمد. يده تشير غربا.

- إنها سهى!

أضاف بصيغة اكتشاف. سلطان بدوره يتطلع هناك. سحابة من دخان أسود كثيف بدأت ترتفع تدريجيا وسط الهواء الراكد، ما وراء..

ينتابه هامش من اطمئنان وقتي، وما عداه.. الظرف لا يمنح فرحا مجانيا.

"استباق الأمور .. يجب لا ..".

الفرح توأم الفعل، وما عداه .. يظل فعلا مؤجلا.

***

وصول سهى. حالة انفراج شملت الجميع. شعرها ووجهها بهالة من غبار أكثر كثافة. نمط تصرفها يوحي:

- "إنجاز العمل!".

عيناها تلتمعان بتحديقة حادة. دارت بنظراتها على الوجوه المتطلعة إليها قبل توقفها عند وجه أبيها.

- أنا جائعة!

صرحت بمنحى طلب طفولي. ندت عن سلطان ضحكة قصيرة تؤكد شعوره اعتزازه. لتأتي استجابة إيمان:

- الطعام متوفر.

أجابت طلب سهى، واستطردت منبهة باشتراط أمومي دال:

- أغسلي وجهك عن الغبار.. أولا!

***

احساس سلطان ضرورة مبادرته يتحرك يكبس عليه داخله بقوة أكبر. لا يعرف عن ابنة عيسى حتى الآن ماذا؟!.. لكن اقدام ابنته سهى.. جسر محول بيان.. وضعه في موقف التحدي.

"المواطنة ليست فعلا بالاحالة!".

إيما عمل لا يمكن أن يتم بمعزل عن آخرين. الاتصال أمر حتمي. إنما الحيرة.. يبدأ يتصل .. بمن؟!

على أيام اهتماماته السياسية كانت لسلطان علاقات حميمة، سرعان ما بهتت ليطويها النسيان أثر اعتزاله اهتماماته إياها. وانغماره تجارته.

عينات رموز معارضة كويتية، عينات أخرى معارضة عراقية، شخصيات محددة من فصائل منظمة تحرير فلسطينية.

الآن.. واقع ظرف استثنائي.. المساحة محددة ضيقة، تبدو غير مؤهلة تتمخض عن اتصال يرقى إلى مستوى الفعل.

تبقى الدائرة الأضيق محدودية .. ارتباطاته العائلية. سلطان بإخوة أشقاء خمسة، ترتيبه الأكبر سنّا بينهم. لماذا - حتى لحظته تلك - لم يبادر أي منهم يتصل به؟!

كانت الساعة جاوزت الثانية ظهرا. الإذاعات - عربية وعالمية توالي أخبارها. مواقف معظم أشقاء العروبة أخذت تتضح. التخلي حقيقة مرة.. لكنما شتان أشقاء الدم.

الخطوط الهاتفية ما زالت قيد الخدمة. لهفة سلطان تغلب عتبه. هو هنا .. إخوته في أماكنهم المتفرقة، ولا أحد يجزم ما تمخضت عنه أحداث اليوم.

التلفون على مقربة يبدأ برقم منزل أخيه عبد المحسن بصفته يليه سنا، جرس تلفون الجانب البعيد للخط يرن، ليتواصل .. لا أحد. لهفته تتنازع جزعه.

"كيف .. خلو البيت من ساكنيه كافة!!"

أعمال الفكر. ملابسات الظرف. ليس بمقدورك تجزم شيئا. المحاولة أمر لابد.. ذهنه يستجمع أرقام تلفون منزل أخيه عبد العزيز.. جرس تلفون الجانب البعيد للخط يبدأ يرن، ليتواصل. لا أحد.

"خلو البيت من ساكنيه أيضا.. كيف؟!".

اصطراعه أفكاره. وهذا الخوف آخذ يكبر. تذكر ما سبق أن سمعه:

- "رتل لا نهاية له من السيارات الكويتية المحملة بالبشر أغلبهم نساء وأطفال.. في اتجاه الحدود مع السعودية..".

امكانية حدوث تدفعها استحالة.

"لو .. لما ترددوا واتصلوا به!".

شعور الانقطاع، يؤكده آخر بالتخلي، يقترن جزعا إزاء احتمالات غامضة شتى.

"من يجرؤ يجزم؟!".

تنبه إلى إيمان تقف مواجهته صامته. انفعاله ينعكس في عينيها. لعلها قضت وقتا تراقبه.

- لا أحد؟!

غمغمت تتساءل مشاركة.

- لا أحد.

أجابها مختصرا، ونهض مواصلا مقررا باقتضاب:

- عليّ أن أتأكد!

***

أمله الأخير: إخوته يجتمعون في البيت الكبير في منطقة الروضة. أن يهاتف هناك.. لا. الاحباط مرة أولى وثانية.

كان قراره الذهاب. ان كانوا هناك.. هناك، وان لم .. المنزل الكبير لا يعدم من يسكنه.

- خروجك إلى الشارع..

رددت إيمان باحتجاج ضعيف، استطردت توضح:

- .. في هذا الظرف!!

نعمة صوتها تتضمن رجاءها. الأهمية أن تكون. رسم على فمه ابتسامة هزيلة أجابها بتساؤل مفحم:

- ما أدراك أن الظرف سيؤول أسوأ؟!

لم تجد ما ترده به. أخذ طريقه باتجاه الباب. لاحقه صوت شيرين يتضمن تنبيها رقيقا:

- خذ حذرك!

اكتفى بإيماءة مستجيبة من رأسه.

***

شعوره وهو يدير محرك سيارته يختلف عنه في أيام سابقة. أيامه تلك كانت بمسارات معروفة وتوقعات منعدمة.

- "خذ حذرك"

شيرين نبهت، ومن جانبه عليه أن يتوقع الأسوأ.

"اليوم احتلال..!

قد يبلغ الأمر مصادرة السيارات، أو ركابها .. لا فرق.

"حين يكون عدوك عربيا. الأمر يختلف!"

المعلوم والمجهول أمران يتناقضان بقدر ما يرتبطان. وفي لحظة ما .. سيان. القلق يتأتى عن الخوف من فقدان شيء عزيز، أما والحالة فقدان عام، فليس هناك ما يستحق يخاف منه.

***

المنطقة والاقفار شبه التام للشوارع. في الأيام الاعتيادية ما كانت الحال.. الصمت والسكون. الاستنتاج الوارد: الناس.. أبواب البيوت، ملازمتك مذياعك، لهاثك تسمع أخبار ما تتعرض له.

السيارة باستدارة الطريق. مسجد فاطمة الوقيان على اليمين. الدوار الصغير بنخلات أربع غرسن حديثا. العراق أول بلد في العالم من حيث تعداد النخيل، وعدد المشردين لأسباب سياسية. في طهران ومدن إيرانية أخرى أحياء خاصة بهم، في دمشق أيضا.

- «في مونتريال- كندا..».

قال أحدهم لسلطان ذات مرة، أكمل:

- ".. شارع مقصور على العراقيين".

مسؤولية الحاكم أو المحكوم؟!.. معارضتك نظام حكمك تعني حكما صريحا باعدام أحدكما.

الدائري الخامس هناك. قصر المؤتمرات على اليسار. الهدوء ما يزال .. هل تراهم تنبهوا للقصر فاجتاحوه؟!.. أم أنه باق في الغفلة؟!

إحساس أولي بالرهبة. خفقة في الصدر.. رصد المغامرة. امتداد الشارع يتمخض عن ناقلة جنود آخذة طريقها تقترب.

«أوان الأحياء السكنية الكويتية!»

الدوي المميز لمحرك السيارة. هذا الطراز من الشاحنات العسكرية السوفييتية يعرفه سلطان. سبق له رآه في شوارع بغداد حين توفرت له فرصة السفر إلى هناك. الدوي يعلو أكثر .. سطح الشاحنة غابة خوذات خضر.

«شريعة غاب .. وغياب نصرة الإخوة!».

دار في باله أن كانوا سيستوقفونه.

- "إلى أين؟!".

وما وجد في ذهنه إجابة جاهزة. الدوى .. الرهبة.. هاجس المغامرة، ويقينك أنك مستفرد بك.

"خذ حذرك!".

لكن الشاحنة بجنودها المدججين تجاوزته كما لو أنه لم .. ومن خلال مرآة السائق لمح أحد جنود الشاحنة يشير بعلامة النصر.

لم تراوده فكرة: الجندي العراقي يستفزه، انما هو شعور باستغراب رافض.

«انتصار ماذا؟!».

الحرب ليست جولة غادرة لا غير. وها هي خبرة نظام بغداد مع إيران. الجولة الأولى اجتياح مشابه، تعزز بثمانية أعوام حرب. ليختم بانتصار مهول، تؤكده مجزرة كيماوية عراقية لآلاف الأكراد العراقيين في مدينة عراقية - حلبجة.

اجتياحهم الحالي.. أين سيصار إلى تأكيد نصرهم المهول .. إقدامهم مجزرة مشابهة في بغداد أم بصرة؟!

***

مع انحدار الطريق الموصلة بالدائري الخامس التقطت عينا سلطان أربع دبابات عراقية تقف على المرتفع الترابي للجانب المقابل، ناحية منطقة الجابرية. فوهات مدافع الدبابات مشرعة نحو قصر المؤتمرات.

- «قصف تمهيدي، ومن ثم اقتحام!».

ما يعرفه سلطان عن قصر المؤتمرات .. انه بحراسة عادية وعدد من خدم وصغار موظفين.

***

وصوله منطقة الروضة يقتضيه يختار واحدا من مسارين: يصعد الجسر. ليعود يأخذ الجانب الثاني من الدائري الخامس، مرورا في ظل الدبابات، حتى طريق الرياض السريع، فالدائري الرابع، ومنه إلى الروضة. أو يصعد الجسر، ليأخذ شارع الاستقلال. عندما التف بسيارته صعودا إلى الجسر تفاجأ بيافطة قميئة أعدت - كيفما اتفق - من قصاصة ورق كارتون قذر، كتب عليها بالطباشير:

انتبه!.. نقطة سيطرة».

مسؤول يسيطر على ردة فعله.

محاولتهم احكام قبضتهم!».

ربعة جنود عراقيين ببنادق رشاشة، وجندي خامس يتسلح بازوكا، يقطعون طريق على السيارات، يدققون.

أول الغزو .. «.

سيارتان تتقدمان سيارته. سيارة ثالثة أوقفت جانبا، في حين احتجز سائقها لدى أحد الجنود.

ستناد لوائح قانون.. ماذا؟!».

توقع نوع من الاستعداد للأسوأ. حدق سلطان في وجه الرجل المحتجز، عله يعرفه. ملامح تتداخل بعضها. دماء غائرة. نظرات زائغة، ولم يتسن له يعرف.

- تعال!

أحد الجنود يشير إليه أن اقترب بسيارتك. صوت صيغة أمر ضجر. السيارتان اللتان كانتا تسبقانه تحركتا مبتعدتين.

"مالذي هم بصدده؟!".

أثر الرهبة يتوارى مع المواجهة الآنية:

- "الله يساعدك!!"

بادره الجندي تحية غير متوقعة باللهجة العراقية.

"آداب احتلال!!"

وجهه بتقاطيع بدوية حادة.

"ليس كبير فرق!".

خدان غائران. بشرة محروقة. وجد سلطان نفسه يجيب تحية الجندي غمغمة حائرة تتحسب لما سيأتي:

- أهلا!

فما كان من الجندي..

- "الأخ عراقي؟!"

سؤال غير متوقع. دهشة سلطان تتخلل ردا سريعا نافيا أقرب لأن يكون دفاعيا عفويا:

- كويتي.

وما تحسب لما سيبدر، تنبه يسمع:

- أكمل طريقك!

قالها الجندي، ويده - بامتداد ذراعه - تشير على الطريق المفتوحة.

***

لكي تفهم عليك أن تستوعب، وبهدف أن تستوعب لا بد أن تعايش، ومن أجل أن تعايش..

سيارته تنهب شارع الاستقلال صعودا باتجاه الدائري الرابع.. من أين يجيء الغيث المترتب على استيعاب؟!

الطريق بعدد قليل من سيارات مسرعة. مستشفى هادي جهة اليسار، غير بعيد عن بوابة المستشفى ما زال الدخان يتصاعد عن حاملة دبابات محترقة، وعلى يمينه

- ماو وراء الشبك المعدني الفاصل للطريق - سيارة باص عسكرية مما يخصص لنقل الرتّب، منقلبه على ظهرها، محروقة حديثا عن آخرها. بقايا ألسنة نيران، واحتراق ما جاء عن عطل، في الجانب الأمامي للسيارة، حيث مقعد السائق، فوهة منفلشة إلى الداخل ناتجة عن استهداف قذيفة مضادة للدروع.

خيل لسلطان أنه يشم رائحة شواء. عاد بذهنه إلى ما قالته ابنته سهى بصدد العسكر الكويتيين:

- "... تخلصوا من أزيائهم العسكرية.. نزلوا إلى الشوارع".

عند منتصف جسر "السالمية - حولي" ناقلة جنود مدمرة. تجاوز الجسر، منطقة حولي على يمينه. شوارع حولي الداخلية ليست خالية من المارة.

تذكر مذياع سيارته. يده إليه. صوت المذيع العراقي من إذاعة الكويت بعدما صارت بغداد:

- صرح الناطق الرسمي لمنظمة ..».

جنود عراقيون يحضرون لإقامة نقطة سيطرة على الجسر الذي يقطع شارع تونس.

- "الأخ عراقي؟!».

جبته جاهزة:

- كويتي. الجندي المعني يفسح له طريق المرور.

- "ما السر ؟!".

منطقة النقرة بتواجد بشري باد. لمح عددا من الدكاكين فاتحة أبوابها.

- ما السر؟!».

تذكر المذياع. عاد يرهف أذنيه.

في برقية جوابية من السيد رئيس .. إلى السيد الرئيس القائد..».

هناك خلل تراجيدي .. حتما.

(7)

يدخل منطقة الروضة. يتفاجأ بنمط حياة نشطة.، عكس الحال في منطقة بيان. جملة شباب تحت سن العشرين ينهمكون يفكون اليافطات المعدنية والإشارات الدالة على أسماء الشوارع وأرقام القطع والمنازل.

المخبز الذي كان يدار من قبل عمال إيرانيين تتولى مجموعة أخرى من الشباب تشغيله، بهدف تزويد الناس بالخبز.

سيارات «وانيت» تتحرك محملة بالمواد الغذائية الأساسية، يجري توزيعها بقصد التخزين في بيوت محددة.

الذهول العام المترتب على الاجتياح جرى استيعابه هنا بأسرع من مناطق أخرى، فكان الاستعداد بالامكانيات المتوافرة لمواجهة ما هو مجهول.

شعور بالانتعاش يسري في أعطاف سلطان، ليتحول إلى ارتياح يشمله من داخله لدى اقترابه من بيت الروضة. سيارات إخوته - يعرفها كلها - تتواجد في الجوار، تُضاف .. سيارة ابنه عيسى.

***

المنزل بحديقة يحوطها سور حجري عال، بباب حديدي صلد يخفي ما خلفه. لدى اقتراب سلطان من الباب فتح الأخير أمامه بفرجة تكفي لمروره.

- ادخل!

صوت أخيه أسعد يستعجله. إحساس طارئ بالكمين. انفلت داخلا، ليغلق الباب بعده.

"ضرورات الحذر!".

أخوه أسعد يأخذه بالأحضان.

- جئت من بيان رأسا؟!

أسعد يتساءل بقلق لاهف، يجيبه سلطان:

- رأسا.

فضول الآخر يحفزه.

- هل هناك جديد؟!

ذهن سلطان يتشتت إزاء السؤال. الأخبار - كما يفهمها - جديدة كلها. وعلى الآخر أن يحدد.

- هل بادروا..

الاحالة على المحتلين، ومواصلة أسعد يفصح عن تساؤله:

- .. استولوا على مخفر بيان؟

تذكر سلطان الطراز الروسي لحاملة الجنود.. تذكر إشارة النصر. أجاب:

- على ما أظن.

***

أسعد في الثالثة والثلاثين. ضابط إطفاء برتبة نقيب. دشداشة نوم يشدها من الوسط حزام عريض بمسدس.

- ما هذا ؟!

صرخ سلطان مبديا دهشة يشوبها فضول، لتأتي إجابة أسعد مسبوقة ضحكة قصيرة خافتة:

- لزوم العمل .. نوبة حراسة.

معنى هذا .. هناك اجراءات طارئة. سلطان يؤجل رغبته يعرف تفاصيل أكثر.

- الآخرون في الداخل؟

سؤاله بقصد التأكد، والتضمين يشمل بقية اخوته، أسعد يختصر إجابته:

- عدا هلال.

ليسبق سلطان سؤالا محتملا، يواصل موضحا:

- .. غادر قبل دقائق.

حز في نفس سلطان يسأل:

- "كيف عرفتم اجتمعتم من دوني؟!".

وحز في نفسه لا يسأل:

- متى كان اجتماعكم؟

لم يتنبه أسعد لهامش العتب المرير في صوت أخيه، أجاب ببراءة:

- منذ الصباح.

لم يمسك سلطان سؤاله:

- لماذا لم يتصل أحدكم بي؟!

حيرة أسعد وشعوره المحاصرة إزاء صيغة الاتهام المضمنة. لم يجد ما يجيب به. كان سلطان واصل طريقه تجاه مدخل مبنى المنزل.

***

دخوله البهو. ثلاثة من اخوته، يضاف اليهم ابنه عيسى، رآه ينشغل يفك مسدسا، يزيته.

«لا مكان للاستغراب».

عيونهم تنشد إليه.

- «سلام»

بادرهم تحيته. البهو مفروش بسجادة فارسية تزدحم زخرفات ملونة، ومساند سدو رصت إلى الجدران.

"لا مكان للاستغراب".

فناجين قهوة مبعثرة على الأرض، وسط كدس مسدسات، بنادق صيد، خراطيش متنوعة.

- "أهلا".

يهبون واقفين. انطباع باللاتوقع يتبدى في عيونهم.

"أين يكمن الخلل؟!".

سؤال سلطان بقي حبيسه. طعم مرارة حائرة وعاتبة في الوقت نفسه.

"حياك".

أخوه مصطفى - ست وثلاثون سنة، أستاذ هندسة ميكانيكية - جامعة الكويت، يبدو أسرع الجميع باحتواء الموقف، يخطو إليه، يأخذه بأحضانه.

- "السلامة".

الاحتضان لا يلغي طعم المرارة.

- أخبار بيان؟

أخواه الآخران بالأحضان أيضا. الاحتضان لا..

- متى كانت اللمة؟!

ما كان سلطان قادرا يحبس عتبه أكثر، لحظة اقترب ابنه منه. عينا الأخير شعتا اعتزازا فرحا.

***

أخوه عبد المحسن. يصغره بضعة أعوام. منصب هام. وزارة العدل.. أفاد أن فكرة لقائهم ببعضهم بدأت منه، وما بعد ذلك جاء استجابة للظرف الماثل.

- يهمه يعرف سبب إغفالهم له!

- هم - في حقيقتهم - لم يغفلوه.

أجابه أخوه مصطفى، وأكمل أثر تردد قصير:

- .. لكنهم آثروا تحاشي إحراجه.

- احراجه؟!

ندت عن سلطان دالة على اندهاش لا حد له.

- .. كيف ؟!

مصطفى يواصل توضيحه بعد تردد آخر لا يخلو من هامش خجل:

- السبب .. سلطان محسوب على المعارضة الكويتية.

الإجابة لا تقلل من الدهشة.

- علاقة هذا بذاك؟!

مصطفى كمن حوصر في زاوية:

- مواقف سلطان من الحكومة الكويتية بشكل عام.

سلطان لا يجد شكل ارتباط واضح، مما يدعو مصطفى يستطرد:

- موقفه من انتخابات المجلس الوطني بشكل خاص.

"هو أوان الفصل؟!.. أم قصور الفهم؟!"

- ليس دفعا لتهمة.

- سلطان رده.

- ولا دفاعا عن موقف.

فقط يرسم ابتسامة واهنة. يكمل مجاراة:

- يدرون عن سلطان انه اعتزل نشاطه السياسي منذ سنوات!

تسل عن أخيه عبد المحسن ضحكة قصيرة ذات دلالة. يعقب:

- لكنه لم يعتزل فكره.

"هو أوان الفصل..»

- كان قرارنا قبل اجتماعنا هنا..

"حمد مصطفى يتدخل. يواصل:

- .. نحمل سلاحنا نقاتل.

كان في بال سلطان يتساءل:

- "وجه الاعتراض؟!"

ولا ايضاح مصطفى:

- .. خشينا تعارضنا رأينا، أو تسخر منا.

"ليس أوان الفصل".

- أن لا أكون مع الحكومة..

ردها سلطان بألم، وأتم:

- .. لا يعني أني ضد الكويت.

***

غربته بين أخواته. حين يكون التخلي غير مقصود لذاته. ألحوا عليه أن يبقى يشاركهم فنجان قهوة. اعتذر.

- بيته يزدحم حتى آخره بآخرين، وعليه أن ..

لحظة ازماعه يغادر دخل أخوه الأصغر هلال. قارب الثلاثين. منصب – وزارة عدل أيضا. كان حاملا مسدسا، ومظاهر التعجل بادية عليه.

- أحتاج..

ولم يكمل. كان تنبه لوجود أخيه سلطان.

- أهلا!

هتف بفرح غامر، قبل أن يشرع ذراعيه.

- ما الذي تحتاجه؟!

مصطفى يوجه سؤالا إلى هلال. الأخير لا يتردد يجيب:

- رصاصات أحشو بها مسدسي.

يتدخل عبد المحسن مذكرا:

- راقب نفسك!.. عتادنا قليل، يتوجب علينا نقتصد استخدامه.

فم هلال ينفرج ابتسامة واثقة.

- الأمر خارج الإرادة.

أجاب مبررا. الآخرون ينتظرون عليه توضيحه. يتم:

- الدائري الرابع.. غير بعيد عن هنا.. انفجر إطار سيارة جيب عسكرية عراقية تحمل ضابطين.

زاويتا فمه تتسعان بابتسامته أكثر.

- .. عرضت عليهما مساعدتهما.

أخوه عبد العزيز ينبري يتحدث للمرة الأولى، يردد متسائلا بقلق يتضمن خوفا من مجهول:

- قتلتهما؟!

اقترب من الأربعين، قطع دراسته الجامعية أيام شبابه. امتهن تجارة السيارات.

- وجها لوجه.

أجابه هلال، ليكمل مستعينا بإشارة دالة من يده:

- .. بين العينين.

التفت بعدها إلى مصطفى.

- ماذا عن طلبي للرصاصات؟!

- تريث قليلا!

جاء التعقيب من عبد المحسن، في حين ارتفع صوت عيسى بصيغة طلب:

- الدور عليّ!

***

الدخول المفاجئ لهلال أخّر مغادرة سلطان بعض وقت..

- استودعكم !

اغتنم فرصته آخذا طريقه.

- لعلك تحتاج مالا!

صوت عبد المحسن يلاحقه، يرجوه.

"رغبته التعويض لا تنفي الشعور بالذنب!"

أراد لإجابته لا تكون قطعية:

- ليس اليوم.

هلال يقدم عرضا يختلف:

- أنت تحتاج سلاحا!

ذهن سلطان يتلكأ برهة يتأمل. الحاجة واردة جدا. والاغراء..

«ألم الإساءة!».

آثر يحسم تردده.

- ليس الآن.

خشي تؤخذ ردوده عقابا يقصدهم به. أضاف:

- سأحتاجكم حتما، وسأعرف أصل إليكم.

حث خطوه. كان يحتاج يلتم على نفسه، يتأملها.

***

فسحه حديقة المنزل داخل السور بامتداد نحو البوابة. أسعد ما زال يقف متمنطقا سلاحه.

- تغادر بالسرعة التي جئت بها!!

أخوه أبدى دهشته، ومن جانبه..

- حيث تكون الضرورة.

إجابة مبهمة لم يفهم لها أسعد معنى. رغم هذا..

- متى ترجع؟

تساءل ببراءة، ومن جانبه..

- حيث تكون الضرورة.

ندت عن أسعد ضحكة حائرة لا تخلو عتبا.

- أنت غاضب!!

لم يجد سلطان ما يعقب به. هو لا يملك حق توجيه نقمته على أي كان.

- سلطان.!

أخوه عبد العزيز يهمسه من وراء كتفه يستمهله، ليتوقف عنده.

- "خير؟!"

اختزل سؤاله لأخيه. فم الآخر بابتسامة محرجة.

- أردت آخذ رأيك حول مصيرنا!

فهم سلطان يصعب عليه. اليوم .. الحال .. الحدث .. يصادفه يستوقفه من يواجهه يسأله رأيه بماذا؟!

- لم أفهم !!

لم يخجل سلطان يرددها بوضوح، مما دعا عبد العزيز يحيط المنزل ومحدثه ونفسه بإشارة من يده لدى توضيحه:

- أقصد .. مصيرنا كلنا!

فهم سلطان يظل يصعب عليه.

حسن اللغة؟!.. أم قصوره فهمه؟!".

يلقي عينيه عالقتين على وجه أخيه عله يجد وسائل توضيحه. أخوه يعود يتحدث. كلماته تتعثر على لسانه:

- ليس من واجبنا نسارع نجمع عوائلنا، استعدادا للرحيل إلى السعودية، قبل فوات الأوان؟!!

ابتسامة خاطفة تحسس سلطان جانبا مغفلا من دخيلته. لم يسأل نفسه:

"لماذا لم تراودني الفكرة؟!"

إجابته جاهزة:

- لا..

يضيع بخيبة أمل - بدت وكأنها متوقعة - طوف وجه أخيه عبد العزيز.

- أنت أيضا لم تفهمني!

يردها بيأس، فطمأنه سلطان:

- فهمتك جيدا.

يبتسم مؤكدا ما أفاد به:

- الإجابة بالنفي.

أخوه يحاجج بضعف:

- كل الكويتيين غادروا إلى السعودية منذ الصباح.

ابتسامة تشمل وجه سلطان. الآخر يواصل بما يشبه التوسل:

- الذين تأخروا .. هم في سبيلهم..

إضاءة من داخل لا تأتي من فراغ، وكذلك الحسم.

- كل الكويتيين باقون.

يقطع سلطان أخاه استرساله. عينا الأخير تتسعان استغرابا.

- دليل على ذلك..

عبد سلطان يقول، أتم:

- نحن ستة إخوة، واحد منا فقط يفكر يغادر.

يسقط في يد عبد العزيز. يردد بانهزام باد:

- لا فائدة!.. لا أحد يفهمني!

احساس بالأبوة يبدأ يتحرك في صدر سلطان. يحتوي كتف أخيه بذراعه

- اسمع!

أخوه يركن إلى صدره. يسمع باستلام.

- ليس جبنا، ولا شجاعة.. لكل انسان ظروفه وأسبابه.

عبد العزيز يواصل انصاته.

- .. ان كنت قررت المغادرة..

عيناه في عيني أخيه يختم:

- .. أسرع غادر، ولا تتردد!

***

لدى انسحابه مبتعدا سمع سلطان أخاه عبد العزيز يتساءل محدثا حاله بيأس يشارف الاجهاش:

- كيف أغادر وحدي؟!

(8)

يسـ الطريق الواصل بين منطقة الروضة وشارع عبد السلام عارف. فمه ينفرج ـسـ ـة هزيلة. ها هو ازاء اسم علم عراقي.

"ـ ـذي دعانا؟!.. أو دعاهم؟!".

ـحتـ الروضة إلى يمينه. النوافذ بزجاج مهشم. آثار تبادل إطلاق نار.

"ـعزة مروا من هنا!"

ـسـقة الروضة غيرها عن منطقة بيان. لولا عتبه اخوته لبقي عندهم وقتا أطول، ـرف الأخبار من مصادرها.

ـريق بامتداد خال من المارة والسيارات، عدا سيارة خاصة رآها أمامه تسلك ـجـه ذاته.

ـ ـرعة سيارته كي يتجاوز، خيل إليه .. سائق السيارة المعنية يشير إليه. تطلع في ـرآة المثبتة أمامه. تأكّد الأمر.

"ـذ هناك؟".

ـعور بالغموض. طبيعة الظرف، ولا أحد يجزم مخاضاته. لكنها سيارة كويتية ـسرقة، أما السائق..

"ـيك تتأكد!".

يـقـ سرعة سيارته، ريثما يوقفها محاذاة الرصيف. السيارة الأخرى تقترب تتوقف ـمتر على بعد خطوات. توفرت لسلطان فرصة يدقق.

"ـذ هو السبب!".

عـ ـ تلتقطان ملامح وجه سائق السيارة الأخرى. هو واحد من معارفه الفلسطينيين ـمن أيامه.

"ـمد الشريف!".

ـ ـد من كوادر الجبهة الديمقراطية. كانا - هو وسلطان - بعلاقة وطيدة أيام ـتـ ـي الأخير نشاطه السياسي، لتبهت بعدها، فتؤول تبادلا عابرا لتحيات مرهونة ـمـ ـدفاتها.

"مصادفة اليوم لها تميزها!".

أحمد الشريف يفتح باب سيارته. هو بصدد مغادرتها إليه. متطلبات الأدب تقتضيه يساير.

مؤشرات الموقف الفلسطيني الرسمي .. ردود الفعل الأولية.. متابعات سلطان لأخبار الإذاعات .. العتب عند حدود الحقد..

- مرحبا!

الطريق - على امتدادها - خالية من غيرهما.

- الكلمات لا تفي المناسبة!

قالها أحمد الشريف بحزن كامد وهو يمد كفه مصافحا. بحث سلطان في ذاكرته عن كلمات تناسب الموقف.

- "شدّة وتهون!".

عقب سلطان بكلمات تفتقر إلى الدفء. أحس كما لو أنه نفسه يتطفل على نفسه.

"العواطف لا تمارس!".

شدّه صوت محدثه:

- لست بصدد أقول..

شعر بالآخر يختار كلماته.

- .. موقفنا كفلسطينيين عشنا في الكويت، وأكلنا من خيرها..

"لماذا اختيارك بالذات كي تسمع؟!".

أدرك سلطان أن كلمات الآخر تفاررت منه فجأة. رآه عقد حاجبيه مفكرا، قبل أن تند عنه زفرة حائرة.

- آسف.

رددها أحمد الشريف بقهر.

«الظرف .. وصيغة التعزية!».

لكن أحمد الشريف لم يبادر ينصرف. لديه - كما فهم سلطان - ما يزمع يفصح عنه.

- لا أدري.. ان كان يهمك تعرف..

عند ما سيدلي به.

- رغم كونهم اجتاحوا الكويت اليوم ..

تعبير - من خلال استخدامه - يشير إلى موقف. عينا سلطان تتعلقان وجه محدثه ينتظر عليه مواصلته.

- .. الاستخبارات العراقية شنت - بدءا من هذا الصباح - حملة اعتقالات واسعة شملت العراقيين المقيمين من المعارضين للنظام..

***

محمد الشريف أدلى معلومته وانصرف .. سلطان أدرك سبب مبادأة جنود نقاط السيطرة توجيههم سؤالهم:

- "أخ عراقي؟!".

معارضون يعرفون بعضهم البعض. اعتزاله نشاطه السياسي لا يعني.. البتة، وان كان النظام العراقي بدأ بمعارضة من مواطنيه..

- "يد لاجتياح الكويت - على ما يبدو - يحقق أهدافا عدة!".

سه محمد صالح يرد في ذهنه. كان جاءه بيته قبل ساعات. تراه .. عرف يعود يته؟!.. وان فعل .. هل طاله رجال استخباراتهم هناك؟!

- "خسارة بوجوه عدة!".

- "لا أدري .. إن كان يهمك تعرف ..!".

ينه يبادر يتصل يحذر.. إن كان السيف لم يسبق عذله..

- "محمد صالح يعرف يصل إلى غيره".

سيارته - دون قصد مدرك منه - تزيد سرعتها. إخوته يواجهون الاحتلال على طريقتهم، أما هو ..

- "أخ عراقي؟!"

تو جهة الاحتلال ليست وقفا.

- "أخ كويتي".

كان دخل منطقة بيان. فمه ينفرج ابتسامة اعتزاز راض. شاهد شباب منطقته يتسابقون يفكون اليافطات واللوحات المعدنية الدالة. طمس العناوين.. الاحتلال وهدفه .. يداهم ما تبقى من رجال الدولة والعسكريين الكويتيين في منازلهم.

"المقاومة .. بوجوه عدة!"

***

استقبلته إيمان بعينين مرحبتين.

- إخوتك على ما يرام؟

سؤالها يهدف يتأكد. أجابها مطمئنا بثقة:

- أكثر مما يرام.

لم تستوضحه تفصيلاته، وبدوره اهتم يسارع يجري اتصالا تلفونيا .. محمد صالح.

- آلو !

صوت نسائي لا يعرفه يتردد من الجانب الآخر للخط.

- أردت أعرف إن كان محمد صالح..

ترده مقاطعة الصوت النسائي حاسمة:

- غير موجود

"شيء ما حدث!.. أو يحدث!!".

ذهن سلطان يستعرض أسئلته.

- متى يعود؟!

يصله الرد بحضور قاس:

- لا ندري!

أحس بالمرأة تهدف تتخلص منه.

"من يهتم يعرف ماذا؟!".

يبقى السؤال الأخير:

- هل هو بخير؟!

لعل المرأة استغربت مباشرته. ترددت برهة، تساءلت بعدها بفضول لا يعدم هامش ود:

- من أنت؟!

كان سلطان تلفظ اسمه. كانت المرأة تلفظت ما معناه:

- عُلم".

كانت أقفلت الخط.

***

متاهة قلق، وسماعة التلفون باقية عالقة في يده. ود يهادن نفسه. "اليوم غير عتيادي.. وعليك ألا تتوقع من الناس أن يكونوا اعتياديين" الأحداث حالة استباق. لزمن حالة أخرى..

- ما بك!

صوت نسائي يتشرب كثير حنان يخترق عليه تشتته. تنبه إلى شيرين تقف أمامه حاملة فنجان قهوة. تذكر يعيد سماعة التلفون مكانها.

***

ـدرة هي المرات التي ارتشف فيها قهوة بمثل هذه الألفة.

- أهم ما في الحدث محاولة استيعابه.

قالها كمن يجد تبريرا لحالة تشتته. صالة المنزل خالية إلا منهما، هو وشيرين. عيناها تلوحان بابتسامة متفهمة. غمغمته بصوت خافت:

- لا تنقصك الخبرة.

الحاج محمد ما زال يشغل نفسه يتفقد حديقة المنزل. عبد الله ورمضان غادرا إلى النقرة - حولي " يشتريان احتياجات ضرورية بناء على توجيهات إيمان. الأخيرة إضافة إلى أمها وأختها الكبرى.. شؤون المطبخ. الصغار .. سليمان ووفاء وجعفر يعيشون غير بعيد عن جدهم.

مدى تناوله الفنجان من يدها تمنى عليها - دون أن ينبس حرفا - تجلس. كان يحتاج من يبدد عليه هواجسه. لعلها أدركت ما دار في دخيلته. استجابت. شمله

شعور امتنان.

- الذهول لا يستثني أحدا!

قدرتها اختيارها كلماتها. اهتمامها تؤكد له ثقته بنفسه، يعيده إلى حالاته صدر شبابه.

"الأمور في غير أوانها!".

وهاتان العينان اللوزيتان تحوطانه فضولا أنثويا لذيذا.

"هي وإيمان أختان شقيقتان .. ترى.."

رنين مفاجئ لجرس التلفون يقطع على سلطان تواتر أفكاره.

- آلو!

***

"حين يتبدد أحد عوامل القلق!".

فمه ينفرج ابتسامة رضا، ألأنه استبشر مجالسة شيرين له؟!.. صوت محمد صالح من الطرف الآخر للخط:

- بلغني انك سألت عني!

معنى هذا أن الاستخبارات العراقية لم ..

- أردت أطمئن!

محدثه فهم عليه.

- أنا محتاط.

أفاد محمد صالح، واستطرد:

- عرفنا بالذي يجري قبل ساعة.

صوته يتلون أهمية:

- حاولنا نعمم الخبر على أكبر عدد ممكن.

سلطان يواصل اصغاءه. نغمة صوت الآخر تهبط منع مواصلته:

- عدد العراقيين الذي تم اعتقالهم حتى الآن جاوز المائتين.

- يصمت برهة قصيرة. يضيف بعدها موضحا:

- .. جلهم من المحسوبين حزب الدعوة، وآخرين ماركسيين.

سلطان يهتم بحصيلة الخبر لا تفصيلاته.

- بالمناسبة..

ردها محمد صالح وقد تذكر، ثم أكمل:

- .. هناك موضوع يخص الشركة..

بقي جملته معلقة. بدأ كمن يشاور شخصا عنده. الشركة المقصودة عائلة لسلطان.

"كيف له يوزع اهتماماته؟!".

ذهن سلطان يترجم دهشته،

"ليس وقتها".

صيغة قرار أزمع سلطان يفصح عنه. الحالة العامة بخطورتها. الأمور بأولوياتها. لولا مبادرة محمد صالح:

- لن أتصرف!

قاطع بصيغة قرار قطعي لم يعتده سلطان عنه.

***

صمت الذي أعقب مكالمة محمد صالح .. الذهول، الانشداه، الاستغراب.. مستويات نسبية بحد أدنى أو أقصى. اليوم بالذات..

- لن أسألك ان كانت الأخبار سارة!

جاءت شيرين بمشاركة ودودة. كانت لازمت تتأمل وجهه خلال زمن مكالمته. ضحكة قصيرة دالة.

- من أين يجيء الخبر السار؟!

قاطع بما يعني الاستحالة. ترنو إليه.

"عيسى!".

صوت نفسه يحذرها. أدرك عجزه مواصلة تحديقها. شيء ما في كيانه أخذ يهتز.

"مبيتة!".

يهرب بعينيه إلى فنجانه. عهده قديم .. علاقة.. أنثى حقيقية. سنوات منذ تطلق من إيمان. في البدء عاني ما لا طاقة.. كان يحيب إيمان حد العشق، وما عرف بعدها يبتني علاقة..

يذكر عن أشهر طلاقه الأولى لياليها بكوابيسها ذات المنحى .. وآثر لا يشرك غيره معاناته.

"المكابرة في الجدوى!".

كانت إيمان ارتأت تبقيه جار منزل .. طابق فوق طابق تحت، أصرت تتخذه صديقا تركن لمشورته عند ضرورتها.

- أسألك !

صوت شيرين يستميحه يواصله. يخشى ما هو مبيّت، ويعجز يرد رفضا أو إيجابا.

"المرأة عالم بلا حدود!".

الظرف اليوم الحالة.

- .. إن كانت لديك فسحة وقت نتحدث!

واصلته شيرين تستميحه .. الذهول، الانشداه، الاستغراب.. مسميات نسبيه.. اليوم بالذات..

- الآن!

غمغمها بتساؤل يتضمن دعوة آنية مفتوحة. حميمية العلاقات جزء من مقومات الزمن العصيب.

***

- لن أتحدث نيابة عن أهلي..

صوتها جريء ومباشر في الوقت نفسه.

- .. فأقول .. نحن آسفون لأن ظرفنا أجبرنا نتطفل عليك في منزلك. ما خطر في بالنا يقاطعها.

- أنا شخصيا غير محرجة أكون هنا.

مض من بحة موحية يتشرب صوتها:

- كنت أرغب أكون هنا.

تسميح والتصريح وجهان لجرأة واحدة.

- .. قريبة منك.

كماتها تهزه. تحيله إلى زمن بدا وكأنه فات منذ .. كم؟!

"الأوان والجدوى!!".

يسمعها تؤكد كلماتها:

- أردت أعرفك أكثر!

هذه القدرة المتميزة على البوح اعتادها عن إيمان وحدها، ولم يصادفها لدى غيرها.

"هي مسألة وراثية!!".

يرده سؤال طارئ:

"إلى أين؟!"

رتأى ألا يصرح به، وارتأى يواصل يسمع.

***

هدأة المكان. صوت شيرين يتخذ منحى القص. الخبرة المختزلة أو المختزنة، وصدى نفسي شفيف يلوح من خلفية الذاكرة.

- قبل أن اتخذ قراري أتزوج .. أرحل إلى إيران.. كنت أعرفك من خلال كتابات محددة نشرت لك أيامها..

"الزمن السياسي!".

- .. وقتها ما كنت رأيتك بشكل شخصي بعد.

"المعرفة المتأخرة .. أو المتقدمة .. سيان!".

- .. شيء ما منك .. كان يخصني.

ترددت وهلة خاطفة. أضافت:

- أفكارك.

- "أحلام الفارس القديم".

- .. وأنا هناك بلغني نبأ زواجكما.. أنت وإيمان .. لحظتها ذهلت .. لماذا إيمان؟!

تساؤلها لا يتضمن تفضيلا بقدر ما يدل على دهشة رافضة.

- .. لماذا أنت بالذات؟!

صوتها يؤول مراوحة في مساحة التذكر:

- .. وأنا - بعدي - هناك بلغني نبأ طلاقكما..

عيناها تترصدان عينيه.

- .. لم استغرب.

الاستغراب يكاد يغلبه هو. تسحب لصدرها نفسا عميقا.

- نبأ طلاقكما .. على ما يبدو ..

تكف فجأة. عبد الله ورمضان يدخلان. كانا عائدين من مشوار "النقرة - حولي" وأخبارهما تزحمهما.

- وقت آخر!

اختصرتها شيرين بتصميم، ولم تضف.

(9)

لن تفهم إنسانا ما بشكل كاف مالم تعرف تلاحق طريقة تفكيره. سنوات عشرته لإيمان .. وكلما ظن أنه احتواها روحا وجسدا ضمن عالمه اكتشفها تواجدا ماديا محضا، منفردة في عالم أفكارها واهتماماتها، وحيدة، بعيدة، تحوط نفسها بشرنقتها.. حتى إذا ما جاء اليوم الذي اطمأن إلى امتلاكها كلها فقدها.

شيرين، الآن - في الزمن الصعب - تفد فواحة أنوثة لتثير من السواكن شتّاها. تنفض غبارا .. عن ماذا؟!

- "أردت أعرفك أكثرا!".

"على افتراض .. المحصلة النهائية .. كيف ؟!".

سلطان - مع نفسه - يحتاج رفقة انسانية متميزة. مشاركة ذات طابع خاص، لكنما الأمور والأوان وهذا الحضور الجبار لحدث اليوم..

***

بعدما استقر بهما المكان أفضى كل من عبدالله ورمضان ما لديهما من أخبار. مبلغ المال الذي استلماه لم يكن كافيا لشراء نصف احتياجات إيمان. أسعار السلع تضاعفت بشكل غير قابل للتصديق.

- «النقرة - حولي».. تزدحمان من داخل بالناس.. تهافت شديد جدا على شراء المواد الأساسية بالدرجة الأولى.

- الكويتيون قليلو العدد. مقارنة.

- الكويتيون يبدون مضطربين.

مستضعفون في وطنهم!

- الجنود العراقيون يسرحون ويمرحون.

"غياب يقابله حضور".

عبد الله شاهد جنودا عراقيين يخطون شعارا بالبوية السوداء على سور مدرسة "الفارابي":

(تحرير الكويت اليوم .. وبعدها تحرير القدس)

شعار آخر بالبوية الحمراء على كامل جدار مبنى الاتصالات:

(اليوم قارون الكويت.. وفي الغد زبانية اسرائيل)

"ماذا بصدد الشعبين.. الكويتي والاسرائيلي؟!"

أحد الباعة من الفلسطينيين همس في أذن عبد الله ظنا منه أن الآخر كويتي:

- "شدة وتزول!".

بائع ثان عقب:

- كفروا بالنعمة!

قالها مفسرا. كان بدوره فهم أن عبد الله كويتي.

- .. الباري - عز وجل - بالمرصاد!

- أكراد النقرة في حالة..

أفاد رمضان، وضح:

- الاستخبارات العراقية شنت حملة اعتقالات.

"توظيف أمثل لعامل الوقت".

عبد الله يختم:

- سمعت أن سلطات الاحتلال أصدرت أمر منع تجول..

رمضان يختم:

- لكن أحدا من الناس - على اختلاف جنسياتهم - لم يمتثل.

المذياع بمتابعاته الاخبارية:

"مازالت أصداء الاجتياح العسكري العراقي لدولة الكويت.. هذا وقد دُعي.."

***

بعد تسلمها المستلزمات التي جيء بها من أسواق "نقرة - حولي" نشطت إيمـ
توزع مسؤولياتها.

أشرطة "تيب" لاصقة من نصيب عبد الله ورمضان يساعدهما جعفر، يتولـ
تعزيز زجاج النوافذ، تحاشيا لخطر تهشمها، جراء قصف متوقع أو اهتزازات متر

عن انفجارات عالية الشدة.

إضافة إلى إحكام سد كافة الثغرات التي تسمح بتسرب ايما غاز من خارج إلى داخل.. فيما لو أقدم العدو على استخدام أسلحته الكيماوية أو الجرثومية.

النساء كلفن بإعداد مستلزمات نثار الفحكم وأكياس بلاستيكية لغرض الاستعانة بها لدى حدوث المحذور الكيمياوي.

كذلك على الصغار: سليمان ، وفاء ، جعفر، الاستعداد لتلقي دورة تدريبية مفادها: كيف تتصرف في حالة ما إذا ..».

سلطان يغتنم فرصة انشغال الجميع. يتفرغ يبحث في أوراقه وأجندته القديمة، محاولة للعثور على نمرة تلفون أحمد الشريف. الظرف يقتضي نوعا من توزع طوعي لمسؤوليات غير اعتيادية، ان كان إخوته وجدوا ما يقومون به على طريقتهم .. بامكانه يشرع على طريقته. الفكرة التي انبثقت بغتة:

«أجرى اتصالا .. لقاء .. يهدف يحقق ما يشبه التنسيق..»

إمعان الفكر.

«تلمس الحالة. معرفة رد فعل أطراف أخرى».

الخاطرة التي انبثقت هكذا، سرعان ما تحولت هاجسا ملحا.

-المبادرة.. لابد»!

بحث سلطان في أوراقه وأجندته عن عنوان أحمد الشريف أسفر عن نمرة تلفون واحدة:

«إذاعة الكويت - هندسة المعدات»

سقط في يده. الإذاعة الكويتية العاملة الآن عراقية، ومحاولة الاتصال على الرقم لا تعدو كونها..

لديه بضعة معارف من الجالية الفلسطينية، بيد أن طبيعة علاقته بهم لا ترقى إلى مستوى ما يطمح إليه.

لحظة عابرة راودته فكرة يتراجع، شعوره الاحباط، وخاطر آخر تراءى له من خلال نحو جهته نفسه:

«الاتصال .. اللقاء .. هدف التنسيق - في حالة ما إذا تم - يقتضي صفة تؤهله،

والصفة تقتضي ثقلا سياسيا أو رسميا».

سلطان - في حالته الراهنة - لا هذا ولا ذاك. احتمال .. يحل يوم قادم تجري فيه مساءلته:

«الصلاحيات المخولة.. كيف؟!».

يضاف .. الخطوط العامة لتحركه، وكذلك الأفكار التي سيصار طرحها لم تتضح في ذهنه بعد.

***

باقتراح من أم إيمان:

- نتابع ما يجري!

عاد وجه عمر فاضل يطل من شاشة التلفزيون، كان أوشك ينتهي من قراءة برقية تهنئة وتأييد وشجب:

".. أشاوس الكويت.. أبطالها الميامين .. قدما على طريق النصر المبين .. معمدة بالروح والدم .. الخونة والأذناب إلى مزبلة التاريخ..".

التعابير ذات الرائحة .. كما لو أنك في بلد غير بلدك. تسمع من يتحدث إلى سواك منتحلا صفة تجهلها.

"إن الثورة التحررية الظافرة التي تفجرت.. لم تأت من فراغ، لكنها تكليل مؤزر لنضالات شعبنا الحر الأبي طوال سنوات القهر والظلام التي رزح فيها تحت نير العبودية والاستغلال البشع، وقد مارسته بحقه تلك الطغمة الآبقة، دون رادع من ضمير أو قانون.."

يصمت عمر فاضل لثوان. يقرأ ورقة أمامه.

«.. وقد بلغت القطيعة بين شعبنا الكويتي الأبي والفئة السادرة أوجها في الآونة الأخيرة.. حيث مورست بحق أبنائنا الميامين ممن رفعوا أصواتهم مطالبين بحقوقهم المشروعة أقسى أنواع التعذيب والتنكيل..».

أمس .. كان عمر فاضل يقبع في دكانه .. بيع وإصلاح آلات موسيقية.

- «.. تعال أعرفك على صديق عزيز جدا.. من المعارضة العراقية..» قالها رحمه حينها وواصل واصفا عمر فاضل:

- "تقدمي حتى النخاع!".

لمنحى التقدمي المعارض غير المشبوه يتأكد عبر تكرار الإيحاء الدال على أن الثورة تحررية هنا .. بغض النظر .. قامت بفعل المعارضة هنا.

ليست محاولة اختيار حصيلة وضع محدد، لدق إسفين مناسب، لأن الأخير .. كان حادثا فعلا.

***

ذهنك مطالب يعمل بطاقاته كلها، مواجهة الحدث، الاستعداد لما سيترتب.. ورغبة خفية كامنة تؤهلك تعطل ذهنك، تُلغي زمنك الكابوسي هذا، تمحوه بحالة إيهام، وكأن لا شيء.

وقائع، تواترها ، كان سلطان قد عانى انكتام الهواء المتنفس في الصالة من منزله. عنر فاضل من شاشة تلفزيونه. تواصل البث كما دراما هزيلة. وملاحقتك مواجهتك:

"يتوجب عليك تتقبل الأمر الصادر بمرسوم والقاضي .. أنت مغفل".

***

عبر الباب المؤدي إلى الحديقة. نهار اغسطس بطوله الملحوظ. الشمس ما زالت. ريح ساكنة تكاد معدومة. تطلع إلى أعالي الأشجار، أغصانها بدت كابية.

"الطبيعة والناس يتشاركان!".

الحاج محمد - الأب - يشغل نفسه هناك، يروي حوض الزهور، فكر يتوجه صوبه عند تنبه لشيرين تقترب.

- ما زال يعاني حالة ذهول!

همست لسلطان وهي تتطلع ناحية أبيها. ود يعقب:

- "حالة عامة!".

في حين واصلته قائلة:

- حنة الكويت لا يعدله شيء.

يحتد تنم عن اكبار متميز تكنه لأبيها.

- على فكرة.

استدركت قالت، وأضافت بما يوحي تحذيرا مضمّنا:

- .. هو لا يعرف خبر طلاقكما إيمان وأنت!

تذكر اشتراطا سابقا لإيمان:

- "أمي وحدها تعرف!".

حفزه فضوله. يدريها أنها كانت في إيران وقتها. سألها بصفتها شخصا غائبا:

- شيرين .. كيف عرفت؟!

فمها .. ابتسامة دالة.

- تلفون من أمي.

تحصر ذهنها:

- .. في اليوم التالي لوقوع الطلاق.

يهتم يسمعها.

- كانت مفجوعة بالخبر.

ضمير المفرد الغائب يعود على الأم.

- أرادت من خلال مساررتها لي تخفف عن كربها..

تصمت برهة قصيرة جدا.

- .. لكن النتيجة جاءت عكسية.

ابتسامتها الدالة تتوسع بدلالة أكبر.

- كانت بابنة واحدة مطلقة..

ضمير المفرد الغائب ما زال يعود على الأم. أكملت:

- .. أصبحت بابنتين.

تلكأ ذهنه عند استخدامها مدلولاتها. سمعها تتم:

- خبر طلاقكما .. أنت وإيمان .. شجعني أسارع اتخذ قراري .. أتطلق.

***

يوم أول، عصيب ، داهم، غامض، خطير، معبأ بالأحداث. طافح. يوم أول، لتبدأ تكتشف نفسك، ضعفك، قوتك، انتماءك، ناسك، مسؤولياتك.

داهم، وها هي اهتمامات يومية - كانت أساسية - تنسحب وراء، تصير مغفلة. وفي المقابل .. اهتمامات طارئة - ما كانت ترد على بال - تبرز فجأة. تفرض حضورها في المقدمة من ذهنك.

"هل يحق لك أن تستوقف نفسك!!.. تستغربها؟!"

يتقمصك هاجسك:

"قد أموت في أيه لحظة قائمة .. أو قادمة، مع حلول ليل هذا اليوم.. أو عند حلوله، حيث لا فجر.."

فكرة، ولا خيار لك إلا أن تتقبلها. تمارس وجودك بافتراض وجودها، الوهلة الآن، وما بعدها .. رهن المجهول.

وسط هذا كله تصادفك امرأة تفيض أنوثة. تستهلك هامش زمنك. تقص عليك ما يحددها. تحيلك مسؤولية مبهمة.

***

كانت شيرين ما زالت واقفة عنده، لعلها استعدت تسمع تعقيبا يصدر عنه، وكان سلطان يعاني توزعا مشوبا فضولا لا أوان له.

- سيدي!

صوت ليتا يخترق عليه حالته. رآها تقترب، لتخبر:

- سيد محمد صالح على الباب!

***

شمس شارفت تغيب. أعالي البيوت ببقايا ضوء نهاري منطف، يمازجه آخر رمادي يميل إلى القتامة.

كانت هناك قوية خفية، تطبق على سلطان من داخله. آنية الحدث بحضور جابر تسحق لحظاته كلها. وهذه المقارنة اللامقصودة بين كل أمس مضى وبين اليوم.

كان يسمع خطاب الشيخ سعد العبد الله ولي العهد من إذاعة كويت شبه مختنقة.

الصوت لم يكن واضحا كفاية، لعله سجل منقولا عبر جهاز ارسال.

ولي العهد وضح أمورا وأكد أخرى تقتضي مواطنيه أن يتسلموا الأمانة بما يترتب عليها من مسؤولية.

في الوقت نفسه تناقل ناس الداخل أخبارا موثوقة تفيد أن الأمير وولي عهده وصلا أراضي المملكة العربية السعودية بأمان. الانطباع العام. يحدوه الأمل.

"مادام الرأس قد سلم..".

يترجمه يقين ثابت:

"أزمة عابرة .. حتما".

***

كان سلطان اجتاز بوابة السور إلى الطريق، حيث شاهد ثلاث سيارات نقل عائدة لشركته، تصطف الواحدة منها وراء الأخرى، إضافة إلى سيارة رابعة خاصة. محمد صالح وثلاثة رجال بأشباه كويتية يقفون عنده.

- اسمح لي أني تصرفت!

رددها محمد صالح بصفة استعجال، وبادر يعرف بمرافقيه:

- أنسبائي.

قبل أن يشير باتجاه سيارات النقل الثلاث.

- اضطررنا أن نجيء بهم هنا!

فمه ينفرج ابتسامة باهته.

- جنودنا النشامى..

لهجته لا تكاد تداري شعوره بالخزي.

- .. يحتجزون السيارات التي ليست بحوزة أصحابها.

سلطان يكاد يلم بالمعنى كاملا. محمد صالح يستدرك:

- .. هم يسرقون السيارات.

***

عذره .. وجود السيارات هنا بما يثبت ملكية صاحبها يبعدها عن دائرة الخطر مؤقتا.

- تركيزهم الحالي..

أفضى بها محمد صالح، وضح:

- .. مصادرة السيارات المتواجدة في الشويخ والكويت والعاصمة، حيث بدت البلد هناك كأنها مهجورة.

"أيها الكويتيون الأحرار.. ناديتم فلبّي النداء.. وها هم أخوتكم الشرفاء أبطال القادسية هبوا هبة الأسد الهصور.."

- أمر آخر

نوه محمد صالح، استطرد:

- .. بمساعدة انسبائي أخذت السيارات إلى مخازن الشركة وحملتها بأصناف من مخزون بضائعنا.

"بيان صادر عن مجلس قيادة الثورة في جمهورية الكويت الفتية.. بعد الاتكال على الله.."

- مفارز من جنود الاحتلال بدأت كسر أبواب المحلات التجارية ونهب محتوياتها.

".. علما .. إن أواصر الدين والدم والجوار والعروبة التي تربط الشعبين الشقيقين.. الكويتي والعراقي.."

***

أوشك محمد صالح ينصرف حين عنّ لسلطان يقول بصيغة تحذيرية:

- عليك تحتاط في تنقلاتك.. هم يصادرون عراقيين من على ..

تند عن الآخر ضحكة قصيرة دالة.

- غاب عن ذهني أخبرك أني احتطت للأمر.

يد تندس في جيبه، قبل أن تمتد لسلطان ببطاقة هوية أنيقة تحمل صورته.

- تزودت منذ الصباح ببطاقة شخصية جديدة.

تسلم سلطان البطاقة. تطلع فيها.

"محمد علي جاسم - كويتي - محاسب - جمعية السرة التعاونية"

عيناه تصرحان دهشته. يعود محمد صالح يفلت ضحكته القصيرة الدالة، يستشهد بمثل دارج.

- "من له حيلة.!".

لا يتم جملته. يشمل مرافقيه الثلاثة بإشارة من يده. يواصل مضمنا لهجته عرفانه بالجميل:

- "البركة في الشباب!".

لم تتسن لسلطان فرصة يستوضح. كان صدى أذان المغرب أرتفع مدويا مهيبا ليشمل الأرجاء.

"الله أكبر".

تذكر أنها المرة الأولى يتنبه يسمع فيها الأذان هذا اليوم. ألأنه انشداهه بمجمر الأحداث؟!.. أم الأذان ذاته..

منارتا مسجد فاطمة الوقيان تصعدان شامختين. بقايا الضوء النهاري المنطفي ء تعد. ضوء مصابيح كهربائية صفراء يؤطر المنارتين. مساجد أخرى - بلا عدد - تستجيب لنداء الأذان. أرهف سلطان سمعه. الصيغة الآن تختلف عما اعتاد.

"اللهم انصر المظلومين على الظالمين .. اللهم فرج كربة المكروبين".

يداخله تآخ أليف يتعمق أغواره. طوال عمره لم يتأت له هذا الاحساس. المـ تستجيب عبر الجهات. وها هو شعوره بالفردانية يتلاشي، مخليا مساحته لنمـ شعور جمعي بعث على الخشوع والرهبة، مقرونا بتنام هادئ ومكين في نفسه لشمولية الاستعداد للقادم.

(10)

"تسلم الأمانة!".

تعبير يبدو - للوهلة الأولى - محددا، لكنه - عبر ظرفه - أبعاد شاسعة لا يحدها تصور بشري وقتي. تبدأ بأن توثر جارك ما عندك فيتأبى استحياء، أو يرخص جارك حياته فداء، فينتابك شعور عارم بالتقصير.

تبدأ بأن تمارس التزوير كي تعرف تظل حيا، أو تمتهن القتل لكيلا يظل الآخر. تبدأ بأن تقف خلف فرن للخبز. أو التقاط صورة لكويتي قتيل.. بنزع يافطة دالة على عنوان، أو نزع فتيل.

بإمكانك تجتاح مساحة أرض محددة جغرافيا، إنما الهوية، المعطيات الأساسية لوجود مادي معنوي اسمه دوله..

«تسلم الأمانة!».

وردت في مخاطبة ولي العهد شعبه يوم احتلال أول، وقبلها كان التحرك الجماعي مزيجا بين ما هو عفوي ومدرك للحفاظ على أكبر قدر ممكن من المقومات قبل أن تطالها اليد الهمجية.

- "البركة في الشباب!".

ردد محمد صالح بعرفان. انسباؤه.. كانوا أخفوا وثائق ومستندات، دلهم وعيهم أو حدسهم إنها مهمة ويجب أن لا تقع في يد .. آخرون وصلوا إلى وزارات ومبان استراتيجية.. جمعوا المطلوب. دولة الكويت كتدوين موثق تنتقل - خلال ساعات - إلى مساكن المواطنين. تجد مخابئها في غرفهم. تحت أسرة نومهم.

مخازن السلاح الكويتي. مبادرة الوصول قبل فوات الوقت. استيلاء على بنادق، قنابل، أعتدة، مدافع محمولة، مضادات.. حيازة كل ما يخدم فكرة مقاومة. تخزينه في مواقع محددة.. تتوزع مناطق كويتية معينة.

- «البركة في الشباب!».

محمد صالح، وهو عراقي، يضطر في زمن احتلال عراقي أن ينسب نفسه إلى الكويتيين في ظل وضعهم..

***

الإذاعات، الأخبار..

"مجلس الأمن الدولي.. جلسة طارئة .. يدين النظام العراقي جراء غزوه دولة الكويت.. الإدانة جاءت بالإجماع، مع امتناع دولةواحدة عن التصويت.

الإدانة تتضمن مطالبة نظام بغداد بسحب قواته إلى ما وراء الحدود التي كانت قبل بدء العدوان، وإعادة الأمور في دولةالكويت إلى ما كانت عليه".

وكالات الأنباء تتناقل قراءات لمراقبين سياسيين:

"في موقف متميز للاتحاد السوفييتي.. الأخير يصوت لصالح قرار الإدانة، رغم المعاهدة الاستراتيجية القائمة بينه وبين نظام بغداد، ويعلن حظرا فوريا على امداد العراق بالأسلحة، مما يعني اجماع الدول الكبرى.. على معارضة احتلال العراق للكويت".

قرار مجلس الأمن الدولي بقراءاته السياسية يشد من أزر الكويتيين.

"اجماع الدول الكبرى.. بتمثيلها المعسكرين.. الغربي والاشتراكي، يعني تسريع زوال الغمة".

كذلك تناقلت وكالات الأنباء:

"الرئيس الأميركي جورج بوش يدين الغزو العراقي للكويت بشدة، ويدعو نظام بغداد يسحب قواته المعتدية فورا إلى ما وراء .. على أن يصار إلى تسوية النزاع بالطرق السلمية..".

خبر لاحق:

"الرئيس جورج بوش يصدر أمرا تنفيذيا مباشرا يوقف بموجبه إيما نشاط تجاري مع النظام العراقي، ويأمر بتجميد موجودات كل من العراق والكويت داخل أراضي الولايات المتحدة الأميركية، حتى اشعار آخر، ويدعو الدول الأخرى لاتخاذ قرار مماثل".

***

أخبار يتناقلها ناس الداخل عن داخل:

"منطقة كيفان.. وضع مختلف عن مناطق كويتية أخرى.. الكويت ما زالت هناك وحدات مقاومة مسلحة يكاد يصل عدد أفرادها إلى الألف .. ما بين عسكري ومدني

تآلفت من أفراد حرس الشخصيات الذين كانوا متواجدين في إدارتهم هناك، إضافة إلى رجال من الحرس الوطني التحقوا بهم، قادمين من الخالدية، وأفراد من الجيش تدفقوا عليهم قادمين من جيوان. ليختاروا مركز قيادتهم في مبنى مخفر كيفان. كانوا قد توزعوا على مداخل المنطقة ومخارجها، وما زالوا قادرين يمنعون دخول قوات الاحتلال، بعدما نجحوا في صد عدة محاولات، موقعين عددا غير محدد من الإصابات في صفوف العدو".

الخبر والمعنويات، وسؤال يحز الذهن:

"مقاومة ألف بمواجهة جيش من مئات آلاف.. حتى متى؟!".

كيفان صامدة. احتمالات يلجأ العدو يطوقها بآلياته. القصف، أو الاقتحام، ويبقى الرهان.. وجوبية تدخل خارجي فوري.

***

- أمر جيد!.

رددت إيمان بارتياح لدى تلقيها نبأ وصول سيارات النقل الخاصة بالشركة محملة بما يزيد عن ستة أطنان بضائع، تتألف جميعها من مواد غذائية قابلة للتخزين. مربيات خضار معلبة. أجبان..

- مخزون مناسب يكفي لأشهر!

شيرين تصحح:

- ستة وأكثر.

قوات الاحتلال وحسابات مصادرة كل شيء، احتمالات مداهمة منازل المواطنين، الطعام بأهمية مصيرية..

- افراغ حمولة السيارات..

أبدى الحاج محمد رأيه، أكد:

- .. بالسرعة الممكنة!

تدخلت الأم موجهة:

- تخزين الكمية بعيدا عن الأعين!

إيمان قررت:

- نتوزعها مع الجيران.

لم يجد سلطان ما يعترض به.

***

ما قبله، كان تلفزيون الكويت قناتين. الاحتلال اكتفى شغل واحدة. عمر فاضل، سيل برقيات التأييد والشجب. وشعارات الثورة المظفرة تطالع المتفرجين يافطات ورق كارتون.. كتابات مرتجلة خُطّت باليد كيفما اتفق.

"النصر المبين لأبطال الكويت الميامين".

"المجد المؤزر لأشاوس البلد المحرر".

"العار والدمار لأذناب الامبريالية والاستعمار".

بعدها.. كانت مادة العرض الأساسية المسرحية الكويتية: "باي باي لندن" توليف ذكي لمشاهد تمثيلية ساخرة يهزأ فيها الكويتي من عوارض نشاز مضخّمة في سلوك

خطر في بال سلطان يتساءل عن رد فعل عبد الحسين عبد الرضا، وهو العنصر البشري الأول في العرض، لدى متابعته توظيف الغزاة مسرحيته كرسالة موجهة ضمن الظرف القائم.

وخطر في باله يتساءل عن نمط تفكير نظام ما، اجتاح بلدا ما، ادعى ناصر قضية عارمة ما، ليقدم يهزأ بالشعب المعني في اليوم الأول لثورته المعنية.

***

- كنت قاسيا مع أعمامي!

الأعمام المقصودون هم اخوة سلطان، والمتحدث ابنه عيسى. كان وصل بعد حلول الليل. صوته بنغمة من عتب حزين لم يعهدها سلطان فيه من قبل. هاجس شؤم مشارك وآثر لا يقاطع ابنه.

- هم لم يقصدوا الإساءة إليك!

سلطان يدرك هذا، وهذا سبب ألمه.

دافع الإساءة المقصودة واضح لطرفي العلاقة، أما وأنت لا تقصد.. فتلك مصيبة مقصود وحده".

منه يواصل توضيحه:

- ظنوا ان اتصالهم بك يسبب إحراجا لك!

شعور سلطان بالرثاء تجاه ابنه من جراء توزع الأخير بين طرفين شقين.

- "تخلي مؤلم بحد ذاته، وتخلي الأشقاء أكثر إيلاما!".

- على العموم..

ردها سلطان بتسليم، واستطرد مداريا حزنه:

- .. المسألة بسيطة.

منه يتطلع فيه برجاء، مما يدعوه يؤكد:

- .. بحكم المنتهية.

***

حوار مع ابنه بخصوص اخوته بحكم منته. أراد يلم بما يحدث. تساءل:

- أخبار الخارج؟

الخارج.. هو ما وراء أسوار البيت.

- كثيرة.

جابة عيسى باستعداد لا يخلو من ارتياحه مباسطة أبيه حديثه. صمت برهة اختار حدثه ما يبدأ به:

- عساكر الاحتلال - للمرة الثانية - أشاعوا خبر حظر التجول، على أن يسري من الساعة الثامنة ليلا..

قاطعه شيرين وهي تتطلع في ساعة معصمها:

- بمعنى هذا..

- يتوقف عيسى عند ملاحظة شيرين، يواصل:

- لكن أيا من الناس لم يستجب.

الآخرون يصغون برغبة معرفة مزيد. عيسى يستجيب:

- وأنا في طريقي لهنا.. نبهني جنود السيطرة.. إلى أن الموعد النهائي للسماح بالتجول هو الساعة العاشرة بتوقيت بغداد.

يند عن إيمان تساؤل مندهش:

- بغداد؟!

عيسى يجد تفسيره.

- هم يفهمون على ساعاتهم.

"عليك تجد مسبباتك ما بين فتية من الكويت آمنوا بربهم فأعلنوها ثورة تحررية مؤزرة، وبين حظر تجول .. توقيت بغداد!".

- خبر هام يجري تناقله وتعميمه بين ناس الداخل..

- عيسى يشد انتباه الجميع إليه.

- .. إضراب عام عن العمل .. مفتوح ..

عيناه تتعلقان وجه أبيه. يضيف:

- .. يبدأ صباح غد.

"رد الفعل الممكن!".

إيمان تستوضح:

- يقتصر على الكويتيين؟!

إجابة عيسى حاضرة:

- وجميع المقيمين.

فضول شيرين يحفزها تسأل:

- ومن لا يلتزم؟

عيسى يجيب على الفور:

- يعامل معاملة العدو.

"رد الفعل الملزم!".

ضمن ظرف مركب التعقيد تصبح إرادة المغلوب أمضى حكما. إيمان تـتـنـ -

عيسى:

- من الذي أصدر أمر هذا الإضراب العام؟

الأخير لا يتردد يجيب:

- ناس الداخل.

إجابته كانت شاملة وملزمة في الوقت نفسه.

"إرادة المغلوب ضمن ظرف مركب التعقيد..".

رمضان يلفت انتباه عيسى إليه:

- مرافق الحياة الأساسية؟!

وعي عيسى بالسؤال. أجاب:

- تستثنى من الاضراب.

***

الوطن.. الاحتلال، وفي المقابل.. المواطن والمسؤولية. المواجهة.. ومن خلال لحظة موازنة قلقة تتبدى خطورة مسؤولية أن تكون..

وعي الحال بتناقضاتها القائمة والمحتملة. الموازنة القلقة بإدراك مقومات الذات الجماعية.

الخطورة القصوى لا تكمن في انبثاق الفكرة أو تعميمها - اضراب عام عن العمل، مفتوح - انما في وضعها موضع التنفيذ الممكن. "تسلم الأمانة" يوازنها إدراكك ان المسؤولية - ضمن لحظتها - ليست قصرا.

الاحتلال، الكويت.. التركيبة السكانية.. الجاليات، وأهمية التنسيق، ليس في الاضراب العام وحده.

أحمد الشريف.. الاسم، وفكرة سلطان تعود تلح عليه، كان التقاه نهارا وكان قد أضاع الفرصة.. لو أنه لم يعتزل نشاطه السياسي كليا!.. لو انه رعى جانبا من علاقات محددة!..

عيسى يواصل يقص أخباره. يحدثهم عن منطقة كيفان.. الأسطورة التي عجزت وحدات من عسكر الاحتلال عن اقتحامها.

ذهن سلطان ينصرف يلاحق أفكاره. ان كانت علاقاته السياسية قد .. فإن علاقات محمد صالح مازالت .. الذاكرة..اضاءة طارئة.

"المعارضون يعرفون بعضهم!".

***

التلفون، ومكالمته محمد صالح لم تستغرق وقتا.

- أحتاج أن اتصل .. أحمد الشريف .. جبهة ديمقراطية!.

صوته تضمن أهميته. أجابه محمد صالح:

- أعرف شبابا من الجبهة..

جملته مفتوحة على استطراده:

- .. لن نعدم وسيلة الوصول إليه.

ارتياح سلطان يشمله. ود يبدي عرفانه سلفا، لولا..

- .. سأوافيك بالنتيجة حالما..

***

ارتياح سلطان يشمله أكثرة. كان كمن أزاح حملا ثقيلا عن كاهله.. العمل لحظة تبدأه.

"مسألة وقت لا غير".

عاد يشارك الآخرين وجودهم. تنبه إلى إيمان تسأل عيسى:

- فكرة تقريبية عن حصيلة اليوم!.

رد فعل السؤال تقطيبة ألم تطبع وجه عيسى. لا يمسك زفرة باغتته. صوته يتحشرج مرارته:

- الشهداء الكويتيون لا يحصون.

وجوم ثقيل يهيمن على الجميع. مناخ الحزن بحضور عات. أن تفقد واحدا خسارة أما وأنت تفقد " لا يحصون"..

ضغط شعور الكارثة، وأشد منه ادراكك ان الكارثة قائمة الآن.. وان استمرارها

نظام بغداد، أساليبه، قتل جماعي.. أم حكم بإبادة عامة؟! الناس، الأرقام، اعداد الضحايا..

"عليك جأشك!.. هو يوم احتلال أول!".

***

- لعله يهمك تعرف!

ابنه عيسى يواجهه، يمهد لخبر مضاف، تذكر لقاءه أحمد الشريف نهارا:

- ".. لا أدري ان كان يهمك تعرف..".

استعد يسمع. كلمات عيسى تتعثر بلسانه:

- الشيخ فهد الأحمد..

عيناه تتعمقان عيني أبيه. أكمل بصوت متلاش:

- .. استشهد!

الخبر. التلقي وفي التو انطلقت صرخة مدوية ملتاعة عن وفاء ابنة شيرين.

- مات!!

قشعريرة مفاجئة تجتاح جسد سلطان. معرفته بالشيخ فهد الأحمد ليست شخصية، سبق التقاه مرتين عابرتين .. نشاط عام.

"الاجتياح .. استباحة لا تستثنى..".

لكن الذي أفجعه لا إراديا رد فعل الصغيرة وفاء.

"أني لها؟!".

وقتها بادرت إيمان وضحت:

- وفاء معجبة بالشيخ فهد

عدم كفاية التوضيح إذا أخذ مجردا، أتمت:

- تحبه بجنون!

***

مدارك وفاء – كما جزم سلطان – تعجز تواجه الخبر الفكرة. كانت على مشارف انهيار عصبي.

- ماما!!

صرخت بأمها تسترحمها تشاركها..

- .. الشيخ فهد مات!!

لينفلت منها زمام سيطرتها، تتداعى، تنخرط في عويل هستيري تصحبه تشنجات عصبية.

حالة من ذهول وقنوط تسيطر على الأم. كانت فوجئت، وكانت تتطلع إلى ابنتها بعينين مفتوحتين، وكأنها شيء منفصل عنها.

- شيرين!

رددت إيمان وقد حضرتها بديهتها، وأشارت بهاجس من فجيعة:

- البنت تقتل نفسها!!

تتنبه شيرين. تبدو كمن يطرد شبحا. تسارع إلى ابنتها تحضنها، باذلة جهدها كي لا تنهار هي الأخرى. الأم الكبرى تهرع بدورها. الاثنتان تتعاونان تحملان وفاء حيث الطابق العلوي. عويل الصغيرة يبدأ يخفت رويدا، ريثما يتلاشى.

مناخ من وجوم ثقيل يسيطر على الجميع. الحاج محمد يحوقل حائرا. إيمان تكفكف دمعة صامته. في حين بدا كل من سليمان وجعفر مأزومين لسبب يجهلانه

(11)

عيسى قال:

- في ساعة مبكرة من صباح اليوم علم الشيخ فهد نبأ اجتياح الجيوش العراقية للكويت. كان وقتها في منطقة الجابرية. ركب سيارته مصطحبا اثنين من رجاله، متسلحين ببنادقهم. كان قرر يسارع يشارك بالدفاع عن قصر دسمان.

يمان قالت:

- كانت وفاء في السابعة حين التقت الشيخ فهد للمرة الأولى، كانت ضمن فريق الزهرات، وكان احتفال مدرستها باليوم العالمي للكشافة.. كان الشيخ فهد - بصفته رأس الحركة الرياضية- ضيف شرف الحفل..

عيسى قال:

حين وصل الشيخ فهد قصر دسمان كانت قطعات من جيش الاحتلال توشك تحكم حصارها حوله، لتبدأ قصفه.

صمت برهة يحصر أفكاره.

- .. ما كان معروفا عن الشيخ فهد أنه يتراجع .. كان قرر يتصدى..

يمان قالت:

- لعل الشيخ فهد تبادل مع وفاء - خلال ذلك الحفل - بضع كلمات، أو وجه لها بعض الأسئلة مصادفة..

تصمت برهة تحصر أفكارها.

- ربما..

حتزت ما في ذهنها، واصلت:

- .. شخصية الشيخ فهد انطبعت في مخيلة وفاء، لتصبح تفصيلات حديثها ذاك موضوع ثرثرتها المفضل.

عيسى قال:

معركة لا يمكن تكون متكافئة. أفراد معدودون بعتاد محدود يواجهون جيشا بعتاد.

لهجته تفصح عن استنتاجة:

- فكرة التصدي للدفاع – وسط ظرفها ذاك – فكرة انتحارية.

يضيف بتسليم:

- .. لكنه الشيخ فهد!

إيمان قالت:

- بعد أشهر من تلك المناسبة جاءت مصادفة اختيار وفاء ضمن وفد زهرات يزور الشيخ فهد في مقر اللجنة الأولمبية..

يتلون صوتها حنان أم:

- وفاء ذكية وجريئة. عرفت تتبادل مع *الشيخ* فهد حديثا مباشرا، لعلها ذكرته بزيارته مدرستها. أقدمت بعدها طلبت منه صورة شخصية مذيلة بتوقيعه.. إلى ابنتي النبيهة وفاء..

عيسى قال:

- وحدات جيش الاحتلال استخدمت الدبابات والمدافع الثقيلة..

يتلون صوته اعتزازا يخالطه أسى:

- .. حين أدرك الشيخ فهد أن لا مناص .. أمر من معه بالانسحاب، مؤثرا الاستشهاد خلال تأمينه عملية انسحاب مرافقيه.

- تبقى الأمور محصورة بحدود فضول طفلة.

قالت إيمان، استطردت:

- لتفاجأ شيرين ذات يوم بابنتها وفاء تطلب الشيخ فهد بالتلفون .. "أريد أكلم بابا فهد!"

عيناها تلوحان ابتسامة اسيانة.

- لا أحد يعرف كيف واتتها جرأتها ، ولا أحد يجزم كيف حصلت على نمرة التلفون الخاص بالشيخ فهد..

ابتسامتها الاسيانة تتعمق عينيها.

- .. وعندما شرعت شيرين توبخ وفاء جرأتها، أفادت الأخيرة انها ليست المرة الأولى

عيسى قال:

- شباب كويتيون تعرفوا على جثمان الشهيد .. سارعوا أخفوه عن عيون عساكر الاحتلال..

يعود يحدق إلى أبيه في عينيه.

- المؤلم.. أن الشيخ فهد كان قد تطوع - في وقت ليس ببعيد - مشاركا في معركة الفاو!.

إيمان قالت:

- كانت وفاء وضعت أمها أمام أمر واقع..

وقالت:

- الشهيد - بصفته شخصية عامة - ما كان يبخل بدقائق من وقته.

تصمت لثوان، تستجمع كلماتها.

- المعضلة .. وفاء أحلت الشهيد في قلبها محل أبيها الذي لم تره منذ سنوات..

صوتها حافة انتحابها:

- لهذا .. كان نبأ الشهيد فجيعة شخصية لها.

***

ليوم فقط - بعد كل سنوات العمر والخبرة - يبدأ سلطان يتعلم أنماط عواطف وانفعالات وصيغ ارتباط ذات خصوصية عامة.

- "كنت قاسيا مع أعمامي!".

كان ابنه عيسى بدأ حديثه عند دخوله لينهيه عند خروجه:

- اذهب إلى منطقة السرة، اطمئن على هدى وموسى.

عنّ لسلطان يخبره:

- "اخت سهى سبقتك".

لكنه آثر لا يحرم ابنه حق أخوته.

- خذ حذرك!

تـخلت إيمان نبهت، أضافت:

- ربما كانوا جادين في أمر حظر التجول!

ضمير الجماعة الغائبة يعود على سلطات السيطرة.

- تنفيذهم أمرهم..

أجابها عيسى بإقرار، واصل باستنتاج صريح:

- .. يقتضيهم اعتقال نصف سكان الكويت.

***

قبل عقود من السنين، أيام كان سلطان طفلا لم يبلغ العاشرة بعد، اصطحبه أبوه في رحلة إلى العراق.

سيارة الفورد على عهدها، واجتياز الصحراء، عبور الحدود ما بين البلدين، وصولا إلى البصرة، ومنها .. كان ركوب القطار إلى بغداد.

ذهول سلطان إزاء ما يدعى قطار. مرة أولى.. وهذا الكيان الحديدي الاسطوري الصوت .. الحركة .. المسافة..

رحلة الليل والنهار. انبهار سلطان بالعاصمة بغداد. الشوارع. الأسواق. المباني. فات ما لفت انتباهه ذلك الجسر العملاق الذي ينشب ضفتي نهر دجلة.

عصر الملكية.. بساطة الناس.. دأبهم تحصيلهم رزقهم. فارق الغنى عن الفقر وعفوية تعامل تضمر اعتيادا مطمئنا.

في منتصف الستينيات توفرت لسلطان فرصة يزور «عراق - بغداد» مرة أخرى

فوجئ بالحياة غيرها جدا. عراق الثورة والانجازات. عراق الشعارات. وبلا الشك ينتظم عامة العلاقات، في وقت انتشرت نقاط السيطرة، كما أعتقد لتحكم حركة الناس وهوياتهم.

الريبة والقلق يصحبهما خوف مسلط، رغم الزيادة الملحوظة لعدد الجسور تربط ضفتي دجلة.

تفاصيل ذلك الزمن باقية في الذاكرة ما زالت، هينّ على سلطان يرجع إليها، يتذكر دقائقها، وصعب عليه - حد الاستحالة - يمسك بالزمن المعلّق.

هناك انحدار عات إلى هاوية لا قرار لها، وهناك من يصر يربط الكويت إلى عجلته الداوية.

يدري .. أن دمارا شاملا سيحل، يدري أن الكويت ستكون بمنأى، ويتمنى أن لا يتدمر العراق عن آخره.

- استشهاد الشيخ فهد الأحمد..

قالت شيرين. كانت هبطت من الطابق العلوي. عيناها المحتقنتان تؤكدان مشاركتها ابنتها فجيعتها، أتمت:

- .. سيكون وصمة عار في جبين نظام بغداد!

ندت عن إيمان ضحكة قصيرة دالة.

- لدى نظام بغداد من الوصمات ما يكفيه .. وزيادة!

***

مرور ساعة منذ مغادرة عيسى، ومن ثم عودته تصحبه أخته هدى وأخوه موسى. "بادرة.. وشعور سلطان أنه يحب ابنه عيسى أكثر من أي وقت مضى. الظرف، "لمة، وها هي ابنته هدى تطير إليه تحتضنه. في السادسة عشرة من عمرها، لكن ضآلة جسدها جعلتها تبدو طفلة كبيرة. وجهها بملامح وجه أبيها، عدا شعرها "غاحم ولون بشرتها النبيذي.

موسى واقف ينتظر دوره بالعناق. في الثانية عشرة. جسد متين. شعر أكرت. بشرة محروقة. عينان سوداوان لامعتان.

ثلاثة أولاد وابنتان.. حصيلة لثلاث زيجات فاشلة، ويدهشه أنهم ينتمون إلى بعضهم بحميمة تفوق حميتهم تجاهه.

- لأن زوج أمهم خارج الكويت الآن..

فاد عيسى مبررا، استطرد:

- ولأن أمهم نهب لقلق متوتر..

سلطان يتطلع إليه، يستمع.

- نصحتها تلتحق.. ببيت أهلها، وجئت بهدى وموسى هنا.

ابتسامة عرفان تأخذ فم سلطان.

- حسنا فعلت.

"اللمة البشرية في ظرف داهم..".

***

ليلة أولى، وحالة استثنائية لم تكن تخطر ببال سلطان.

"الكويت ما عادت!!".

المحتلون يهيمنون. الحكومة الكويتية - بمن وفق يفلت من بطش الغزاة - أخذت تلتم على بعضها البعض في المملكة العربية السعودية.

أخبار الاعتقالات والقتل الجماعي والإعدامات والتدمير، وكذا أخبار مقاومة كويتية بطولية تسري بين ناس الداخل.

"الكويتيون يعرفون بعضهم".

ومن جانب آخر هناك أخبار تبعث على المرارة:

"عساكر الاحتلال صادروا حاضنات الأطفال من المستشفيات الكويتية، مما تسبب في ..".

".. استولوا على الأجهزة الطبية الحساسة من غرف العناية المركزة. فكان ان ..

".. فتحوا نيران بنادقهم الرشاشة على شيخ في الثمانين من عمره، لأنه شتم الرئيس حين اكتشف جثمان ابنه وسط كومة من أجساد قتلى كويتيين في مستشفى مبارك".

خبر يدعو إلى الاستغراب:

"سلطات الاحتلال أطلقت سراح مساجين العهد القاروني المباد كافة، من محكومين عتاة وغير عتاة - دون تفريق - يسرحون ويمرحون".

خبر بالمثل:

"السلطات إياها فتحت أبواب مستشفى الأمراض العصبية والنفسية بمحكومين بمستوياتهم المتفاوتة يتشردون..".

أخبار تدعو .. كيف؟!

"حديقة الحيوانات بزمام فالت. القردة تنتشر على سطوح منازل منطقة العميرية، الحيوانات الأخرى مؤهلة تجوب..".

"الخيول في نادي الفروسية لاتجد من ..".

"الأغنام الحية التابعة لشركة المواشي.. لأن البطش الذي يغفل عمالا من جنسيات آسيوية..".

حين تغتصب كيانا عاما .. الثورة المؤزرة التي أرادها النظام العراقي لها أحكامها..

***

ليلة أولى، وحالة استثنائية لم تسبق، كانت إيمان قالت:

- احتمال غارات جوية..

ولأن منزل سلطان بلا سرداب كانت قررت:

- الجميع ينامون في الطابق الأرضي .. بعيدا عن النوافذ!.

زحمة العدد والمساحة الممكنة. الفرش تكاد تتلامس. ليتا - وحدها - انزوت .. غرفتها الصغيرة الملحقة بالمطبخ خارج مبنى المنزل.

النوم احتياج جسدي. الجهد النفسي المترتب على ما هو عصيب .. ويبقى الاغفاء حالة مستعصية.

بعد منتصف الليل بقليل تبدد السكون برنين جرس التلفون. التوقع حاسة لا بد منها. هاجس القلق، ومن ثم تبادل نظرات تسأل بعضها. إيمان كانت الأقرب إلى التلفون. رفعت السماعة.

- آلو!

عيون الجميع تنشد إليها. انطباع بالاطمئنان يطوف في وجهها.

- محمد صالح!

قالت لسلطان مخبرة، وهي تشير إليه يتسلم مكالمته.

***

- عرفنا نصل إلى أحمد الشريف.

صوت محمد صالح يواصلة بوازع الإنجاز:

- .. هو على استعداد يلتقيك في الزمان والمكان اللذين تراهما..

"فهم الدور جزء من المشاركة به".

ود يشكر محمد صالح على سرعة تلبيته.

- .. تسهيلا للأمر..

محمد صالح يختزل مكالمته. يختم:

- .. إليك نمرة تلفون منزله.

***

شعورك جانب ارتياح. الطريق إزماع خطوة أولى.. مشروع الفعل من خلال الأقد ء فيه. ولأن الوقت جاوز منتصف ليل .. إقدام الاتصال .. أحمد الشريف.. صباح غد

الإذاعات ومتابعة الأخبار ما عادت مبعث لهاث. ردود أفعال متفاوتة.. الأثر المصيري الملح أن تجيء الترجمة أفعالا.

خلود قسري لسكون معبأ بتوقعات متواترة لا حصر .. وعسى يتمخض نهار غد التالي عن بارقة..

تراص الفرش، ولست تجزم أن الآخرين يغطون في نومهم. دوي مكيف الجو وصدى نشيج مكتوم يصدر عن وفاء بين آن وآن.

- ".. لهذا كان نبأ الشهيد فجيعة شخصية لها".

النوم حالة مستعصية، وخلود قسري لصمت معبأ.. كان سلطان قرر ينسل من فراشه. الهروب من المكان .. يغادر .. حيث حديقة منزله.

***

الظلام وهدأة أشجار الحديقة، في حين توالت أصوات رشقات رصاص على بعد

«أنّى للكويت تنام؟!».

الهواء بآثار عالقة من الرطوبة والريبة.

«ليل الاحتلال غيره عن ليال أخرى!».

ليس الليل وحده، الطبيعة برمتها، الأحداث، الناس، سلطان ذاته يقر أنه غيره البارحة.

الزمن حالة امتداد تربط الأمس بالغد. الزمن الآن في حالة عزلة منقطعة ومعلقة في الوقت نفسه.

- سلطان !

صوت شيرين يهمسه. رآها تقترب. خطواتها لينة. تضمخته ألفتها. ابتسم بامتنان. واصلة صوتها:

- هل هناك ما يقلقك؟

اهتمامها حنان أنثى دانية، تداعت في داخلة ابتسامة اسيانة. أعاد صياغة سؤالها:

- وهل هناك ما لا يقلق؟!.

أحسها قريبة منه.

- لعله خلافك مع أخوتك؟!

تفاجأ بها عرفت تتذكر. لم يجد إجابة محددة.

- فهمت من حديثكما .. أنت وعيسى..

عادت قالت، أضافت:

- انك كنت قاسيا معهم!

ندت عنه ضحكة مبتورة خافتة.

- أو العكس.

حدقت فيه مندهشة. أحسها قريبة إليه. ود يكاشفها:

"اختلاف نهج!!".

سحب لصدره نفسا عميقا. احتفظ به.

- ان كان على اخوتي وحدهم..

أبقى جملته الاشتراطية مفتوحة. صمت لثوان.

- قطيع مترام من خراف بيض..

لهجته منحى القص. واصل:

- .. وخروف واحد أسود..

يعود إلى ضحكته المبتورة. يختم:

- أنا.

لا تشاركه ضحكته ذاتها. يحسها تحدق إليه في عينيه تسبره.

- لست وحدك!

***

ليل احتلال وأنت. شيرين كانت انسحبت بعدما ارتأت عليك تأخذ قسطك من النوم. ضرورة الأشياء بزخم الاحتياج. تنام لتستيقظ، ثم..

لوحة سريالية بألوان متنافرة شتى، آلاف من خطوط، تشتبك، تختلط، تتداخل، تلتحم، تتفرق.

تعرف عن الزمن .. حالة امتداد لامتناه يتشكل بارتباطه وحداته. في حين أن الزمن الآن..

(12)

الاحتلال. يوم تال.

اليوم الجديد جديد بما يتخلله من أحداث كبرى أو كبرى، أخبار.. محاولات للتكيف أو التصدي.. لا فرق.

كيفان باقية صامدة، أنباء بطولات وانضمام متطوعين كويتيين من مناطق قريبة، إضافة إلى عرب آخرين.

اعداد من ضباط الجيش والشرطة، وكذا الأفراد، تبدأ تنظم أعمال مقاومة مسلحة، متخذة مباني المدارس داخل المناطق الكويتية مقرات قيادة لها. مستفيدة من خلوها جراء العطلة الصيفية.

أعداد غير محددة من المدنيين الكويتيين - سكان المناطق - تنضم إلى العسكريين.. أعمال مقاومة.

الإذاعة الكويتية الطارئة التي انبعثت في الداخل - بصفتها بديل الإذاعة المعتادة - صمت، عساكر الاحتلال كانوا قاب قوسين.. اكتشاف موقعها.. جرى فك الأجهزة ذات الطبيعة النقالة، والهرب بها إلى أحد منازل سلوى، بهدف محاولة الاستفادة منها في الخفجي.. أو أي مكان في المملكة العربية السعودية .. كانت لا تسمع في الداخل بوضوح. بسبب كثافة التشويش الموجه من جانب محطات مخصصة أقامها النظام العراقي داخل أراضيه. ليشمل هذا التشويش، بعد ذلك، كافة محطات الإذاعة العربية والأجنبية التي أوضحت موقفها الرافض لاحتلال الكويت.

***

معادلة الحياة والموت».

جنود الاحتلال يقتحمون المنازل لأيما شبهة، ومن دونها، حتى إذا ما غادروا خلفوا فجيعة.

متعة لمن اعتبر».

جثة من البيوت اقتحمت. نهبت. دمرت، فان جرى وضع اليد على كويتي. حتى.. إلى مكان مجهول.

محطة إذاعية كويتية حرة فتية».

وفي الوقت ذاته مطلوب اسكات أي مظهر.. كل مظهر..مقاومة مسلحة، أو غير مسلحة.

«ايها الكويتيون الميامين.. مجلس قيادة ثورتكم التحريرية الظافرة ينظر بعين الاعتبار لمظاهر احتفائكم بانتصار ثورتكم..».

الإضراب العام بدأ .. موضع التنفيذ.. الاصرار الذي جرى تداوله..سيكون اضراب مستمرا.. ولحين زوال الاحتلال.

الإذاعة الناطقة بلسان نظام بغداد، وكذا قناته التلفزيونية يواصلان يناشدان بنغمة من وعيد:

«.. وأن مجلس قيادتكم يهيب بكم.. مبادرتكم إدارتكم مرافق دولتكم في عصرها الجديد الزاهر».

***

كان الوقت صباحا عندما أجرى سلطان مكالمة تلفونية..

- الأستاذ أحمد الشريف!

- أهلا وسهلا!

رددها أحمد الشريف بترحيب لدى معرفته صوت سلطان.

- بودي لو نلتقي!

قال سلطان مصرحا عن رغبته، لتأتي استجابة محدثه سؤالا:

- متى؟!

الأحداث بتسارعها. مطلوب منه يكون على مستوى استجابة الآخر.

- الآن.. إن أمكن!

***

استدلاله المبنى حيث يسكن أحمد الشريف. منطقة السالمية - "الراس".

- "حياك الله!"

فوجئ بمضيفه ينتظره عند مدخل المبنى. شدّ يده بمودة.

- من كان يظن؟!

ردها أحمد الشريف باستغراب رافض يشمل الحدث المهيمن. وافقه سلطان إيماءة من رأسه. لترد ذهنه:

"الحدث .. والأهم .. كيفية التصدي!".

وهما في المصعد عاد مضيفه يردد بحيرة كامدة:

- ما الذي جرى لأمتنا هذه؟!

***

دخولهما المنزل. جلوسهما.

- أيا كان موقف هذا النظام العربي أو ذاك..

قال سلطان دون تمهيد. وتذكر يتوخى دقته:

- .. سواء اتضح بالكامل، أو ما زال في مرحلة اختيار جهة الانحياز.

تحريه كلماته واحساس حاضر بالمسؤولية يثقل عليه كاهله. يضغطه من صدره. ما كان أحد كلفه أو أشار عليه. كان نأى - منذ سنوات - عن كل ما يتصل بالسياسة، لكنه الحدث المهيمن..

- أيا كان موقف هذه المنظمة، أو ذاك الفصيل..

مضيفه يصغي إليه كله.

- .. من واجبنا نحن..

وهو يتلفظ كلمة "نحن" أحس بالمسؤولية تحفزه أكثر من كونها تثقل كاهله.

- .. بصفتنا شعبين.. كويتي وفلسطيني.. ارتبط مصيراهما بهذه الأرض..

يشركه مضيفه نظرة متفهمة.

- .. أن ننسق مواقفنا بما تمليه علينا مصالحنا الحيوية..

تخاطب السياسي بمفرداته.

- .. ووجودنا المشترك.

مضيفه يعقب:

- أوافقك فيما قلته.

يكمل متسائلا:

- ما المطلوب مني بالضبط؟

"مطلوب .. وبالضبط!!".

رد فعل سريع مثل هذا لم يرد في ذهن سلطان. ضرورة ما هون شخصي.. لكن المسألة أكبر.. لو أن السؤال:

"ما المطلوب منا؟".

ولم يتردد سلطان يفصح عن حيرته:

- بالضبط؟.. لا أدري!

ابتسامة حزينة مشاركة تأخذ وجه مضيفه. سلطان يبحث عن مؤشرات.

- التشاور والتنسيق ضرورتان يقتضيهما الوضع.

أحس نفسه يكررها. رغب يكون أكثر تحديدا.

- لدينا - على سبيل المثال - فكرة الاضراب العام.. كذلك ..

- اسمع .. أخ سلطان!

قاطعه أحمد الشريف. شعر سلطان بالكلفة تفرض حالها، وتنبه يسمع.

- .. الفلسطينيون الموجودون في الكويت..

لهجة محدثه تنحو نحو مكاشفة حادة.

- .. يعرفون تمام المعرفة .. لا ثورة ولا هم يحزنون.

"لا اختلاف!".

أحمد الشريف يواصل بمكاشفته الحادة ذاتها:

- .. ويعرفون أن أمورا أخرى.. حيكت، وما تزال تحاك ما وراء الكواليس - مرآى من الاشهاد.

هامش حزن عميق يبدأ يتخلل صوته:

- .. والفلسطينيون - طوال سنوات تشتتهم وتشردهم - وقعوا بين طرفي - - اليسار العربي ويمينه.

حزنه طابع مرارة.

- .. هذه الكماشة - الآن بالذات - تطبق على أعناق الفلسطينيين بقسوة، يحسها الفلسطينيون وحدهم.

يكف فجأة. لعله شعر أنه أوغل أكثر مما يجب.

- اعذرني!

رددها صادقا، أضاف مشاركا:

- .. نسيت انكم - الآن - فلسطينيون آخرونه!

يشاركه سلطان ابتسامة واهنة.

- اسمع يا سلطان!

كان تخلي عن جانب من حزنه. المكاشفة ضمن مستوى آخر. ارتياح زوال الكلفة، وشعور الألفة.

- ان كان علي كفرد..

يؤكد كلماته:

- .. أنا تحت تصرفكم!

***

ن كان على الاستجابة الفردية.. فهي لا تكفي. شعور سلطان بالاتياح والألفة لا يكفي في البال مشروع عمل غير واضح المعالم بعد، وفي البال..

- «الأخ كويتي؟».

- "إن شاء الله!"

جندي العراقي يكتفي يرفع حاجبيه مدللا دهشته إزاء إجابة الآخر، قبل إزماعه صبه:

- "هويتك!".

خط السيطرة ومفارز التفتيش التي خص بها الاحتلال العراقي الكويت تتوالد ض بعضها، لتتواجد عند كل مفترق وزاوية.

- "ن كانت عندك علبة سجائر!».

عتيد .. صاحب الحاجة موقع ضعف.. القاعدة لها شواذها، حتى متى؟!

- "من أين اشتريت ساعة اليد هذه؟".

- الكويت.

مفارز تفتيش. وحدات دورية محمولة. بلدك تعج بهم.

"مسألة دفع الثمن.. كيف ؟!".

القاعدة والشواذ. الزمن .. عجلة التاريخ .. الدوران في وضعه العكسي.

"من يحمل وزر ماذا؟!".

***

المذياع وارتباطك اللحظوي به.

"دول مجلس التعاون الخليجي، مصر، سوريا.. تعلن عن استعداد باستضافة [illegible] كويتية *تصادف* وجودها *خارج الكويت*..".

- "نسيت انكم .. الآن .. آخرون!".

"الصور الملتقطة عبر الأقمار الصناعية توضح.. نظام بغداد يدفع بالمزيد من قوا[illegible] المعززة بمئات دبابات وحاملات جنود وصواريخ ومدافع ثقيلة باتجاه الحد[illegible] الكويتية السعودية".

لعل ثورة تحررية مظفرة أخرى!

"الرئيس الأميركي جورج بوش يصدر بيانا صارما يحذر فيه النظام العراقي من [illegible] الاقدام على غزو المملكة العربية السعودية".

الأمور ليست من فراغ.

" نفى ناطق عراقي رسمي نية التعرض - من بعيد أو قريب - لأراضي [illegible] الشقيقة المملكة..".

"الأوضاع داخل الكويت ما زالت محاطة بالغموض.. هذا وقد أفاد [illegible] السعودية.. أن جنود الجيش العراقي يمارسون أبشع.. أفظع..".

المذياع وارتباط لحظوي..

"رئيس النظام العراقي يعلن عن استعداده للقاء أمير الكويت في غضو[illegible] لبحث أمور معلقة، ويؤكد عن استعداد بلاده لسحب جيوشها بدءا من [illegible]

وكالات الأنباء والإذاعات لدى تناقلها نبأ استعداد لقاء وسحب جيوش لم تشر إلى كيفية سحب ثورة تحررية مؤزرة، واستعادة عهد قاروني مباد.

"المراقبون السياسيون يتوقعون..".

نقطة سيطرة.

***

الاحباط، اليأس، القنوط.. التسليم يعني مراوحة في المكان. التجاوز محاولة عبور إلى الفعل.

- علينا نجد وسائلنا!

كان أحمد الشريف اقترح على سلطان:

- اعرف رفاق خط ثان.. قيادات محلية .. فصائل منظمة التحرير الفلسطينية.. هنا. ان شئتم..

ضمير الجماعة بدلالة لا تقتصر على سلطان، وتتعداه على الكويتيين عامة، كاد سلطان يجزم:

- "نحن نصر!".

احمد الشريف يكمل:

- علاقتي الشخصية بهم ترقى إلى مستوى الثقة المطلقة..

"الوضع بطبيعة تقتضي..".

- سأحاول .. بالسرعة الممكنة أجري اتصالات بهم..

إصغاء سلطان يتواصل مشوبا توقعا لاهفا.

- .. أرتب موعد اجتماع.

خطوة أولى.. أحمد الشريف شد أزره. خطوة أولى مطلوب من سلطان يكون مستعدا، عارفا، قادرا يواجه احتمالات طارئة.

- لن أقول .. شكرا!

هدف يعبر عن امتنانه تجاه مضيفة. الأخير يربت يده مطمئنا. يعقب بعتب مشوب ودا:

- الكويت ليست وقفا على الكويتيين!

***

الإذاعة الكويتية الناطقة بلسان بغداد، وإذاعة بغداد:

"أيها الكويتيون الشرفاء، أيها العراقيون البواسل.. مرسوم صادر عن مجلس قيادة الثورة للجمهورية الكويتية الفتية..".

أنت ازاء أعلام متميز. بالتالي لا تملك حقا تتساءل: كيف يصير التخصيص تعميما؟

«.. بناء على ما تقتضيه مصلحة الشعبين الشقيقين - الكويتي والعراقي - ومن تطورهما الحضاري التاريخي، وتسهيلا لشؤون حياتهما العامة رسمنا بما هو آت مساواة الدينار الكويتي بالدينار العراقي، على أن يجري العمل بهذا المرسوم اعتبارا من فجر هذا اليوم..».

المساواة بين عملتين، بقوة شرائية متفاوتة، تعني إحداث دمار إحداهما.. حسن نية قومية؟!.. أم أنه منطق البقاء للأضعف؟!

«.. على المصارف الحكومية والأهلية في القطرين الشقيقين تنفيذ ما ورد أعلاه».

إن كان دمجا لعملتين تمهيدا لدمج لاحق فقد وفق نظام بغداد كسب ثلاثة محتملين.. من غير الكويتيين - ممن اعتادوا ودائعهم بالدينار الكويتي.

قوة العملة بقوة النظام.. بناء.. قفزت أسعار السلع عشرة أضعاف، لكي يتساوى الدينارين الشقيقين بعضهما البعض.

«..ليكن في علم أولئك التجار الجشعين مرضى النفوس.. خائني مبادئ الثورة الذين انتهزوا الفرصة وأخذوا يتصيدون في الماء العكر، مستغلين رحمة مجلس قيادة..».

الاذاعتان الناطقتان وقد زفتا مرسوم مساواة الدينارين، عادتا ذيلتاه بإذاعة ينذر:

«.. إن التلاعب بأسعار أقوات المواطنين الشرفاء دون وجه حق.. وإن طويلة.. قادرة على..».

***

الاحتلال أمر واقع. ووكالات الأنباء:

«جيمس بيكر، وزير خارجية الولايات المتحدة الأميركية، ونظيرة شيفاردندزه، وزير خارجية الاتحاد السوفييتي. يصدران بيانا مشتركا يدين غزو النظام العراقي لجارته الكويت، ويطالبانه بسحب فوري لجيوشه، والعودة بها إلى ما وراء..».

إذاعة بغداد. رد فوري. إدانة البيان المعني.

«.. وحري بأولئك الحريصين على السلم العالمي.. الكيان الصهيوني واحتلاله غير العادل لأراضي عربية منذ عشرين سنة ونيف. ناهيك عن تشريد شعب منذ أكثر من.. عدا.. الجماهير العربية وحكوماتها القومية تشجب كل شكل، وأي شكل من أشكال التدخل الأجنبي في شؤونها الداخلية..».

الحدث وتفاعله على مستويات دولية:

«تعلن كل من بريطانيا وفرنسا وبلجيكا ولوكسمبورغ عن تجميدها للموجودات والأرصدة الكويتية داخل أراضيها..».

كف يد النظام العراقي عن التصرف. واستعداد بغداد:

«يتذكر أولئك الذين أقدموا وجمدوا .. عراق المجد والكرامة.. وكذا جمهورية الكويت الفتية.. المعاملة بالمثل .. ناهيك عن ..».

مزيد من تفاعل الحدث على المستوى الدولي:

«أسبانيا، البرازيل، النمسا.. إدانة الغزو، ومطالبة النظام العراقي سحب قواته فورا دون شرط».

تفاعل على مستوى الحدث.. إذاعة بغداد:

- الجماهير الكويتية الأبية تبعث بآلاف برقيات التهنئة والتأييد لمجلس قيادة الثورة، وتبدي استعدادها المطلق لحمل السلاح دفاعا عن منجزاتها الثورية، وإليكم قراءة لنصوص.. وليخسأ الخاسئون».

***

- خلال غيابك عن المنزل..

تطلع إلى إيمان، سمعها تستطرد:

- .. اتصل محمد صالح، قال إنه بصدد محاولة نقل حمولة جديدة .. مخزون مواد غذائية من مخازن الشركة لهنا.

يومئ برأسه موافقا بتسليم. تواصل بما يعني الأهمية:

- هذا الأمر يقتضينا نفكر جديا بكيفية التخزين.

يعود يومئ برأسه. يصله صوت شيرين:

- أخوك عبدالمحسن اتصل يسأل عنك.

يواصل يومئ، يكتفي يسمع. تتم بما يعني اعتدادا خفيا:

- اخوتك، هلال ، مصطفى، أسعد.. أيضا.

***

الاحتلال – رضيت أم أبيت – حالة قائمة. معاناتك ذهولك – في البدء – حالة لـ ما يبررها وقتها، وما بعدها.. أنت مسؤول.

المسؤولية، هنا، ليست واجبا معلوما يتحتم عليك تنهض بأعبائه، أو تتطوع لـ لكنها مهمة أن تفكر. تبتدع. تتحرك. تتنفذ.

ما كانت – في أيّما يوم مضى – راودتك فكرة تصير مسؤولا تُبقي نفسك حيا. لـ تمنح حياتك جدوى موتك.

(13)

منطقة كيفان. البطولة الاسطورية باقية. يصعب عليك تصدق.. ويصعب عليك أن لا تتعزز بطولتها بتمخض ردود الأفعال العربية والدولية عن تدخل عسكري يعيد الأمور إلى ..

"قوات الاحتلال ما زالت عاجزة عن اختراق دفاعات الكويتيين..".

"عدد الأسرى من جنود العدو جاوز مائتين".

"كيفان المحررة. أهالي المنطقة يلتفون حول المقاتلين. يشدون أزرهم يتوزعون مهام الإسعاف والتموين".

أخبار كيفان الداخل تستحوذ اهتمام ناس كويت الداخل.

"متطوعون من جنسيات شتى. عربية وغير عربية يشاركون الكويتيين مهمة الدفاع عن..".

من جانب آخر:

"عساكر الاحتلال تطوّق منطقة كيفان من جهاتها كلها. تعزلها عن المناطق المحيطة. تمنع الدخول والخروج".

كم هائل من التوتر القلق. وسؤال حائر عاجز حاقد في الوقت نفسه:

"تدخل عسكري خارجي.. متى؟!".

***

"خبار - بدت وكأنها مسمومة - تجري تناقلها بحذر:

"بعض أفراد الجالية الفلسطينية يعملون بأمرة العدو..».

بعض الأفراد .. تطوعوا ساعدوا جهاز الاستخبارات العسكرية العراقية بالاستدلال عن عناوين مسؤولين وكبار ضباط كويتيين..».

كيف يجيء التخصيص في مثل هذا الظرف؟!.. لأنها أكبر الجاليات؟!.. لأن موقف عدد من مسؤوليها في الخارج؟!.. لأن طابع شعارات نظام بغداد:

«تحرير الكويت وبعدها القدس».. «طريق تحرير القدس يمر عبر الكويت»؟!..لأن العدو يهدف يدق أسفينه؟!.. تساؤلات متواترة، ولا تعدم من يؤكد ذلك:» عدد

من الشباب الفلسطينيين يشارك الكويتيين دفاعهم عن منطقة كيفان.. جرحى وشهداء..».

الأمور لا تؤخذ على عواهنها.

***

«مجلس قيادة الثورة لجمهورية الكويت الفتية «تعبير طلع به إعلام الاحتلال على ناس الكويت.. الأوامر، البيانات، المراسيم.. وقبل أن تتوافر لهم فرصة هضم المعنى طلع عليهم بتعبير مرافق: «الحكومة المؤقتة لجمهورية الـ..».

المجلس مجلس الكويتين، والحكومة حكومتهم.. المفارقة العجيبة تتمثل في أنهم آخر من يعمل.. المفارقة الأشد .. لم يتعرفوا على أشخاص ولا أسماء ولاة أمورهم الجدد.

خشية عار الانكشاف؟!.. أم عار عن الصحة؟!.. حين تصنع حكومة مجهولة.. عليك أن تحكم شعبا مجهولا.

***

النظام العراقي .. صناعة الخبر تمهيدا لصناعة الحدث. النبأ الذي تناقله ناس الداخل بجزع:

«رجال استخبارات العدو .. استدلوا على بعض رموز معارضة كويتية من بين الباقين هنا، اقتادوهم معهم».

نبأ لاحق:

«استضافوهم قسرا في فندق شيراتون الكويت».

واقع حال ما دار هناك بدءا..

- بدءا..

مهد ضابط عراقي عالي الرتبة لحديثه بثقة دالة، لافتا اهتمام المعنيين الكويتيين إليه، واصل:

- نرحب بكم، ونبارك لكم نجاح ثورتكم التحررية، وتخلصكم وإلى الأبد من الطغمة القارونية، وقد عاثت..

وقتها ما كان المعنيون استعادوا حضورهم الذهني بعد، اثر المصادرة المفاجئة التي عرضت لهم.

- .. وإن كان عراق المجد بقيادة السيد الرئيس القائد حفظه الله تصدى لمهامكم الوطنية الملحة نيابة عنكم فهذا لا يعني..

المعنيون الكويتيون بحضور ذهني كاف لمتابعة ما استهدفوا له.

- .. بناء.. حري بكم أن تبادروا تنهضوا بمسؤولياتكم التاريخية. تتولوا شؤون بلدكم، ولن نبخل عليكم بالنصح والمشورة والمساعدة..

ينقل نظراته على وجوه الحاضرين.

- .. واهم من هذا كله.. أن عراق الثورة لن يبخل عليكم بالحماية، ولن يتخلى عنكم، مهما كان حجم الأخطار التي تتهددكم.

- كما سمعنا من الأخبار..

عنّ لأحدهم يوضح معقبا:

- .. هناك مجلس قيادة ثورة كويتي وحكومة مؤقتة كويتية.

المعنى الذي يتبادر إلى الذهن.

"لا مكان لنا من الاعراب».

المعنى الآخر .. كان الضابط العراقي ابتسم بتفهم.

- لكي نقطع الطريق على نهازي الفرص فيقولون عن مبادرتنا التاريخية انها شكل من أشكال التدخل في شؤونكم الداخلية..

يعود ينقل نظراته على الوجوه.

- .. وحتى لا يقال انكم تخلفتم عن أداء واجبكم القومي التحرري..

متابعة الإصغاء تعني الاستيعاب.

- .. وحتى يكون تطور الأحداث طبيعيا مقبولا فعلا لدى الرأي العام العربي والعالمي، ولأن قيادتنا الحكيمة أعدت فاتقنت..

ابتسامته ترتسخ فمه.

- .. كان لابد من استباق الحدث بالإعداد له.

عنّ لأحدهم يعقب موضحا:

- نفهم من هذا ..

يقاطعه الضابط وقد فهم ما ينوي قوله:

- حتى الآن.. ليس من تشكيل فعلي لمجلس قيادة ثورة كويتي، ولا لحكومة كويتية مؤقته.

يبتسم كمن يعتب الآخرين قصور فهمهم، يذكّر:

- دلالة المعنى من دلالة الاسم.

يضيف من موقع شعور مستمعيه بالمسؤولية:

- .. أنتم تتولون تشكيل المجلس والحكومة .. ولكم الاستعانة بمن ترونه مناسبا ممن لم تسعفه فرصة .. يحضر اجتماعنا هذا..

***

"القائمون على النظام العراقي .. كيف يفكرون؟!".

سؤال محير احتل أذهان الرجال الكويتيين ممن جيء بهم مصادرة، يجتمعون قسرا.

"أن تطلب مهلة للتفكير.. يعني إنك موافق بشكل ضمني".

يفاجئك من يحتل وطنك، القتل والتدمير والاستباحة، معلنا قيامك ثورة تحرير لا تبقي ولا .. ولا تتوافر لك فرصة تفيق من ذهولك.. يشكلك مجلس قيادة ثورة وحكومة مؤقتة لجمهورية فتية. ولا تتوافر لك فرصة.. ليستجلبك .. يجمعك به بحكم السلاح.. يرتئي عليك..

- لا.

كان اجماع رد الرجال الكويتيين.

- ماذا؟!

تساءل الضابط العراقي باستغراب رافض. وجهه يحتقن غضبا، ومنطق شتى يقينيات تعاليه، وباطن وعيده:

- هل تعرفون النتائج التي تترتب على رفضكم؟!.

ر ردد.

- قترح .. أن تأخذوا وقتكم تتشاورون بينكم..

طف الضابط لهجته بعدما ضمنها نصحه، وواصل لدى إزماعه نهوضه:

- .. لا مانع لدي انتظر ساعة أو أكثر .. ريثما أعرف ردكم.

ر ردد.

***

"أنت معارضة كويتية.. كيف تتحول موافقة عراقية؟!".

وقع الحال.. الموقف وحساب النتائج المترتبة. أن تكون فردا فأنت تحاور ذاتك، وأن تكون في المجموع فأنت تحاور ذاتك.

"حين يكون الموقف باحتمالات عدة. يكون مجال الاختيار. وحين لا ..".

غاب الضابط العراقي زهاء ساعة، ثم عاد.

- إلى ماذا توصلتم؟

سؤال الضابط لا يخلو من طموح واعد. تصدى له أحد الحاضرين. أجابه مسايرة:

- لسنا مؤهلين للنهوض بأعباء مثل هذه المسؤولية.

- إن كان خوفكم من المسؤولية..

سايره الضابط برده، استطرد مؤكدا:

- .. نحن نتولاها عنكم.

الحاضرون يتطلعون بعضهم، وقت طمأنهم الضابط.:

- تكفينا منكم - في الظرف الحالي - موافقتكم.

الحاضرون باقون يتطلعون بعضهم البعض، وقت استعجلهم الضابط:

- ماذا قلتم؟!

تصدى له أحدهم. أجابه مسايرة:

- لسنا مؤهلين للنهوض بأعباء هذه المسؤولية.

"رسالة وصلت واضحة. وجه الضابط يحتقن ثانية.

- الفرصة التاريخية التي توفرت لكم بصفتكم طلائع قوى وطنية قومية عربية ذات منحى تاريخي تقدمي لم يسبق أن توافرت لأيما فصيل ثوري مماثل في طول الوطن العربي وعرضه..

الحاضرون والصياغة اللغوية.

- .. من الغباء السياسي..

شدد الضابط على كلماته، أتم:

- .. ان لا تنتهزوا هذه الفرصة الفذة..

"الانتهازية تأهيل سلوكي باشتراطات فذة..".

صوت الضابط يتواصل :

- .. علما بأن التوجيهات الموكلة إلي من جانب قيادتنا الحكيمة في بغداد واضحة محددة، فإن تقاعستم عن..

"انتهاز الظرف شيء وانتهاز الذات شيء آخر!".

التفاوض - في مثلة - خبرة أولى .. حين واجههم الضابط يهدف إفحامهم:

- معروف عنكم موقفكم التاريخي المعارض لنظام حكم قارون..

رغبوا لو يجيء ردهم:

"معارضة النظام جزء من وجود النظام ذاته".

وحين تذكر الضابط صحح تعبيره:

- .. المباد إلى غير رجعة.

رغبوا لو يجيء تعقيبهم:

"انتفاء النظام يعني انتفاء معارضته".

حتى إذا ما أتم:

- .. لا عودة للشعبين العراقي والكويتي عن منجزاتهما الحضارية المتحصلة، و.. تخاذلكم عن .. سيضطر أولي الأمر في بغداد لاتخاذ..

- تبادل الحاضرون نظراتهم بينهم، حساب الحدس.. لا رد.

- .. حيث لا ينفع الندم!

الندم ترجمة انفعالية لارتكاب فعل خطأ، أما والحالة ارتكاب وطن..

***

الإذاعات ووكالات الأنباء تتناقل:

"في اجتماع استثنائي لوزراء خارجية دول مجلس التعاون الخليجي..".

الوطن ليس مجرد كيان مادي بحدود جغرافية مثبتة على خارطة، ومن ثم يصار محوها بقوة السلاح.

"شجب الاعتداء الغادر بصفته استهدف دولة عضوا .. عودة الأوضاع إلى ما كانت عليه، وبعكسه..».

الوطن – في حالات منه – كيان معنوي يتوخى حدود القلب، كي يبقى فيه.

«البيان شديد اللهجة الذي صدر عن وزراء الدول المعنية ليس بمثابة إعلان حرب من جانب هذه الدول على نظام بغداد، بل إنه كذلك».

***

عودة الذات. ما كان التخلي ولا كان الظن خاب.

«مسألة وقت!».

الإنسان الكويتي .. شموخه داخله. الانتماء محدودية تتجاوز المكان. وإحساسك نسخ قوتك يتأكد فيك.

«الاحتلال أزمة عابرة!».

مقولة يتداولها كويتيو الداخل بينهم بثقة لا تقبل الشك، رغم كل بيانات الإطاحة وطمس الهوية.

«أيها الكويتيون الشرفاء. وطنكم .. وطن الثورة والسؤدد.. يهيب بكم.. أن تتحلوا بأعلى درجات اليقظة والحظر .. من أجل قطع الطريق على بقية أزلام العهد المباد وزبانيته، ممن باعوا ضمائرهم..».

حال إضراب عام شامل، والحال مقاومة عفوية عامة مسلحة بما توافر، شملت جملة مناطق الكويت.

«أيها الكويتيون النشامى الميامين صناع ثورة الثاني من آب..».

عمر فاضل يحتل شاشة التلفزيون، محاولا ترسم وضع عقاله وغترته بالهيئة التي يقوم بها ككويتي متجهم.

«إياكم والتهاون مع أعداد الثورة والوطن والدين!.. إن زمرة الموتورين من المخربين عملاء العهد المقبور..».

اللغة الثورية بمفرداتها:

«بالتالي .. فإن واجبكم يلزمكم التبليغ عن الإرهابيين حيث كانوا. ويحضرنا هنا أن نذكر بما نص عليها قانون العقوبات.. فيما يخص حجب المعلومات أو التستر..».

صيغة التخاطب حد المكاشفة الوطنية:

«حتى لانُلام في الحق.. نقول لهؤلاء الموتورين..»

الكويتيون الذين شاهدوا عمر فاضل في حينه أحسوا انهم المقصودون.

«.. نحن نعرفهم بأسمائهم فردا فردا .. وبإمكاننا الوصول إليهم دون مشقة..».

يحدق إلى مشاهديه في عمق عيونهم، يحتد صوته بانفعال حاقد:

«.. يعلمون تمام العلم إننا قادرون .. وإن يدنا طويلة وماحقة..».

يصمت برهة قصيرة. يختم بوعيد ناصح:

«هناك حدود لسعة صدر مجلس قيادة الثورة وتغاضيه..».

وما استغرب الكويتيون وقتها أن يعجز الاحتلال العراقي يجد كويتيا واحدا يعرف يتعاون معه، كي يضعه في واجهة الأحداث.

***

منذ تطلّق من إيمان لازم سلطان نفسه.. الطابق الأرضي من منزله. فائض الوقت وشعور بالوحدة يصل حد الصمت المطبق، لولا مداهمات رائقة كان فرضها حب ابنه الصغير سليمان بين الآن والآخر.

الوضع الطارئ وازدحام بيته بضيوف عديدين.. شعور اللمة بما يوفره من دفء ومحاولة سلطان أقلمته مع ما هو مستجد.

مشاركته معاناة ابنته سهى.. مصادفة يكون زوجها خارج الكويت يوم احتلال

واستحالة عودته ضمن الظرف.

- طول المدة .. خشية يتشرد وحده!

يواسيها مطمئنا:

- هو رجل .. لا خوف عليه.

أما عن مشاركته معاناة ابنه عيسى .. تعذّر عودة زوجته الشابة من القاهرة.

- نفاذ نقودها وهي في الغربة!!

ردها عيسى بأسى بائس مرة وثانية، وما عرف سلطان يجد ما يعقب به. كان عيسى اعتاد - خلال اليومين الماضيين - يلتحق بأعمامه في منطقة الروضة نهارا .. مواصلة أعمال مقاومة .. ليعود ليلا. وحين خبر أباه:

- أعمامي ينتوون زيارتك هنا!

صوته بإحالة دالة على إحساس بالتقصير، واجهه سلطان:

- أنا الذي سأزورهم.

نبرته تتضمن قطعيته، أكمل:

.. أقرب وقت.

ابنه لم يشأ يجادله أكثر، وبدوره أراد يوفق ينجز فعلا ما يجعله - بينه وبين نفسه - يرقى مصاف فعلهم.

بنته هدى وابنة شيرين وفاء تتلازمان رغم فارق السن بينهما، تتحركان - نشاط نصبا - تؤديان - بتوجيه من إيمان - أعمالا منزلية مناسبة.

بنه موسى وجعفر يتلازمان أيضا - تقارب السن - ومحاولتهما - من خلال سلوكهما - يؤكدان رجولة مبكرة، في حين بقي أبنه سليمان يتشبث بهما يلاحقهما جاهدا عله يجد موقعا معترفا به عندهما.

ثم .. إضافة إلى حنان.. مسؤولية المطبخ وإعداد الوجبات، تساعدهما شيرين، بينما عهدت إيمان لنفسها مسؤوليات الإشراف والتوجيه، ومساهمات - أعمال منزلية - إذا دعت الحاجة.

الحاج محمد باق، يشغل نفسه رعاية حديقة المنزل، في وقت عانى كل من عبد الله ورمضان إحساسا بالعطالة، عدا طلبات طارئة بتكليف من إيمان بين حين وآخر.

ليتا - وحدها - كانت تتحرك كما الملوك. تلبي أوامر الجميع، وتنهي الأعمال المنزلية المعلقة كافة، لتأوي غرفتها الصغيرة.. ساعة متأخرة.

***

ليلة ثالثة على الاحتلال. سكون معبأ بالريب.، وصدى إطلاق رصاص يسمع من أماكن متفرقة، بعيدة.. قريبة.

كان سلطان بدأ يعتاد يختلي نفسه بعد منتصف الليل، ساعة أو أكثر خارج مبنى المنزل، في الحديقة.

ليلته الأولى بادرته شيرين شاركته ساعته، الليلة.. وشعور مسيطر بهيمنة الكارثة النظام العراقي .. بيانات .. مراسيم .. ترافقها إجراءات على الأرض، مما يؤكد إلى استمرار احتلال الكويت، يرافقه إيغال في أعمال السلب والنهب على نطاق واسع يرافقه حملات منظمة وغير منظمة لاعتقالات بالجملة، تعقبها مصادرة إلى جهة ما مجهولة داخل الأراضي العراقية.

ردود أفعال خليجية وأمريكية وأوروبية تفيد أن إجراءات عسكرية - على قدم وساق - لإجبار نظام بغداد يسحب جيوشه من الكويت.

المراهنة .. استجابة نظام بغداد للضغوط الدولية، تزامن ذلك مع جهود حثيثة عربية تسعى لاحتواء الأزمة. امتثال القيادة العراقية لصوت العقل. نزع فتيل حرب، ستكون شاملة مدمرة.. لو نشبت.

النظام العراقي بعدما أشار - من خلال إعلامه - أمس إلى استعداده بسحب قواته أفادت التقارير الدولية المأخوذة عن رصد الأقمار الصناعية أن مزيدا من القوات المعززة بأسلحة ثقيلة يجري تدفقها عبر الحدود العراقية الجنوبية داخل الأراضي الكويتية تتوجه غالبيتها نحو الحدود الكويتية السعودية.

"الخداع والمماطلة.. إلى أين؟!".

الإذاعات ووكالات الأنباء .. المجموعة الأوروبية وكذلك كندا واليابان .. إعلان حظر على واردات النفط العراقي والكويتي.. إضافة إلى قرارات اقتصادية مشابهة لما سبق أعلنته الولايات المتحدة الأمريكية.

"العالم لن يتخلى عن الكويت!".

يقينية اعتزاز يصحبها إحساس مهيمن بالكارثة.. عامل الزمن وأثره البالغ .. الاحتلال.. سباق مع الوقت.. تدمير شامل .. تصفيات جماعية. خشية أن يجيء الإنقاذ متأخرا جدا.

***

صدى رشقات الرصاص يتواصل. كان سلطان أزمع يعود أدراجه يجتاز الباب المؤدي داخل المنزل .. سمع صوت انفتاح باب جانبي غير بعيد عنه. الغرفة الملحقة بالمطبخ. التفت. الظلام ليس حالكا. رأى ليتا تقف في فرجة الباب. ادراكك .. الآخر يطلبك لسبب ما.

-لم تنامي بعد!

هدف سلطان يبدي مجاملة ما. فاجأته مصارحتها:

- انتظرت اتحدث إليك.

ليتا، مسؤولية البيت، ويظل شكل الارتباط - خادم ومخدوم - قائما من خلال إيمان. طوال سنوات وجودها عنده اقتصرت الكلمات التي تبادلاها على تحية صباح أو مساء، وعلى إيراد مختصر لخبر يخصه.

- "سيدي.. اتصل بك فلان .. فلان آخر يطلبك على الباب.. سيدي".

تنبه إلى أنها أغفلت - سيدي. الأنه ظرف الاحتلال بما تمخض عنه؟!. صرف ذهنه - وقتيا - يأوي إلى فراشه.

- تحدثي!

ردها مشجعا. واجبه كمخدوم يلزمه يسمعها. انتظرها تقترب كي تفصح. بقيت واقفة عندها.

"شيء ما خفي!".

راوده هاجس رجولي طارئ. دفقة دماء ساخنة تتراكض رأسه. صدغاه ينبضانه.

"شابة.. حلوة.. جسد..".

سارع يطرد خاطرته من ذهنه بقرار صارم:

"ليس هذا !".

خطا باتجاهها.

- ما الذي ترغبين قوله؟!.

وقف قبالتها. عيناها تشملانه بإكبار لذيذ. واعز الامتنان يمازجه خوف من مجهول يتشربان صوتها:

- أردت أعرف مصيري هنا!.

أحس بتساؤلها كما لو أنه يختصر كارثة الكويت كلها. شجب الهاجس الذي كـ راوده، غمره فيض من حنان أبوة مسؤولة. بحث في ذهنه عن تعقيب يفي الموقف قال:

- مصيرك من مصيرنا.

وجهها نهب لانفعالات متفاوتة. فوجئ بكفها تتشبث ذراعه.

- أنا خائفة!.

هاجسه وقد سبق طرده عاد طرده .. هدف يخفف عنها:

- كلنا خائفون.

- لو..

غمغمتها قلقة، واستطردت بعد تردد قصير:

- .. سنحت فرصة مغادرتي الكويت عن طريق سفارتنا.. فهل تسمح لي!

أحسها تناشده. ابتسم مطمئنا.

- جدا.

أصابع يدها تضغط لحمة ذراعه لحظة انسحابها.

- شكرا .. أردت أتأكد من هذا.

(14)

- كان لزاما أجري اتصالي التلفوني قبل الآن!.

الوقت ضحى. صوت أحمد الشريف من الطرف الثاني للخط يتضمن صيغة اعتذار خجل، وواصل:

- انما ظروف الاخوان..

يبقي جملته مفتوحة . يبدأ غيرها:

- على العموم .. عرفنا نرتب للقاء موسع يجمعكم بممثلين معتمدين للأطراف الأساسية كافة.

الرسالة عبر صيغة التبليغ تعني أهمية متميزة، وعندما سأله سلطان عن الوقت الذي تحدد للقاء ومكانه..

- بعد ساعة .. بيتي.

***

سيارة سلطان باتجاه منطقة السالمية. الشوارع تكاد تكون خالية من السيارات الكويتية مقارنة مع ما قبل.

عساكر الاحتلال ونقاط السيطرة بحضور أكثر كثافة، رغم إشاعات، رددها أكثر من مصدر، بعضها موثوق تتحدث عن هرب مئات الجنود العراقيين من صفوف جيشهم داخل الكويت.

"تخلصوا من ثيابهم العسكرية .. أسلحتهم.. ارتدوا دشاديش، اندسوا بين الناس..".

هل هو الضمير الحي؟!.. أم حسابات فوات الأوان .. ويقينية النتائج المدمرة المترتبة على المغامرة التي أقدمت عليها قيادتهم؟!.

تنبه سلطان إلى فتحات أحدثتها آليات العدو في الحاجز الكونكريتي الفاصل بين الاتجاهات المتعاكسة للطرق السريعة.

"يختصرون المسافات على طريقتهم!".

وردت في ذهنه خاطرة:

"لو كانت هذه الطرق في بلدهم!".

سارع استعاد اهتمام .. صدده.

- ".. عرفنا نرتب للقاء موسع يجمعكم بممثلين .. للأطراف..".

ضمير الجماعة، ودلالة ظن أحمد الشريف.. وصول سلطان برفقة وفد كويتي الواقع والاجتهاد، واجتهاد البعض تصورهم. لو أن الظرف غير هذا لما عرف سلطان يجيء بغيره، فكيف والحال قائمة..

اقترابه من المكان، محاولة استعداد لمواجهة أولى من نوعها. حتى على أيام تعاطيه السياسة لم تصادفه.. طبيعة الظرف بتعقيده المركب وحساسيته المفرطة. يتحتم عليه أن يحدد خطوطا أساسية لحوار لم يسبق له أن ..

***

وصوله المبنى حيث يسكن أحمد الشريف، وجد الأخير بانتظاره عند المدخل. بدأ بسؤال لا يخلو من قلق:

- متى يصل الآخرون؟!.

الاحالة على مرافقين مفترضين لسلطان.

- ليس من آخرين.

أجابه سلطان، مما دفع الآخر يتساءل مستغربا:

- وحدك؟!.

بحث سلطان عن إجابة معقولة.

- مقتضى الحال.

فكر أحمد الشريف برهة، ردد بتسليم محبط:

- معك في هذا.

قبل أن يضيف بمواساة مشاركة:

- كان الله في عونكم!.

أحس سلطان دفء ارتباطه بمحدثه. بدا له كما لو أنهما صديقان حميمان منذ بعيد.

- .. الوضع خطير جدا.

لم يجد ما يرد به. كانا دلفا المصعد. مضيفه يواصل مخبرا مشيرا أعلى:

- النصاب مكتمل فوق.

مرة أخرى لم يجد سلطان ما يضيفه. كان منشغلا يطرد شعورا دخيلا استبد به فجأة.. رهبة الموقف.

***

باب المصعد ينفتح. مدخل منزل أحمد الشريف مواجهتهما. الباب لم يكن مغلقا تماما.

- "من أين يجيء الاطمئنان للظرف؟!".

مضيفه يدفع الباب مفسحا له طريق الدخول إلى الصالة. الأخيرة مزدحمة برجال لا يقل عددهم عن عشرة.

"فصائل منظمة تحرير..".

دخان سجائر كثيف، وفناجين قهوة أعدت حديثا.

"شعورك الاطمئنان .. شتان..".

رجال، وهم يهبون واقفين استعدادا لمصافحته، بقيت عيونهم للحظات تتطلع إلى ما وراء كتفي سلطان، توقعا لدخول مرافقين آخرين.

"ن كان على سلطان كان بوده..».

- أهلا وسهلا.

ـد الأيدي، وتحديق الوجوه.

"سلامات".

شعور سلطان برهبته يزايله، يحل محله ثان بالتطفل على المكان، على الظرف، على الأشخاص.

"ت هنا .. مطلوب منك أن ..".

خـ رهم متفاوته، وجوههم جادة صارمة. دقق فيها .. عله التقى أيا منهم قبل هـ ة لمرة.

- هذا أخ سلطان!.

قالها أحدهم مؤكدا معرفته به.

"عبدالجادر .. جبهة شعبية".

الاسم والنعت يحضران ذهن سلطان. شخص صدامي يصعب نسيانه، سبق له التقاه مرتين أيام نشاطه السياسي، ومرة أخيرة مصادفة قبل سنة .. رقابة حسابات .. بنك مركزي كويتي.

- ".. قيادات خط ثان..".

ذاك ما خبره به أحمد الشريف قبلها، لكن الذي .. الآن .. خط أول.

- أهلا أخ عبدالجادر!.

***

حراجة اللقاء. ثوان أولى. التعريف بالصفة، واختيار مقعد الجلوس.

"المهمة بصفتها. لا سبيل للتراجع. وما دمت اخترت.. عليك تتصدى".

لحظات صمت ثقيل. كان أحمد الشريف غاب في الداخل، ليعود حاملا فنجان قهوة، وضعه أمام سلطان.

المناخ العام بصفته يشي.. جميع الحاضرين ينتظرون على مضيفهم مبادأة الحديث.

- بسم الله الرحمن الرحيم.

غمغمها أحمد الشريف بصوت خافت بعدما استقر في كرسيه.

- بدءا.. أرحب بضيفنا الكريم..

"صيغ أنخاب اجتماعات رسمية!".

- .. بكم جميعا.

عيناه تطوفان وجوههم.

- .. كانت الأمنية نلتقي في زمن أفضل..

يتردد برهة قصيرة.

- .. إنما..

جفناه يطرفان. بدأ وكأن كلماته ضاعت منه. فمه يرسم ابتسامة خجلى. قرر يخلي دوره.

- .. اترك الحديث للرفيق عبدالجادر.

***

دخان السجائر يزداد تكاثفا عند سقف المكان. تنحنح عبدالجادر ممهدا.

- أخيرا .. عرفنا نلتقي بأحد إخواننا الكويتيين!.

نبرة صوته تنم تتضمن عتبا يرقى درجة اللوم.

- "العتب يدل على التقصير!".

آثر سلطان يحتفظ بدهشته، ريثما يفصح الآخر أكثر. عبدالجادر يواصل مستشهدا حضورهم بعينيه:

- اليوم رابع يوم للأزمة..

- "الأزمة محنة طارئة.. أمر مناسب أن لا تقتصر الإشارة إلى الاحتلال بصفته كذلك على الكويتيين وحدهم".

- بالنسبة إلينا كفلسطينيين مقيمين..

يتوخى عبدالجادر دقة كلماته. يستطرد:

- .. يهمنا جدا.. نعرف موقف الكويتيين..

عيناه تواجهان عيني سلطان. يضيف:

- .. الوطنيين منهم بالذات.

الحاضرون يؤمنون بهزات موافقة من رؤوسهم. سلطان يتشبث إصغاءه. عبدالجادر ينشغل لثوان بعلبة سجائره. يأخذ واحدة لفمه.

- علاقاتنا بالأنظمة العربية..

يتـــم بدلالة.

- .. الكل يعرفها.

ينفث نفس دخان سجارته كما زفرة.

- .. وإن كان هناك شكل ما لعلاقة معينة ما بهذا النظام أو ذاك، فهي في محتو ه الحقيقي تكتيكية مرحلية، يفرضها ظرف قائم في حينه.

ما خطر لسلطان يعترض.

- .. لعل التسمية المناسبة لمثل هذه الارتباطات المفروضة.. علاقات الأخوة الأعد ء

وخطر لسلطان يتساءل عن الغرض الأساسي للاجتماع.

- .. النظام الكويتي بمجمله..

قالها عبدالجادر مفصلا كلماته، مختصرا على سلطان تساؤلاته، وقّى:

- .. ليس مستثنى.

***

الجدل السياسي.. تمهيد ومقدمات و.. مع المخضرمين ليكن. أما وأنت في حضر طلائعيين..

"ليس هذا!".

رغب سلطان يعتب عبدالجادر، لو لا اقدام الأخير متابعته:

- أنت أدرى بانتخاباتكم النيابية الأخيرة..

لا يتردد يضفي صفة:

- .. المزعومة.

يوافقه سلطان بابتسامة صابرة.

- .. وأنت - شأن غيرك من الوطنيين - تعرف موقف الكويتيين الغيورين إزاء ه يجري في ساحتهم.

"الماء.. النار.. اليد".

- .. من جانب آخر..

عبدالجادر مفصّل:

- .. نحن نعتز بعلاقتنا التاريخية الوطيدة بالقوى الوطنية الكويتية.. وهي قوى طليعية بالأساس.

يتذكر يؤكد كلمته:

- .. شأننا نحن.

- لا أعتراض!

رددها سلطان مفصحا عن رغبة اختصار.

***

- نحن نعرف .. لم تقم إيما ثورة في الكويت.

عبدالجادر. صلب الموضوع.

- .. ونعرف أن النظام العراقي هو الذي افتعلها.

الجميع يبدون موافقتهم بهزات رؤسهم.

- .. إنما .. ما أدرانا .. إن كانت القوى الوطنية الكويتية على علم بما سيحدث .. أم لا !!.

عضلات وجه سلطان تنشدّ.

- لا.

رد فعل حاسم فوري وعفوي في الوقت نفسه. عبدالجادر يبتسم لدى متابعته دون أن يتوقف إزاء ما بدر عن سلطان:

- ما أدرانا ان كانوا باركوه ضمنا .. أم لا!!.

شعور سلطان بالاحتجاج يكبر في داخله.

"الاستنتاج شيء والاتهام شيء آخر!!".

- أخ عبدالجادر!!

ردها بما يشبه الضيق، وكأنه يأمر محدثه يصمت. انطباع بالاستغراب يأخذ وجوه الجميع.

- الأمور ليست بهذا الفهم!

قالها وقد ضمنها عتبا مريرا، قبل أن يستطرد نافيا قطعيا:

- ولا يمكن .. في حال من الأحوال.

فم عبدالجادر ينفرج ابتسامة متفهمة مشاركة.

- آسف!

غمغم معتذرا، أضاف مقرا:

- كنا نحتاج نعرف الحقيقة.

تسود لحظات صمت مشحون، يعود عبدالجادر يقطعه:

- الآن وقد عرفنا موقفكم..

يترك جملته مفتوحة. عيناه على وجه سلطان. يستطرد متسائلا باستجابة ودودة:

- .. ما الذي ترتأونه؟!

***

بعدما أخذت الجلسة طابعا أقرب لأن يكون حميما.

- آتيكم بالشاي!

أحمد الشريف - بصفته المضيف - تقدم باقتراحه، ولم يجد اعتراضا. لحظات التقاط أنفاس، وكان عبدالجادر هدف يزيل ما علق في الجو من كلفة، التفت سلطان يشركه حديثه:

- أعرف عنك إنك اعتزلت نشاطك السياسي منذ سنوات عديدة!

لهجته لا تخفي جانبا من فضول متواضع، لتجيء إجابة سلطان مختزلة:

- ومازلت.

ابتسامة الآخر تتدارك فمه.

- الظروف الحالية - على ما يبدو- ..

لا يكمل جملته .. سلطان يوافقه إيماء من رأسه.

- لا أخفي عليك..

رددها عبد الجادر كمن يسارر محدثه وهو يأخذ لفمه سيجارة جديدة، استطرد:

- اننا توقعنا اتصالا من رفاقنا الكويتيين.

سلطان يصغي إليه بتفهم.

- .. اليوم الأول مر .. الثاني مر..

يفلت زفرة مشحونة من دخان سيجارته. يقول مقرا بالأهمية:

- .. كان لا بد أن نعرف!

تند عنه ضحكة خافتة لا تخلو سخرية حزينة.

- .. قياداتنا التي في الخارج تعرف بواطن الأمور.. ونحن - الذين في قلب الحدث - آخر من يعلم!.

عاد أحمد الشريف حاملا أكواب شايه. بدأ توزيعها.

- أمس .. اضطررنا نبادر ونتصل.

عبدالجادر يواصل بخبرة:

- .. حاولنا مع أرقام تلفونات من نعرفهم من رفاقنا الكويتيين .. ليأتي الرد .. بلا استثناء .. غير موجود.

صوته يتلون اساه:

- .. رغم إدراكنا إنهم موجودون حتى ليلة الاجتياح.

اساه يتعمق صوته أكثر:

- ساعتها أدركنا إننا مقصودون بعدم الاتصال .. ومقصودون بعدم الرد.

منفضة السجائر في متناول يده. يطفئ سيجارته كما لو أنه يسحقها، يواصل بعتب يرقى حد الإدانة:

- .. بناء جاءت قناعتنا .. أن الأمر وما فيه..

- الأمر وما فيه..

قاطعه سلطان بعتب يرقى حد الإدانة، وأكمل:

- .. إن الكويتيين المقصودين كافة كانوا .. ومازالوا .. في عهدة الاستخبارات العسكرية العراقية..

***

- قيادتنا في الخارج..

عبدالجادر يتحدث. يتابع:

- .. لها مبرراتها ودوافعها في اتخاذ مواقفها..

الحاضرون يؤيدون مؤمنين برؤوسهم.

- .. تمشيا مع خطوطها المرحلية، ونهجها الاستراتيجي، في توظيف هذا الصراع أو ذاك، لما فيه.

"اجتهاد في التخريج!!".

أراد سلطان يوفر على محدثه اعتذاره.

- الخارج للخارج!

قاطع مبديا اقتناعا متفهما. أتم:

- .. هناك حكومة كويتية كاملة التشكيل في الخارج.. هذه الحكومة كفيلة بالتصدي لمن هم هناك.

- أنت على حق.

رددها عبدالجادر برضا. فكان من سلطان..

- .. دعونا نتحدث عن حالنا الآن.. بصفتنا شعبين .. فلسطيني .. كويتي.. تحتم علينا عليهما يتعايشا هنا.

لهجته بدلالتها:

"لا أحد يفضل غيره".

عبد الجادر يوافقه:

- هذا ما أردت التأكيد عليه.

نمط ارتياح عام يشمل الجميع.

- تنظيماتنا الإقليمية في الكويت.

أضاف عبد الجادر واصل:

- .. لها صيغة من صيغ الاستقلالية..

ينقل نظراته على رفاقه يستمزجهم رأيهم. يؤكد بثقة:

- لسنا ملزمين نصدر بيانات تأييد لقياداتنا في الخارج..

يتحرى دقته:

- .. واقع الحال، وواقع الفعل السياسي يلزمنا نبذل قصارى جهدنا للحفاظ على أمن واستقرار جاليتنا هنا.

- الحاضرون لا يترددون يصدرون غمغمات موافقة. عبدالجادر يتذكر يشعل سيجارة جديدة.

- الآن .. وقد فهمنا موقف القوى الوطنية الكويتية .. نستطيع نقول .. ما حدث ويحدث في الساحة الكويتية ليس سوى أزمة طارئة محكومة بالزوال..

يعزز استنتاجه بحجته:

- .. إذ أن المواقف الصريحة للحكومات القادرة على صياغة القرارات الدولية..

***

اللقاء، والوقت الذي استغرقه. مناخ الألفة والحميمية بمزيد منهما.

- بغض النظر عما أبداه الرفيق عبدالجادر من عتب في بدء اللقاء..

أحمد الشريف يتصدر للحديث مواجهة لسلطان.. يده تشير لتشمل باقي رفاقه. يستطرد:

- .. انظر إلى الأخوة الموجودين هنا!

سلطان يستجيب منصتا بفضول.

- .. هم يمثلون فصائل التنظيمات الفلسطينية في الكويت كافة..

يقطع استرساله بضحكة قصيرة ذات مغزى.

- .. عدا فصيل واحد آثرنا لا نشرك ممثله اجتماعنا هذا.

تم استبعاد ممثل الفصيل المعني لأسباب أمنية مترتبة عن تبعية الفصيل المعروفة للنظام العراقي.

اللقاء والوقت.. كان سلطان أدرك أن الوقت تناسب كي يبدأ ويدلي ما جاء من أجله.

- أنا لا أتكلم ممثلا معتمدا لقوى وطنية كويتية..

التمهيد يعني إخلاء الساحة، وكانت فرصته يؤكد ما يزمع نفيه.. تحسبا .. خط رجعة لزمن ما، قادم.

- .. ولا أتكلم نيابة عن حكومة كويتية في الخارج..

أحسهم يصغون إليه بانتباه.

- .. أتكلم باسم كويتيين باقين هنا.

نسغ من قوة واثقة، لحظتها تدخل أحمد الشريف معقبا:

- ونحن فلسطينيون باقون هنا.

يصمت برهة قصيرة جدا.

- .. الفرق بيننا وبينكم .. أنكم باقون بإرادتكم .. تستطيعون أن تغادروا في أي وقت.

يغبط سلطان في عينيه.

- كثيرة هي البلدان التي ترحب بكم.

- أما نحن..

جاءت مقاطعة عبدالجادر لأحمد الشريف، أضاف بصوت حزين ينز مرارة:

- .. وباء تتحاشاه دول العالم..

(15)

الكلمة الأخيرة لعبدالجادر كانت أشبه بخاتمة موفقة للحوار كأنخاب سياسية مجردة، ولم يبق سوى تحديد أوجه التعاون والتنسيق بناء على ما تقتضيه ضرورات الموقف.

- فيما يخص إضرابكم العام الذي أعلنتموه منذ اليوم الأول للأزمة..

عبد الجادر تدخل قائلا:

- .. الكل ملتزم به.

أحمد الشريف يعقب مفلتا ضحكة تسليم قصيرة:

- شاء أم أبى!

ينبري عبد الجادر موضحا:

- عدا الباعة، وبعض المهنيين الفنيين من العاملين في المرافق الضرورية.

- بالنسبة للمرافق الأساسية..

سلطان يتسلم زمام الحديث، يواصل:

- .. جرى استثناء العاملين فيها من الالتزام بالاضراب العام.

تنبه إلى أنه - دون قصد منه - أوحى بإضفاء طابع الجهة الرسمية المسؤولة عن مجريات حدث الإضراب العام، مما أضفى - في الوقت نفسه - على شخصه صفقة معرفة ما دار، وما سوف يدور.

"توخى الحذر!".

الآخرون يتقبلون الخبر المدلى أمرا واقعا، ترتب عليه إقدام أحدهم يتساءل بقلق بادٍ:

- هل نفهم من هذا .. وجوب التزام الباعة بإضرابكم العام؟!.

الموقع والتجاوز. إجابة السؤال جانب من مهام الموقع المفترض .. المسؤولية ومساحة الصلاحية الآنية.

- في الوقت الحالي.. لا.

أجابه سلطان مطمئنا. لعبة الإبقاء على خط رجعة هي في جانب منها حيلة دفاعية استطرد مشيرا:

- ضرورة تزود الناس باحتياجاتهم الأساسية.

يتذكر يفصّل:

- .. هذا يختلف عن النشاط الاقتصادي العام عبر ارتباطه باستقرار الأوضاع.

صدرت عن أحدهم غمغمة موافقة.

- الأمر واضح.

في حين انبرى عبدالجادر:

- لكي نصدقكم القول..

كلامه موجه إلى الكويتيين ممثلين بسلطان، واصل:

- .. نحن قادرون على مواصلة الإضراب العام بحدود الإمكان.

سلطان يهتم يصغي.

- .. أعني إذا امتد هذا الاضراب أياما معدودة..

لهجته تصرح عن قناعته:

- .. أما إذا دام لأسابيع، أو لأشهر..

يترك جملته معلقة. ود سلطان ينوه معقبا:

"استباق الأمور!".

لكن عبدالجادر أتم:

- الغالبية العظمى من الفلسطينيين يكسبون قوتهم من عملهم اليومي..

مره ثانية جملته معلقة. مرة ثانية ود سلطان ينوه معقبا:

"في هذه الحالة.. هم غير ملزمين بالبقاء هنا".

بيد أن التعارض غيره عن التعاون. كان على سلطان يجد رده.

- بخصوص الآن.. نحن متفقون على الالتزام بالإضراب العام..

قالها بمثابة إقرار حقيقة قائمة، أكمل:

- .. فان جد جديد.. يناقش في حينه.

أحس نفسه بدأ يجيد لعبة خط الرجعة. محاوره لا يجد ما يعترض عليه. جانبه أضاف كمن يقر حقيقة واقعة أيضا:

- ستكون لنا لقاءات أخرى.

***

اللقاء. الاستمرار. تساؤلات أساسية أو فرعية. نقاط هامة متبقية قيد البحث. الاحتلال عربي بالدرجة الأولى. حساسية الموقف ورهافة المشاعر القومية، ولأنه ليس من خبرات احتياطية مسبقة.. يبقى الاجتهاد..

استعداد الإصغاء والتفهم شيء، استعداد التنفيذ، ومواصلة التنفيذ شيء آخر. حساب التطورات وما يترتب.

- كلنا نعرف أهمية وحدة الصف في الظرف القائم.

ما كان سلطان اعتاد يرتدي مسوح الواعظ، ولا الخطيب السياسي المفوه. كان في باله أن تأتي الأمور سلسة. وكان في باله يسمع أكثر مما يتحدث.

- .. ما دمنا اتفقنا أن الكويت مصير الفلسطينيين هنا.. كما هي بالنسبة للكويتيين.. يجب علينا يلزمنا نعمل كفريق واحد .. ولا نسمح للمحتل يبذر بذور الفرقة في صفوفنا، أو يدق أسفينه بيننا.

"من أين يجيء الاعتراض؟!".

وما خطر ببال سلطان يواجه بسؤال احدهم:

- ماذا عن المظاهرة التي تعتزمون أن تقوموا بها غدا؟!

خبر جديد عليه. لا يكفيك تكون كويتيا كي تعرف كل الذي يعتزمه الكويتيون.

عتزال سبق فرضه سلطان على نفسه بآثار ما زالت باقية فاعلة رغم وازع المشاركة مندفعة الآن.

خبر الكويتي بإضراب الصمود العام عرفه عن ابنه عيسى، وخبر مظاهرة الكويتيين عرفه توا.

عيسى لا يتظاهر بالاستغراب. صفته الحالية هنا.. أحد العارفين. الشخص، وقد وجه سؤاله عاد ألحقه آخر:

- هل مطلوب منا نشارك؟

صمت يلتقط أنفاسه.

تنهيدة النضال.

يضمنها عتبا مدروسا. يكمل:

- .. النضال فعل يترتب على موقف ذاتي بالدرجة الأولى..

محاولته يسترجع مقولات كان تداولها على أيام تعاطيه السياسة.

- .. لا يمكنك تلزم إنسانا ما .. ما لم يكن مقتنعا بنفسه.

يحدق إلى محدثه في عينيه. يختم:

- .. هذه الحقيقة تنطبق على الكويتيين أيضا.

ابتسامة خجلي تنطبع وجه الآخر.

- أنت على حق.

بعدها كانت فرصة سلطان السائحة كي يفضي:

- كل ما سبق وقلناه يصبح بلا جدوى..

اهتمام الجميع ينشد إليه.

- .. ان لم نضع حدا حاسما لإشاعة بدأ الناس يتداولونها حول تعاون بعض الفلسطينيين مع قوات الاحتلال.

غمغمات مبهمة تسري وسط الحضور.

- مثل هذه الإشاعة ستتسبب في تفويض..

يقاطعه عبدالجادر بصوت هابط:

- لا نخفي عليك اننا سمعنا هذه الإشاعة.

تتلاشى غمغمات الحضور. عبدالجادر يواصل بالنغمة ذاتها:

- هو أمر مؤلم، وأكثر من ذلك مخز!

الآخرون يومئون برؤوسهم موافقين.

- جاليتنا كبيرة. ولا يمكن أن تخلو من ضعاف نفوس متساقطين..

يشعل لنفسه سيجارة جديدة. ينفث من دهانها زفرة حرّى.

- المشكلة.. الخائن لا يسفر عن وجهه!

يصمت لثوان، يطوف خلالها بنظراته على وجوه رفاقه. يقول متحدثا عن المجموع:

- ان كان لديكم أدلة ثابته ضد بعض الفلسطينيين..

سلطان هو المعني بالخطاب.

- .. زودونا بالأسماء، وسنحاول بدورنا نقوم باللازم.

القرار بمثابة مفاجأة حادة لسلطان، لحظة تساءل أحمد الشريف بمواجهة عبدالجادر:

- وإذا كان هذا البعض الفلسطيني..

يتهدج صوته تأنيب ضمير بإحالة مسؤولة:

- .. ينعم بحماية قوات الاحتلال .. تحت غطائها.. يقاسمها معسكراتها ومقراتها!! البعض المعني – كما فهمه سلطان – هو الفصيل الذي جرى استثناء ممثله عن حضور اللقاء.

عبدالجادر لا يجيب أحمد الشريف مواجهة. يلتفت إلى سلطان بصفته صاحب السؤال.

- زودنا بالأسماء.. سنحاول نقوم باللازم.

تند عنه زفرة صريحة.

- أما إذا عجزنا .. لسبب أو لآخر..

لا يكمل جملته مباشرة. ينقل نظرات صريحة على وجوه رفاقه.

- .. في هذه الحالة.. لا حول ولا ..

التسليم صعوبة ليس مثلها. رعشة مهيبة تشوب صوت عبد الجادر لدى استطراده:

- دم الخائن مباح لكم!

تسيطر على الجميع لحظات صمت قاس. خيل لسلطان أنه رأى يد عبدالجادر ترتجف، وهو يسحق سيجارته في المنفضة أمامه.

- خبرّ اخواننا الكويتيين بقرارنا هذا!

قالها عبدالجادر لسلطان بلهجة بدت آمرة، ونهض.

***

السيارة. طريق العودة. شيء من صفاء ذهني. جانب الانجاز الذي حققه سلطان

من خلال لقائه الأول بممثلين عن فصائل فلسطينية.

صفاؤه الذهني النسبي لا يلغي شعوره العام بوحشة الشوارع الخالية من السيارات. عندما حانت عنه التفاته ناحية مبنى إدارة جوازات محافظة حولي كان المبني مهجورا، أربعة أيام على الاحتلال.. لكن وتيرة الزمن بامتداد بدا موغل "العدالة .. كيف؟!".

غير بعيد عن المبنى استوقفته نقطة سيطرة.

- السلام عليكم.

الجندي هو الذي بادره السلام، احتفظ سلطان بدهشته لنفسه. أجاب التحية برزانة، ليبادره الآخر بأدب:

- "صندوق سيارتك.. لو سمحت!".

- "حاضر".

استجاب سلطان بأدب مماثل.

"شر البلية ما يجعلك متأدبا!".

تذكر أن الجندي لم يسأله هويته. فتح باب سيارته. نزل. استدار. فتح الصندوق الجندي لا يهتم يفتش بشكل دقيق.

- أمر خارج عن إرادتنا!

غمغمها الجندي بصوت خفيض. صوته لا يتضمن إحساسا محددا بالذب بقدر - يهدف يخّبر.

- "لا بأس".

أصدرها سلطان غمغمة محايدة. أغلق صندوق سيارته. كان بسبيله يركب - سؤال عارض من الجندي:

- أنت كويتي؟

- "الحمدلله".

جاء رد سلطان عفويا خاليا من لؤم. يفاجئه الأخر بطلب غريب:

- اصدقني القول!!

يتطلع فيه سلطان بحيرة لا تخلو من الدهشة. الآخر يتدارك طلبه، يواصل -

أكثر غرابة:

- "أنتم تذبحون الجنود العراقيون.. أليس كذلك؟!".

كيف له يصنف سؤالا مثل هذا يوجهه له عدوه؟!

"احترام بصيغة سخرية؟!.. أم العكس؟!".

يعود يحدق في وجه الجندي. سن ابنه عيسى. أصغر قليلا، أو أكبر قليلا. بشرة ملوحة محروقة. عينان ضيقتان مرمدتان. تجويف مبكر في الخدين.

وسط كل هذا لفتت نظر سلطان تعابير من سذاجة غير مقبولة، يشوبها فضول طفل فات أوانه.

"وبعد؟!"

سأل سلطان نفسه. الآخر مازال يواجهه، ينتظر عليه إجابته.

"إذن.."

بدرت عن سلطان حركة لم يتوقعها منه. ما كان فكر كيف .. كان مد يده في جيبه.. صادفته ورقة عملة كويتية فئة دينار.

- خذ!

دسها في يد الجندي، سارع ركب سيارته.

- "يا عم ..".

رد فعل مذهول صدر عن الجندي. ولم تتوفر له فرصته يكمل. سيارة سلطان كانت تحركت.

"عدالة .. ماذا؟!".

من خلال المرآة المواجهة للسائق حانت عن سلطان نظرة خاطفة وراء.. لمح الجندي على وقفته إياها.. عيناه تشخصان حيث اتجاه السيارة..

***

الطريق تنفرش أمامه. الإشارة المرورية الضوئية عند تقاطع شارع عمان لا تزال قيد الخدمة. ليس من مبرر للوقوف إذا كان ضوء الإشارة أحمر. أنت لن تقدر تقيم وزنا لأنظمة مرورية في زمن احتلال.. احترام القانون جزء من احترام السلطة..

***

الآن – أكثر من أي وقت مضى – يحتاج سلطان يلتقي إخوته. كان زارهم في اليوم الأول للاحتلال. لقاؤه ذاك وخيبة الأمل التي صادفته جراء موقفهم منه.

- ".. لأنك محسوب .. معارضة..".

أنّى له يعارض رأيهم وقتها. رد فعله المباشر يغيّب وجهه من أمامهم.

- "سأحتاجكم حتما!".

قالها لهم هادفا تخفيف وقع الفعل، أضاف بوازع من يطمئن :

- ".. سأعرف كيف أصل اليكم؟!".

اجتماعه بالفلسطينيين – بما ترتب عليه – يلزمه يبادر ويسارع فورا. العمل خصوصا اتصال، وسلطان بلا .. أخوته – عهده بهم – مؤهلون .. خطوة أولى.

الجهد الفردي – أيا كان حجمه وزخمه – لن يكون فاعلا في المجموع بمعزل عن المجموع إياه.

الفكرة المشروع: لقاء ممثلي فصائل .. تمخضت عما يشبه ميثاق شرف.. توقف الأمر وقف عند حدّه ذاك..

كان الاجتماع – إثر نهوض عبدالجادر – قيد الانفضاض.

- اجتماعنا القادم يحدد في حينه.

قالها عبدالجادر. يده تشير إلى أحمد الشريف، استطرد:

- أنت مسؤول اتصالنا مع الأخ سلطان.

بدء مغادرة المجتمعين، لحظة أوعز عبدالجادر لسلطان:

- أحتاج أختلي بك لثوان!

هاجس موقع المسؤولية يكبر لدى سلطان.

"عسى تكون الأمور بالمقدور!".

خشيته مفاجآت غير محسوبة، وعندما خلا جوهما واجهه عبدالجادر بـــــ ودودة، بدت منفصلة عما سبقها من رسميات الاجتماع.

- أنت محق فيما قلته عن النضال كفعل وموقف ذاتي أولا.

مهد عبدالجادر لحديثه، قلق سلطان وفضوله يستحث محدثه يفضي بـ

ريثما كانت مواصلة الآخر:

- أعرف ثلاثة شباب فلسطينيين..

صوته يتضمن إعجابا مشوبا بالأهمية:

- .. قرروا مقاومة الاحتلال على طريقتهم..

انحسار قلق سلطان وقد أدرك .. وشعوره بالاعتزاز.

- .. بالأحرى ..هم بدأوا فعلا.

عاد عبدالجادر يخبر، وأضاف:

- .. بحوزتهم أسلحة خفيفة.. مسدسات.

يتحرى كلماته.

- أنا لا أملك حق التدخل بإبداء الرأي أو التوجيه..

يتردد برهة، قبل أن يدلي بحياديه هدفت تبدو متجردة:

- الخط السياسي العام للجبهة – حسب ما هو واضح – بعيد عن فكرة التصدي للنظام العراقي في الظرف الراهن، ان لم ..

لا يكمل جملته ذاتها.

- هم شباب متحمسون تنقصهم الخبرة..

يصمت برهة قصيرة جدا.

- خشية مواصلتهم نشاطهم الفردي..

لا يكمل جملته ذاتها.

- رعاية أو توجيه أو شيء من تدريب ميداني..

خوض التفاصيل باختزالها.

- حبذا .. لو ..

تمهيده هذه المرة يسبق طلبه:

- .. عرفتم .. ألحقتم هؤلاء الشباب ضمن فصيل من فصائلكم!

***

الاحتلال والمقاومة فعلان يترتب ثانيهما على أولهما. كيفان باقية صامدة .. وسؤال حاد يلهب المخيلة: إلى متى؟!.

المحاصرة والتطويق، واحتمالات قصف .. تدمير .. اختراق .. سحق.. ماثلة الحدوث بين اللحظة واللحظة.

المقاومة العفوية وقد عمت الكويت من أقصاها إلى .. مؤهلة أن تُفرغ من محتواها البشري، فيما لو استتب للاحتلال تواجده.

المقاومة – بصفتها فعلا مؤهلا يولد ليعيش في ظرفه – تحتاج شروطا وعوامل زمانية ومكانية وبشرية.

- "أنتم سادة النضال!".

قالها سلطان لهم بصفتهم، بحدود معناها.. إضراب عام أو مظاهرة احتجاج *حدود الطموح بحدود الإمكانية، وما عداها..*

- "حبذا لو .. إلحاق .. فصيل من ..".

وكان سلطان عانى حالة ذهول إزاء طلب عبدالجادر.

"المعجزات في أوانها.. والكويتيون – شأن غيرهم - ..".

ضرورة هيمنته على حالة ذهولة. كان لزاما عليه يتدبر إجابته.. خذلانه بحد.. يعني خذلان موقع المفاوض الذي وصله.

- مثل هذه الأمور بالذات..

أراد يجد صيغة اعتذار تنفي بقدر ما تؤكد، لو لا مقاطعة محدثه:

- أتفهم حساسية الموقف.

قال عبدالجادر بلطف. يده تربت كتف سلطان. اتم:

- .. لا أطلب منك إجابة فورية.

لهجته توحي وجود مرجعية يتوجب على سلطان يستمزجها رأيها. ختم:

- سيكون لنا اتصال لاحق.

- لاحق.

غمغم سلطان بشرود ذهن. استباق الحدث، أم سباق مع الحدث ذاته؟!.

JIM & ME - 96

(16)

بدت سيارة سلطان وكأنها عرفت طريقها باتجاه منطقة الروضة. كان قطع مسافة شارع الاستقلال حيث تقاطعه بالطريق الدائري الرابع، الالتفاف يمينا، صعوده الجسر بهدف اتجاهه غربا. الآليات العسكرية العراقية المدمرة باقية في أماكنها بعدما تضاعف عددها.

"البركة في الشباب!".

منطقة حولي إلى يمينه، ومن ثم منطقة النقرة. كلاهما بدتا بنمط حركة حياة محدودة ومنعزلة في الوقت نفسه.

مع اجتيازه الجسر الذي يعترض شارع المغرب ازداد عدد الآليات المدمرة بشكل ملحوظ أكثر.

"منطقة الروضة!!".

كان ناس الداخل يتابعون باعتزاز طموح - إلى جانب أخبار صمود منطقة كيفان - أخبار بطولات شباب منطقة الروضة.

"من أين تجيء ديناميكية الفعل المقاوم؟!".

ما عرفه عن ابنه عيسى:

- "تشكّل في منطقة الروضة وحدها ما يزيد على عشرة وحدات مقاومة .. هذا عدا عن وحدة أعمامي، والوحدات العسكرية التي اعتمرت مدارس المنطقة..".

"الفعل المقاوم باندفاعاته الحالية .. إلى أين؟!.

رهان الوقت وتدخل عسكري خارجي.. وبعكسه.. ستتوافر للاحتلال فرصة فرض سيطرته الكاملة. معرفته الأمكنة وتواجده الكمي.. ساعتها .. المطاردة والطريدة، وصعوبة أن..

***

فتحة الشارع المؤدية داخل منطقة الروضة. أدهشه عدم وجود جنود نقطة السيطرة، كما هي حال مداخل مناطق أخرى، وتنبه إلى آثارها الدالة. عوارض معدنية، وأحجار رصيف.

[illegible] الروضة؟".

[illegible] حول المخبز الإيراني حيث يعمل شباب كويتيون. زحمة أخرى عند مدخل مسجد قريب.

"الناس في الروضة أكثر اقترابا!".

اقترب من منزل العائلة. تملكته خيبة أمل مفاجئة. لا وجود لسيارات إخوته، عدا سيارة واحدة.

"إن لم يكونوا هنا..".

آثر لا يتعجل في تساؤلاته. يبدو أن تواتر الأحداث بما لا يسمح..

***

ما حدث لسلطان مع مجيئه هنا يوم أول عاد حدث ثانية. مفاجأته انفراج [illegible] الحديدي الصلد بما يسمح لمرور جسده قبل وصوله إليه، وصوت يهمسه يستحثه:

- أدخل بسرعة!

الصوت لأخيه مصطفى. هبة من شعور بالارتياح.

"هم موجودون!".

كاشف سلطان نفسه، اندس داخلا عبر فرجة الباب.

- "ما شفناك!".

أخوه مصطفى يعتبه بدلالة، ليأخذه بين ذراعية.

- يبدو انها نوبتك.. أعمال حراسة!

سأل أخاه. الآخر يبتسم.

- موجبات الظرف.

أجاب، ثم أشار بيده ناحية باب مبنى المنزل مستطردا:

- الجميع في الداخل.

قبل ازماعه يتجه تذكر سلطان يبدي فضوله:

- لم أر سيارات أي منهم!

- درءا لاشتباه دوريات العدو بوجود تجمع بشري..

قال مصطفى موضحا، وأتم:

- .. قمنا بإبعاد سياراتنا عن محيط المكان.

***

باب مبنى المنزل بمواجهته .. من طرف عينه لمح سلما خشبيا مسندا إلى السور الفاصل لمساحة أرض فضاء غير مسكونة.

"مهرب طوارئ .. عند اللزوم!".

دفع ظلفة الباب، دخل. في الدهليز صادف أخاه أسعد يصحبه شاب من أهالي منطقة الروضة. عرفة سلطان على الفور .. الحريبي.

- أخيرا!.

هتفها أخوه أسعد بترحيب فرح، أخذه في أحضانه. لتتوافر له بعد ذلك فرصة يعانق الحريبي.

"العواطف - ظرف الاحتلال - تتأجج أكثر".

تنبه سلطان إلى أن الاثنين يتزودان مسدسين.

- ربع ساعة .. وأعود!

خبره أخوه أسعد على عجل، أضاف بصيغة طلب رقيق لدى انفلاته هو والحريبي خارجين:

- انتظرني!

***

اخوته الثلاثة في الداخل. عبد المحسن، عبد العزيز، هلال، يضاف إليهم ابنه عيسى، وشاب آخر من أهالي منطقة الروضة، عرفه سلطان على الفوز أيضا.. المجيمي.

كان استغراب سلطان بلغ أقصاه وهو يراهم ينشغلون يلعبون الورق. أكواب شاي فارغة. راديو..

- «غير معقول!!».

رددها أخوه عبدالمحسن مندهشا مرحبا عاتبا وهو يسقط ورق اللعب من يده. يسارع وينهض. الآخرون يحذون حذوه.

"ثلاثة أيام.. كل هذا الشوق!!".

فرحهم الحقيقي به ينتقل إليه. تذكر كلمات ابنه:

- "كنت قاسيا على أعمامي!".

شعور طارئ بالذنب.

"الأمور .. مواقيتها..".

***

عندما لاحظ عبدالمحسن استغراب سلطان إزاء ورق اللعب، أفلت ضحكة قصيرة. قال:

- كنا نلعب "الكوت".

ابتسم سلطان، في حين واصل عبدالمحسن:

- إزجاء الوقت ما بين عملية وأخرى..

تواصلهم عملياتهم القتالية، في حين واصل عبدالمحسن:

- .. هدف آخر أبعد..

ضحكته القصيرة تعود تتردد جذلى لا تخلو من مكر:

- .. لو تعرضنا لمداهمة مفاجئة من جانب قوات العدو .. نحن نجتمع كي نلعب الورق .. لاغير.

يتقبل سلطان توضيح أخيه كما هو، ولا يتخلى عن سؤال ورد ذهنه:

- ماذا عن أسلحتكم؟!.

يتطوع أخوه هلال يجيب:

- محفوظة في مكان خفي يستحيل اكتشافه من جانب الغرباء.

ابنه عيسى يتدخل، يضيف:

- وهي في المتناول عند الحاجة إليها.

***

كان سلطان آثر ينتظر عودة أخيه أسعد كي يبدأ حديثه بخصوص لقائه مع الفلسطينيين، بيد أن أسعد عاد مزحوما بأخباره يصحبه الحريبي حاملا رشاش كلاشنكوف.

- امتداد شارع المغرب.. ترصدنا سيارة نقل عسكرية.. السائق إلى جانبه جندي واحد.

الحريبي يتدخل يكمل رواية أسعد بانتشاء:

- حاذينا سيارتهم بسيارتنا.. أنا استهدفت السائق، بينما أجهز أسعد على الجندي..

- رصاصة الحريبي الأولى إصابة مباشرة..

ناوبه أسعد حديثه، واستطرد:

- .. تطوح رأس السائق جانبا، قبل أن يتهاوى فوق مقود سيارته.

يواصله الحريبي:

- .. انحراف خط سير السيارة. صدمت العارض الكونكريتي.. وسط الطريق.

يعود أسعد يخبرّ:

- سارعنا استولينا على الكلاشنكوف.

يباغته سؤال من هلال:

- هل أشعلتما النار في السيارة؟

- لا.

وردت إجابة أسعد صريحة، لحظة تطوع الحريبي يوضح:

- إطلاق النار.. الموقع محاذاة مبنى جمعية الإصلاح الاجتماعي.. احتمال وصول نجدة جنود عدو عبر منطقة النقرة..

هلال وقد ألم بالموقف يقاطع الحريبي ملتفتا إلى المجيمي:

- ما رأيك؟!

سؤاله دعوة صريحة للآخر يشاركه تنفيذ فكرة طرأت له.. إشعال النار بالسيارة المقصودة.

- هيا!

جاءت استجابة المجيمي وهو يبادر ينهض، لو لا تساؤل عفوي عارض صدر عن سلطان:

- الآن؟!

التفت هلال إلى سلطان.

- ان كنت تحتاجني ..

استدركه سلطان:

- أحتاج أسمع رأيكم جميعكم!

***

مهد لحديثه:

- عرفت التقي بممثلين عن فصائل منظمة التحرير الفلسطينية في الكويت.

فاجأه أخوه عبدالمحسن بتساؤل تجاوز حدود الدهشة:

- هو أنت؟!

***

دهشة سلطان لا تقل عن مثيلتها لدى أخيه. السرية والكتمان وحدود التحرك .. ان الأمور بوهلة الزمن الذي..

«من أين لجهة كويتية أن تعرف؟!».

أخوه عبدالمحسن اختصر عليه حيرته.

- مجموعة المجيمي..

أصبعه تشير إلى المعني..

- .. تضم شابا فلسطينيا من الجبهة الديمقراطية..

عندها تدخل المجيمي مخبرا:

- اسمه سمير الشريف .. زميل دراسة وصديق عمر.

ذهن سلطان يربط الاسم المعني باسم أحمد الشريف. تذكر الطلب الذي ...

عبد الجادر من أجله.

«الأحداث تسبق بعضها!».

عبد المحسن يعود يوضح:

- من خلاله عرفنا .. أن جهة كويتية ما .. تبذل مساعها لاجراء لقاء مع ممثلين عن الجالية الفلسطينية..

أسعد يغتنم الفرصة مبديا رأيه:

- لا نخفي عليك.. أننا استبعدنا إمكانية جدوى هذه المساعي.

لا يتردد سلطان يجزم:

- العكس هو الصحيح.

***

- نتائج رائعة!

ردد الحريبي بإعجاب لدى متابعه سماع ما أدلى به سلطان من تفاصيل بخصوص اجتماعه قبل قليل، تلاه أسعد قائلا باشتراط يشوبه الشك:

- إذا التزموا بها حرفيا!

سلطان يعقب:

- هم ملتزمون.

يؤكد:

- مسؤولون يلتزمون.

- من واجبنا..

قال هلال بخطاب مسؤول بعدما استوفى جوانب الموقف، واصل:

- أن نلتزم كذلك..

عيناه تدوران على الوجوه.

- ما دام الأمر في صالح الكويت.

يؤيده عبد المحسن:

- الحكومة الكويتية غائبة..

لهجته تتضمن خطابا مسؤولا أيضا. يختم:

- .. الكويتيون الباقون هم الحكومة.

***

البحث في التفاصيل، وتبادل وجهات النظر.

- فيما يخص الشباب الفلسطينيين الثلاثة الجدد بإمكاننا ضمهم إلى مجموعة المجيمي.

الاقتراح ورد من عبدالمحسن، لم يبد المجيمي اعتراضا، في حين خاض هلال موضوع الفلسطينيين المتعاونين مع الاحتلال.

- هذه القضية بالذات لها خطورتها وحساسيتها المفرطة!

إصغاء الجميع إليه.

- .. مراعاة صدق المعلومة، التأكد من مصدرها بما لا يدع مجالا لأيما شك. عبء تضاءلت نسبته.

يوافقه عبدالمحسن رأيه:

- مسألة ضمير ومصداقية.

- علينا اعتماد مصادر موثوقة..

عاد هلال يتحدث، أكمل:

- .. مجموعات المقاومة الكويتية العاملة في المناطق.

ذهن سلطان يتسع ليشمل ما أفاد به هلال. الاحتلال في أيامه الأولى. عبء المستوحاة تشير إلى وجود حركة مقاومة كويتية منظمة.

- "مراوحة ما بين الخيال والواقع!"

ود لو يستمهل محدثيه، يستوضحهم أشكال التنسيق والارتباط.. فيما لو كان عبء مثل هذا ..

- بإمكاننا تغطية منطقة الروضة..

قال عبدالمحسن، أعقبه أسعد:

- نستطيع الاتصال بالكندري في السرة، والباقر في المنصورية، و.. أسعد يسترسل، ذهن سلطان يتسع أكثر، في الحين الذي بدأ قلقه يكبر.

"حركة مقاومة عفوية ذات طابع شمولي.. سيكون مآلها التشتيت من جانب العدو ان لم يتوافر لها كيانها التنظيمي الـ.".

- أسماء المتعاونين تتجمع لدينا..

كان عبدالمحسن تصدر للحديث.

- .. نتولى تسليمها إلى سلطان، بدوره يسلمها إلى أولي أمرهم.

يلتفت ناحية سلطان، يواصل متحدثا بلسان الآخرين:

- ستكون مسؤول اتصالنا بالفلسطينيين.

تسود ثواني صمت. يتساءل هلال بعدها:

- لديك اعتراض:

سؤاله موجه إلى سلطان. الأخير يبدي إجابة مشروطة:

- بهذا الخصوص .. لا.

***

زوال شعور سلطان غربته على أخوته، وإحساسه اللحمة غير القابلة للانفصال. الذات الفردية من خلال تحققها في المجموع. العطاء الفعل، وها هو جهدك يزكيك، يتواجدك موقعا ومسؤولية.

- وجه اعتراضك؟!

سأله أخوه عبدالمحسن بوازع من يرغب يسمع. أجابه سلطان:

- ليس اعتراضا.

وطفق يسأل بوازع من يرغب يعرف. سأله عن كيفية عمل المجموعات، وحين ووجه برد مفاده:

- "كيفما اتفق".

عقب:

- الانبعاث العفوي للمقاومة أمر طبيعي حتمي، وجد ظرفه المناسب في الفوضى

العارمة التي صاحبت دخول جيوش الاحتلال..

إخوة سلطان يصغون إليه.

- مثل هذا الظرف لن يدوم طويلا..

يصمت برهة قصيرة متمثلا صورة في ذهنه.

- عندما تتوافر للعدو فرصة فرض هيمنته الكاملة على البلد، ستتوافر له - بالمقابل - فرصة التفرغ لمواجهة أعمال المقاومة..

صوته يتشرب هاجس قلقه:

- .. سيجند استخباراته وعملاءه، حتى إذا ما وجه ضرباته ساعتها.. يترك جميع مفتوحة على التوقع. أخوه هلال يتدخل متسائلا:

- إذن؟!

سلطان يهدف يحصر أفكاره. يتجاوز سؤال أخيه:

- نحن لا نستطيع نحدد .. أو نجزم بالمدة التي سيستغرقها الاحتلال، ان كان ليوم، أو لأسبوع، أو لشهر..

نظراته تشمل الجميع. يشركهم فكرته.

- .. علينا - والحالة هذه - نعد أنفسنا بما يؤهلنا نتصدى له وكأنه باق إلى نهاية.. .

خيل إليه أن أذهان سامعيه اتسعت لتشمل.

- المقاومة الكويتية، بصيغتها التي بدأتها، فدائية انتحارية..

بدأ سلطان جملة جديدة، استطرد:

- أغلى ما على حركة المقاومة حياة أفرادها، وهم - مهما كبر الرقم - مجتمعين وفقدان واحد منهم يعني..

لا يعني يكمل جملته، يبدأ لاحقتها:

- أخطر ما في المقاومة تشكيلها .. مجموعات أو وحدات .. إحكام هذا من الضرورة بمكان..

يعود يشملهم نظراته.

- .. وبعكسه.. أي ضربة مفاجئة ستكون قاصمة.

للحظة أدرك أنه أغفل أمرا له جانب حساسيته.

- الإنسان الكويتي وارتجاليته حلوله لدى مواجهته أزمة ما ..

راعى اختياره كلماته:

- الاحتلال ليس أزمة عابرة، والمقاومة يجب ألا تكون أفعالا مرتجلة.

وعي الكلمات، وغمغمات خافته تتردد. خيل لسلطان أن أخاه عبدالمحسن يوشك يعقب. لكنه رغب يواصل يدلي ما عنده.

- ضمن الحالة والظرف..

يتهدج صوته مع استطراده:

- .. الاستشهاد وارد.. الإصابة واردة.. الاعتقال وارد.. التحقيق والاستجواب والتعذيب .. وصولا إلى الموت.. بهدف انتزاع اعترافات ومعلومات.. يبذل جهده يهيمن على انفعاله.

- النظام العراقي من أخطر الأنظمة القمعية التي عرفت في التاريخ، وأشدها دموية وبطشا..

لا يملك هلال نفسه. يقول بعتب حاد يتخلله شعور بالقهر:

- كأنك تثبط عزيمتنا!!

يتفرج فم سلطان ابتسامة مصارحة.

- ان كنا جادين بالبقاء ومواصلة البقاء.

قالها صيغة اشتراطية، أكمل:

- .. علينا تأهيل وتنظيم أنفسنا بما يحقق لنا ذلك.

- فيما يخصنا اجتهدنا على قدر طاقتنا..

انبرى له أخوه عبدالمحسن مقدما حجته، أكمل بما يوحي إخلاء الطرف:

- .. ما عدا ذلك.. "البركة فيك".

(17)

شتان بين ما كان وبين الآن. هاجس العطالة ولا جدوى الفعل ما عاد. تواجد سلطان أخوته حد الامتلاء، وهذا الشعور المترتب.. أن تكون مزحوما بمسؤوليات .. صلب الظرف.

المسؤولية بشقيها: أهليتها وهاجس انجازها.. حين ارتأى عليه أخوه عبدالمحسن ناطقا عن لسان الجميع:

- "ستكون مسؤول اتصالنا بالفلسطينيين".

لم يجد ما يعترض به.

"الاختيار.. الطريق، وأعباء أن تكون.."

أما وقد تمخض تداول الآراء حول المقاومة: الفعل والمصير..

- .. "البركة فيك"..

صدرت عن عبدالمحسن أيضا، مصاغة بلسان الجميع، كما هي حال سابقتها، ومضمنة رسالتها المباشرة:

- «أنت مسؤول عما أفدت به».

الأفكار، وعي الموقف من جانبه النظري أولا. عهد سلطان بالكتابة. انقطاع السنوات، واقدام ارتياد مساحة مازالت بكرا، لا عهد له بها.

- سأبذل غاية جهدي.

رددها بتسليم يحتدم توق تحقق، فما كان من هلال..

- ان كنت تحتاج مساعدة!

سؤاله مبعث أمل، فاستجاب له سلطان متحفزا:

- جدا!

ينفرج فم هلال عن ابتسامة واعدة.

- أعرف رجلا لبنانيا..

يستدرك:

- .. بمرتبة صديق أثق به..

سلطان يصغي.

- .. هذا الرجل يحتل موقعا بارزا في الحركة الوطنية اللبنانية.. خبرة ميدانية مقاومة لسنوات، قبل أن يعتزل .. يمتهن التجارة هنا..

المعلومة، والاحتفاء المشروط.

- ان رضي بالتعاون معنا!

تساءل سلطان. أجابه هلال واثقا:

- إلى أبعد الحدود.

استطرد مخبرا:

- سأتصل به.. أطلب منه يتصل بك.. ترتبان للقاء يجمعكما.

واصل معرفا:

- اسمه .. أبو الفدا

***

سلطان، احساسه أن لقاءه بإخوته استنفد غرضه. حري به يغادر كي يتو[illegible] نفسه، يبدأ ينجز ما عهد إليه.

ازماعه ينهض عندما تنبه إلى سلبية أخيه عبدالعزيز. كان الأخير تابع ما د[illegible] دون أن ينبس حرفا. بادر التفت إليه.

- أنت لم تشاركنا إبداء الرأي!

لهجته تتشبع عتبا ودودا. يفاجئه رد أخيه:

- أي رأي؟!

تساؤل عبدالعزيز يتشبع إدانة لا تخلو من استهانة غاضبة. يكبح سلط[illegible] عبد العزيز - وقد وجد فرصته يفرغ شحنته - يواصل:

- هناك موقف عاطفي أحمق!

غضبه يؤكد حالة من طوفان الجزع. عيناه تدوران على الوجوه.

- .. تصديكم لجيش الاحتلال..

يترك جملته معلقة.

- .. أنتم تقودون أنفسكم إلى تهلكة .. لا محالة!

توقف بعينية على وجه سلطان. تنكسر كلماته عتبا معبأ نذيرا:

- .. أنتم بمسدساتكم ومغامراتكم لن تهزموا جيش احتلال يتألف من مليون جندي!!

عيناه باقيتان تتشبثان وجه سلطان.

- لا نعارضك الرأي.

عقب عليه سلطان بلسان المجموع. استطرد:

- .. نحن لا نحلم نهزم جيشا كالذي قلته.

يرسم على فمه ابتسامة محبة. يضيف:

- .. ونحلم بأن نعرف ونقاوم.

عبد العزيز يحتار ماذا يرد.

- أنتم..

ولا يكمل. كان سلطان نهض بغية يغادر. وكان التفت ناحية أخيه عبدالمحسن مفصحا:

- سأحتاج يومين .. ثلاثة .. كي أنجز ما عهدتم به لي.

***

"الطريق - السيارة".

كويت ما قبل الاحتلال .. اعتيادية الحياة. أخذ الأمور بصفتها كائنة.. أنت وسيارتك والطريق وجانب من وقتك.. التواجد، زحمة السير، الإشارات الضوئية..زمن يطول أو يقصر، وحسابات قطع المسافة من .. إلى .. مع انشغال الذهن بأمور يومية عادية أو غير عادية.

الآن – زمن احتلال – حين تقدم تقرر تركب السيارة من .. إلى .. يركبك شعور حاد إنك بصدد مغامرة لا تجزم نتائجها. احتمالات نقاط السيطرة.. اعتقال أو مصادرة، لأسباب تجهلها أو تعلمها، واحتمالات نشوب حرب لحظة .. وأنت غير متواجد بين أهلك، واحتمالات انقطاع الأسباب.

شوارع بلدك، استغرابك الشديد إزاء امتداداتها الفسيحة المترامية، كما لو أنك تراها مرة أولى.

"كل هذا .. لماذا؟!".

إلى جانب ندرة موحشة لمرور سيارات أخرى تتبدد هواجس القلق لدى اقترابك من نقطة سيطرة، أو مع مباغتتك ظهور سيارة دورية عسكرية..

- قف !!

- من أنت؟!

***

الاحتلال صيغة تواجد عسكري قسري لغريب اقتحم عليك مكانك بقوة سلاحه. بعدما افترض انك عدوه، وإنك محكوم به.

"أنا هنا!".

الأمر الواقع، وفي المقابل مطلوب منك تتقبل فكرة إنك عدوه، وتعادلها بما يوازيها "إنه عدوك"، وتبدأ تعمل على هذا الأساس.

- من أنت؟!

غريب دخل عليك يسألك عنك.

"ليست مفارقة!".

وليست مفارقة حين تمتد يدك إلى مؤشر مذياع سيارتك..

"مجلس قيادة ثورة جمهورية الكويت الفتية يهيب بالمواطنين الشرفاء أن يكفوا عن إظهار مشاعر الاحتفاء بنجاح الثورة المؤزرة، ويبادروا بالتوجه إلى وظائفهم وأعمالهم، عملاء العهد المباد إلى غير رجعة.. من الذين .. وليخسأ الخاسئون".

"ليست مفارقة!".

"إليكم قراءة سريعة لبعض من السيل الجارف لبرقيات التهنئة والتأييد التي انهالت على القيادة بمناسبة الإعلان عن تشكيل الحكومة المؤقتة..».

كان سلطان اجتاز نقطة السيطرة الكائنة فوق جسر الطريق الدائري الرابع عند تقاطعه مع شارع تونس. وكان أحد الجنود طلب منه يفتح صندوق السيارة.

- «الأخ كويتي؟».

- "إن شاء الله".

ارتسمت على فم الجندي ابتسامة باهته. أراد يمهد لسؤاله:

- "عندك سجاير؟".

- لا.

هامش من إحباط يدعمه طلب آمر ومستذل في الوقت نفسه:

- عندما تعود من هذا الطريق..

سلطان وقد فهم القصد قاطع مجيبا:

"إن شاء الله".

مواصلة السيارة سيرها. تبقى الأمور قيد التوقع، لكن المفارقة عندما انبعث صوت مذيع إذاعة الكويت العراقية..

"استجابة للطلبات المتزايدة لجماهيرنا الثورية نعيد عليكم نص تسجيل رسالة من امرأة كويتية".

أرهف أذنيه.

"اخواتي الكويتيات الثائرات على الظلم والاضطهاد والرجعية والفساد والحكم القبلي المباد .. هذا يومكم .. هذه ثورتكم..".

يضيع عليه إرهافه أذنيه أكثر. كان تفاجأ بجوارحه استفزت كلها.

"أين يكمن الخلل؟!".

الصوت يعرفه. نبراته مألوفة. التذكر كما صعقة كهربائية خاطفة.

"أمينة .. زوجة رحّال!!".

***

المشاعر تُعاش.. تحُس أو تُعانى، وسلطان يتعلم يتعرف مشاعره، لم يسبق له أحس أحدا غدره في يقينياته.

رحّال.. يعرفه. ذكي حد الحماقة. ودود بقدر ما هو لدود. شخصية قدرية بمقاييس المنشأ والمصير. البداية والنهاية علامتان واضحتان، عدا عن منحاه الاستعراضي الذي لا يجد مناسبة إلا .. بالتالي .. لا غرابة عما كان منه أو ما سيكون..

"أمينة .. كيف؟!".

البراءة موقف طاهر من الحياة بظواهرها وأحداثها. الانتهاك - في حالة وقوعه - ينال الصفات لا المواقف..

"كيف .. والحالة ماثلة؟!".

خلال سنوات عملهما السياسي المشترك هو ورحال عرف أمينة عن قرب. كانت مثالا حيا وحيويا للبراءة في نضجها العفوي.

في سره ظل سلطان يتساءل عن سر ارتباطهما كشخصين قطبين متنافرين، وعن وشائج استمرار هذا الارتباط. وفي سره ظل يعاني حسده لرحال زوجته، في وقت رثي فيه حال الزوجة.

خلافاتهما كزوجين - في عصرهما ذاك - كانت تصل حد العراك الجسدي المؤدي بالزوجة إلى المستشفى.

كان رحال لا يتردد ينفس احباطاته وإنتكاساته المترتبة على موقفه المتعارض مع الحياة في زوجته.

«سر بقائها مرتبطة به!!».

سؤال مغلق ألح على ذهن سلطان، وبقي مغلقا.

«قدرتها احتمالها!!».

كانا - رحال وأمينة - رزقا بابنة اسمها هدى. سميت تيمنا باسم ابنة سلطان. كان ذلك أيام مشاركة النشاط السياسي.. بعدها جاءت دهشة سلطان ذهولا، عندما أقدم رحال وأطلق اسم سلطان على ولده الذي ولد بعد قطيعتهما، إثر اعتزال سلطان نشاطه السياسي.

وقتها حار سلطان إزاء تفسيرين.. وازع من عقاب ذي منحى قدري، أم أنه اعتزال تأديبي بالمعني الاستعراضي؟!.

مرور سنتين. رحال بدوره اعتزل نشاطه السياسي احتل موقعا اعلاميا لا يفي شروط طموحاته كلها. ريثما كان استفزاز سلطان ذات يوم.. دخول أمينة عليه مكتبه التجاري مصحوبة ابنها الطفل.

- هذا سلطان!

خبرت ببراءتها المؤلمة مشيرة إلى ابنها. اقتعدت كرسيا لصق مكتب سلطان.

- كيف أنت؟

تصرفت كما لو أنها كانت رأته أمس.

- مرحبا بسلطان الثاني وأمه.

ترحيبه كان مدروسا. تساؤله:

"ما الذي جاء بها؟!".

استحوذ ذهنه. بذل جهده يداري انزعاجه. نظر في وجهها. قليلة تغيرات الزمن. حدق إلى وجه سلطان الآخر. وجهه باستطالة وجه أبيه ونظراته الثعلبية الماكرة.

"حضور آخر!!".

- جئتك آخذ رأيك!.

صوتها ينفذ إليه، يستعيده ذهنه. تنبه إلى الصيغة التي تلفظتها. كانت تتضمن أحقية مفروغا منها.

"من أين؟!".

احتفظ بتساؤله لنفسه. يدري أن مسالك الحياة تفرقت، وإن نمط الصداقة العائلية المترتب على ارتباط سياسي ما عاد .. سمعها تواصله كلامها بمكاشفة:

- ما عدت احتمل فكرة استمرار حياتنا .. رحال وأنا!

صوتها يتشرب جرعة حزن مرير.

- هو يعيش علاقة نسائية ثانية.

سلطان حالة إصغاء محايدة.

- .. ضرب مسؤولياته تجاهي وتجاه الأولاد عرض الحائط.

سلطان الصغير يتأقلم مع المكان، يبدأ يجوب أرجاء المكتب مستطلعا.

- .. لم يعد لدي من أرجع إلى رأيه سواك!

"مرجعية رأي !!".

غرابة أن تكون الأمور !!.. وغرابة .. أن تبقى أمينة على عفويتها وبراءتها دون أن تغيرها الأيام .. أو الأحداث!

-لم أفهم!

غمغم سلطان بما يشبه الحيرة. موقعه من علاقتها به. موقعه من علاقته بهما، رحال وهي، موقعه من ماذا؟!.. كانت تطلعت إليه بحيرة مماثلة مشوبة ضياعا. رغب يحدد موضحا:

- ما الذي تريدينه بالضبط؟!

- أردت أعرف ..

كلماتها تتعثر على لسانها:

- .. ان كان قراري سيكون سليما !!

تتردد برهة.

- .. لا أريد أندم على قرار اتخذته..

تصمت برهة، تستجمع ذهنها. تتكلم كما لو أنها تهدف تتخلص مما يشغلها:

- .. فكرت .. تطلق من رحال!

"لماذا تعنّته بالذات؟!.. ولماذا الطلاق كحضور؟!".

فيما يخصه سبق له أن طلق " إيمان".. كما سبق وتطلق من جملة علاقات وصداقات سياسية وغير .. الطلاق وجه قطعي للتخلي، والتخلي لعبة الأصدقاء..

من يدري .. لعلها حدس خبرة التخلي!.. ولعل أمينة – لهذا السبب – جاءته مرفقة بسلطان آخر، بدا وكأنه مشروع مستقبلي لرحال آخر.

- لماذا أنا؟!.

سألها فانقبض وجهها بانطباع من تلقى عقابا قاسيا. حار في براءتها، واحتار من موقعه داخل نفسه.

- أمينة!

رددها عاتبة مشوبة بهامش غضب. تطلعت إليه في عينيه. خيل إليه إنها تجاوزت خارجه. نفذت داخله. واجهته هناك. طفلة كبيرة بريئة مضيعة. عبر على مشاعره دقق اختياره كلماته:

- ما علاقتي بأمر طلاقك من عدمه؟!.

لم تأخذ سؤاله بصفته ضاق ذرعا..

"أهي البراءة حد السذاجة؟!".

ردت عليه تشركه حيرتها العاجزة:

- لا أعرف اتخذ قراري!!

وجد نفسه يسألها:

- لماذ؟!

وردته إجابتها جاهزة:

- لا أدري!

أحس حضور رحال بينهما.

- أنت ما زلت تحبينه!

قالها هادفا يستكشف. وردته إجابتها جاهزة:

- لا أدري!

عاوده نفاد صبره.

- حين تدرين..

صوته لا يخفي غضبه. اتم مخليا ساحته:

- .. الطلاق ينفذ في وزارة العدل.

حيرتها – كما بدا له – تبددت فجأة.

- أنت على حق.

قالت وقد أزمعت تغادر. أضافت:

- .. علي اتخذ قراري باقتناع.

تساءل سلطان مع نفسه عن الدور الذي قام به.

- هيا بنا!

سلطان الصغير ينشغل في الركن. رفعت صوتها إليه، تناديه.

- يجب نذهب!

ابنها يحدق فيها بتحد .. تلتف مبتسمة.

- نسخة عن أبيه!

لا يعارضها سلطان رأيها.

- قد لا تصدق!

قالت بلهجة خاطر طارئ. أكملت:

- .. رحال – منذ قطيعتكما – يحاول يتشبه بك في كل شيء.

ندت عن سلطان مستغربة:

- أنا ؟!

كان بصدد يضيف:

"لماذا؟!".

لكنها واصلت:

- أنت مثله الأعلى.

ضحكة مباغتة كادت تفلت منه.

"من أين يجيء الاختيار؟!".

أمينة تستطرد موضحة:

- يسلك حياته وكأنه وإياك في تحد دائم.

"من أين يجيء الفهم؟!".

- .. يحبك ويكرهك بالقدر نفسه..

"من منهما قدر الآخر؟!".

***

استغراب سلطان أن يتشبه رحال به، يتخذه النموذج اللدود. واستغرابه دخول أمينه..

- "جئتك آخذ رأيك!".

شخصان اثنان، يعيشان علاقتهما منقطعين على بعضهما البعض، يفترضان وجود شخص ثالث حكما ندا بينهما، في حين تقطعت سبل ذلك الثالث عنهما منذ أمد من السنوات.. كيف؟!.

أمينة - مثلما جاءت على غير توقع - انصرفت.. الاتصال الطارئ ليس سوى وجه آخر للانقطاع. الأيام تمر .. أمينة تبقى أمينة على زواجها من رحال.

"المتضادات بارتباطها غير القابل للتعليل".

سلطان الصغير يكبر سنتين لاحقتين. الأحوال تنقلب، ليس على رحال وحده، وإنما على كل الذي يندرجون تحت بند بدون.

السلطات الكويتية - أيامها - اتخذت قرارات تنفيذية تهدف تضع حد لظاهرة .. بدون.

"البشر لا ينبتون من عدم!".

الدوائر والمؤسسات الحكومية وشبه الحكومية ترفع شعارها:

"كل يرجع إلى تبعيته، قبل اندراجه بدون!".

اللوائح والتعليمات بحكم القانون:

"لا عمل لمن لا تبعية له. لا إصدار أو تجديد أيما وثائق كويتية رسمية لمن لا .. لا تعليم .. لا علاج .. لا ..".

انكشاف حجم المعضلة. آلاف. عشرات الآلاف .. مئات .. يقابله اصرار:

«معالجة الظاهرة .. أو اجتثاثها».

- أنا كويتي أكثر من سلطان نفسه!

ذاك ما قالته أمينة نقلا عن لسان رحال، في زيارة أخرى مفاجئة. ما كانت مصحوبة بسلطان الصغير.

- .. لا يكف يردد..

كانت شاخت على غير توقع. رحال كان قد طرد من وظيفة اعلامية.. بدون.

- .. ما زال – في قرارته – يراك ندا له!

أمينة بدورها .. كانت طردت من وظيفتها .. ممرضة مسؤولة في إحدى المستشفيات .. هي الأخرى .. بدون.

- .. بدأ يبيع أثاث البيت..

الأولاد .. هدى وسلطان يقتعدون البيت الآن. فرص التعليم العام ما عادت.. وتكاليف التعليم الخاص..

- .. يأخذ ثمن الأثاث – على قلته – يشتري به مخدرات .. على غلائها!

كانت رثة الثياب. لم يجد سلطان ما يقوله. أحس أن كلماته ستكون رثة لو تفوهها.

- .. أدمن المخدرات بغض النظر عن نوعها..

تنبه سلطان إلى أن عيني أمينة جافتان لا تدمعان.

- .. صار يصاب بحالات هستيرية يومية .. يعاركني .. يعارك الأولاد.. يعارك الجدران..

- .. أنا .. لا أدري .. كيف!!

حيرتها هنا .. سؤال لا يبحث عن إجابة.

- .. رحال جن..

خيل إليه أنها لا تعني تختار كلماتها.

- .. قلت له .. حاول كما حاول غيرك من البدون.. عديدون منهم حصلوا على جوازات سفر عراقية.. البعض الآخر إيرانية .. سمعت عن امكانية شراء جوازات سفر باكستانية.. لهجتها تفترض شكلا من الحوار متبادلا.

- .. قلت له ..أولئك الذين سووا أوضاع إقامتهم عرفوا عادوا زاولوا أعمالهم ووظائفهم..

فمها يتفرج عن ابتسامة تسليم ميت.

- .. قلت له .. لكنه ظل يصر يقول .. أنا كويتي أكثر من ..

"مقارنة لا أوان لها!".

- .. يصر يقول.. لن أبدل انتمائي!.. ولدت .. وسأموت. وسأطالب أدفن غير بعيد عن قبر أبي!

أبوه كان جاء – في صدر شبابه – من بر سماوة العراق، واستقر يعمل في سوق الخضار، أيام كان هذا السوق في دروازة عبدالرزاق .. وتنقل بتنقل السوق المذكور، ريثما .. مقبرة صليبخات.

- .. قلت له .. نذهب إلى السماوة .. أعمامك هناك!

لهجتها، باقية، تفترض شكلا من الحوار متبادلا.

- .. صرخ بي محتجا غاضبا: أنا كويتي!

***

لقاؤهما ذاك، وحين نطق سلطان تساءل:

- ما المطلوب مني؟

أراد – من خلال سؤاله – يضع حدا لحالة لا حد لها.

- تساعدني!

أجابته أمينة على الفور، كما لو أنها صاحبة حق مفروغ منه، أوضحت:

- .. تجد لي عملا!.. أو وظيفة!

"كيف لك تكون طرفا!!".

كانت أمينة واصلت تقر حقيقة افترضتها لنفسها:

- .. لا يمكن أن أتخلى عن رحال وهو في حالته هذه!

أبعاد الشخصية .. ومكونات غير قابلة للفهم، لكنها قابلة للاحترام، التضحية شيء تكبره في الغير..

"أيهما قدر الآخر؟!"

لقاؤهما ذاك، وحين نطق سلطان اشترط:

- مساعدتي ستكون وقتيه!

دس يده في جيبه. عيناها حدثتاه:

"ليس بالمال وحده!!".

***

لقاؤهما ذاك.. كان سلطان مضطرا يحسم موقفهما بقدر حسمه مشاعره. الظاهرة المعضلة الخطأ. القرارات الخطأ. العلاج الخطأ.

"بدون!!".

شعورك الظلم الواقع عليك وأنت صاحب حق يختلف عنه وأنت بلا مقومات صاحب حق.

الاختلاف هنا لا يعني النفي المطلق، بقدر ما يعني نفيك ذاتك بصفتك الشخصية كإنسان منعدم الجذور .. بدون.

الطريق السيارة.. اقترابك منزلك .. وبدون ما سابق انذار يطلع عليك صوت أمينة عبر مذياعك المحتل، يردد على أسماعك:

"خواتي الكويتيات .. هذا يومكم .. ثورتكم..".

لعلك تجد التبرير، لكنك عاجز تجد العذر.

"نقطة سيطرة!".

(18)

آخر ما دار في ذهنه نقطة سيطرة عند مدخل بيته من الجهة المطلة على الشارع الرئيسي. إمكانية الاعتراض غير واردة. هم المحتلون، وهم – بالتالي – سادة الموقف.

لعل موقع المنزل عند ضفة الدوار.. لعل كثافة أشجار الحديقة – ما وراء سور المنزل – مما يحقق ظلالا تخفف حدة حرارة الشمس- لعل أمورا أخرى لا يدركها سلطان.

كان اقترب بسيارته، وكان رأي جنودا عديدين يعملون على إقامة خيمة بين أشجار حديقته، وآخرين ينشغلون يعدون لاختزال اتساع الطريق بدعامات معدنية وبراميل فارغة.

"ليس سوى هذا!!"

رددها ساخرة في داخله. خفف من سرعة سيارته، ريثما أوقفها عندهم. أشار له أحدهم.

- أمش!

يداخله شعور عابر بتحد هزيل. بإمكانه يقود سيارته حيث الشارع الخلفي. لا تراوده فكرة يفعل. يوقف محرك سيارته. يفتح بابها. ينزل. الجندي الذي سبق أشار له بالابتعاد يصرخ به غاضبا آمرا:

- ابعد سيارتك من هنا!

يرسم سلطان فمه ابتسامة باردة.

- هذا بيتي.

تنفرج أسارير الجندي فجأة.

- أهلا وسهلا.

يرفع صوته مخبرا رفاقه. الآخرون يتسارعون يحيطون بسلطان متهللين، كما لو انهم بانتظار فرصتهم هذه.

- «الاسم الكريم!».

سأله أحدهم. بادر أجاب:

- سلطان.

الآخر باستجابة ترحيبية:

- "عاشت الأسامي".

"كيف لمغتصبك يرتجلك مشاعر مجانية؟!".

- بيتك بحراستنا.

آخر:

- أنت وعائلتك أمانة في أعناقنا.

- ".. مغتصبك يرتجلك..".

- نرجو لا تنسونا بالماء البارد!

آخر:

- في ضيافة كريم.

تحلقهم حوله. ندمه تحديه الهزيل . لم يتردد طويلا.. استدار نحو سيارته. ركبها. بادروه سؤالا مشوبا قلقا فضولا:

- إلى أين؟!

- هنا.

أجابهم باقتضاب. سيارته كانت قد تحركت.

***

كان سلطان مؤهلا؟ لأن يحزن ويغضب في الوقت ذاته جراء وجود نقطة سيطرة عند الباب الرئيسي لمنزلة. وكان ملزما يبقي حزنه وغضبه في دائرة العجز. بيد أن حاله سرعان ما تبدلت لدى وصوله منزله من مدخلة الخلفي. جو من وجوم ثقيل يسيطر على جميع من في البيت.

"بهذه السرعة!!".

أحس بأثر ارتداد حالتهم عليه.

"الخارج والداخل!!".

الاحتلال واقع قائم. نقطة السيطرة جزء آخر واقع قائم. الكدر والهم .. تواصلهما قائمين .. الجدوى؟!.

الاحتلال .. قبول التعامل معه من خلال مواجهته. فعل إضراب عام وفعل مقاومة.

نقطة السيطرة هنا .. كيف؟!

- "مصيبة!".

غمغمت له إيمان في وجهه بقهر، استطردت مخبرة:

- .. أقاموا نقطة سيطرة عند ..

قاطعها:

- مررت بهم وأنا في طريقي إلى هنا.

عبد الله يجد فرصته يخبرّ:

- طلبوا ماء باردا!

يرده سلطان:

- طلبوه مني أيضا.

تساءلت إيمان بحيرة:

- العمل؟!

فاجأتها إجابة سلطان:

- نترك المنزل..

رفعت حاجبيها. تطلعت إليه مستغربة. واصل:

- .. أو نجد صيغة نتقبل بها ما هو حادث.

***

تحاشيا لجنود نقطة السيطرة المتواجدين عند المدخل الأمامي للمنزل يُصار إلى قصر حركة دخول وخروج المتواجدين فيه، وكذلك زواره، على مدخله الخلفي. قصر مهمة تلبية طلبات متوقعة من جانب جنود نقطة السيطرة، أن الاعتذار عن تلبيتها على عبدالله دون غيره من أفراد المنزل.

وجود الجنود عن كثب بشكل دائم يكون مدعاة حذر مستمر، شرط ألا يؤثر بشكل سلبي على ما يجب..

- عموما .. الكويت كلها تحت الاحتلال..

قالها سلطان، أضاف كمن يهدف يخفف:

- .. حالنا ليست أحسن من..

***

الأمور - كما بدت لسلطان - لا تأتي فرادى. كان دخل بهو منزله، لفت اهتمامه صوت مذيع تلفزيونه:

"نسترعي انتباه مشاهدينا الأعزاء .. إلى أننا سنقدم لهم بعد قليل تسجيلا كاملا لرسالة موجهة من طفل كويتي..".

وهو في *سيارته - قبل قليل - استمع من خلاله مذياعه لتسجيل* كامل.. رسالة أريد لها أن تكون .. أمينة زوجة رحال. الرسالة المزمعة الآن.. طفل من؟!.

وجه عمر فاضل يختفي من الشاشة، يحل محلة شعار مخطوط باليد على ورقة كارتون:

"تلفزيون جمهورية الكويت الفتية".

موسيقى حماسية في الخلفية. يدوم عرض الشعار لثوان. يختفي، يعقبه شعار ثان: "العار والدمار للأذناب وعملاء الاستعمار" يختفي، يعقبه شعار جديد: "النصر المؤزر حليف ثوار الكويت الأشاوس".

بعد قليل تبدأ موسيقى الخلفية بالتلاشي التدريجي. يختفي الشعار، ليحل محلة آخر: "رسالة من طفل كويتي". يبقى الشعار يحتل واجهة شاشة التلفزيون في حين بدأ صوت ناعم..

" يا أطفال كويت الثورة.. يا بُناة غد الحرية والوحدة..".

أذنا سلطان، قشعريرة باردة تجتاح جسده من داخله.

"كيف؟!".

غمغم بصوت مقهور. مرة ثانية - خلال يوم واحد - يصادفه من يغدره في يقينياته.

"أوان الخيانة!!".

استهدفه سؤال صدر عن شيرين:

- هل تعرف الطفل صاحب الصوت؟

سؤالها يشير تجاه شعار الشاشة. لعلها رصدت انفعالات تناوبت وجهه. أجاب كمن يقر ذنبا ارتكبه:

- أعرفها!

الصوت. النبرات. الرعشة المصحوبة بحة. الذهن والحضور والتمثل.

"هدى ابنة رحال!".

شيرين باقية تتطلع في وجهه بمشاركة حزينة.

- .. هي ابنة صديق ..

ردد موضحا، تذكر يستطرد آسفا:

- .. ربما!

***

الظاهرة بمسار تدرجها. بدأ ساعات احتلال أولى والمكالمة التليفونية التي تلقاها سلطان.

- "أنا رحال .. ما هو رأيك بالمتغيرات التي طرأت على الساحة الكويتية اليوم؟!".

علاقة ارتباط رحال بعمر فاضل، ومن ثم ظهور عمر فاضل - زي وطني - في شاشة التلفزيون بصفته كويتية غيورا على الثورة التحررية الظافرة.

اليوم - قبل قليل - أمينة ضمن مشروع رسالة من امرأة كويتية، أعقبها - الآن - هدى الابنة .. مشروع تكميلي.

"رحال.. الدور!!".

الزوجة والابنة في الواجهة .. لماذا؟!.. جس نبض الساحة!..رصد ردود الفعل تمهيدا لظهور رحال بشخصه؟!.

الزوجة والابنة المشاركة.. الهدف!!. الاحتلال تحقق في الظرف.. ما هو مؤقت زائل لا محال. إذن .. من يراهن على ماذا؟!.

***

سمع شيرين تبدي ملاحظة:

- الاسلوب نفسه!

كانت هدى أنهت رسالتها الصوتية أهابت بأطفال كويت العزة أن .. ضعوا نصب أعينكم المستقبل الزاهر الغني بالمنجزات الحضارية..

التفت سلطان إلى شيرين أوضحت:

- قبل وصولك بقليل أذاعوا رسالة أخرى بصوت امرأة كويتية.

رغب يشير:

- "ليس بعد!".

قالت شيرين:

- اكتفوا بالشعار المكتوب، ولم يظهروا صورة صاحبة الصوت.

كلمات سلطان تدافقت على لسانة:

- شعور الخزي وراء تواري الوجه خلف الشعار!

صوته يترجم مساحة الحقد المعتملة في صدره. في حين واصلت شيرين:

- أو من جراء عدم إمكانية إظهار الوجه. كي تكتمل الوظيفة الإعلامية للموضوع.

حدق فيها مندهشا، أكملت:

- .. كدمات .. اصابات .. آثار تعذيب.. مما يلغي – في حالة اظهار الوجه – الوظيفة الإعلامية للرسالة.. يحولها عكسها.

ما كان لسلطان يجرؤ يوافقها استنتاجها. انتظر عليها استطرادها. رسمت فمها ابتسامة باهتة.

- .. عدا قدرة تعابير الوجه.. العين بالذات .. على توصيل رسالة مضمنة مغايرة لرسالة الصوت.

"على افتراض كذلك..".

رددها سلطان مع نفسه. ما كان له يجرؤ يوافقها استنتاجها. انتظر عليها استطرادها.

- الرسالتان.. كلتاهما .. مشحونتان حماسا مفتعلا، مفرغا من ايما عاطفة حقيقية. كانتا نوعا مفضوحا من التلقين.

"حكم محايد".

خاطرة احتلت مقدمة ذهن سلطان. شيرين لا تعرف أمينة ولا أبنتها هدى، بناء .. موضوعيتها تمثل جانبا من استنتاجاتها. في وقت لهث فيه سلطان لدى معرفته الصوت - وراء مؤشرات التذكر ومن ثم الإحالة فالأدانة. إنما .. سواء كان هذا أو ذاك، أو أي استنتاج مشابه أو مغاير..

"ما الفرق؟!".

افراغ شحنة الحقد المعبأ بالحزن كيف؟!..

- "ما مغصوبتان!".

رددتها شيرين باقتناع.

- "هما رحال!".

رددها سلطان في داخله بقطعية لا تقبل الرد، لدرجة بدا معها وكأنه يدفع تهمة ليؤكد غيرها.

***

مع حلول الليل، وتفّر سلطان على نفسه بدأ نوع جديد من القلق يساوره إزاء المهمة التي ارتآها عليه أخوه عبدالمحسن .. صياغة أفكار حول المقاومة.

«البدء.. من أين؟!.. وكيف؟!».

شعوره عجزه حصر أفكاره، وتوجيهها ضمن مسار محدد.

«الممارسة والخبرة المتحصلة!».

سنوات خلت منذ نشر آخر مقال له. الكتابة - على أيامه- فعل عقائدي، يرتبط وثيقا بنشاطه السياسي، ولأنه كف يتعاطى السياسة.. معاودته الكتابة تعني عودته إلى الأوليات.

«الرؤيا والمنهج!».

موقفه الفكري أيامها.. اليسار العربي.. اتفاق وجهات النظر .. اختلافها أو تعارضاتها، هناك مسلمات ثابته غير قابلة للجدل.

المعسكر الرأسمالي الغربي وعلى رأسه أميركا حامية إسرائيل. وفي الجانب الآخر المعسكر الذي يضم قوى التقدم والسلام.. النظام العراقي – منحى قومي – يحتل موقع صدارة وسط قوى تقدم عربية.

الذي حدث.. أن النظام الذي كان يحتل موقع صدارة .. صار يحتل الكويت وأن معظم قوى التقدم العربي، أنظمة ومنظمات..

- ليس من جراء شعور الخيبة وحدها.

قال سلطان لإيمان محاولا يشركها هواجسة، أراد يضيف موضحا أكثر، لكنها عقبت وقد حدست توزعه:

- أنت لن تنزع جلدك!.

***

المهمة ومهمة وفاء الوعد بالانجاز. اجتزاء الشخصية. فصل المسلمات إزاء وقائع ماثلة لا سبيل للشك بها. ولأن لا خبرة مسبقة فيما هو مقدم عليه.

مكتبته – عناوين شتى – مهملة بعيدة عن متناول اهتمامه منذ سنواته تلك. فسحة الوقت. احتياجه مساعدة آخرين. طلب من شيرين وهدى.. جردا سريعا لكتب مكتبته.

- عناوين ذات علاقة بالمقاومة والاحتلال!

الاثنتان تحتفيان بالتكليف. تبادران على الفور. بعد ساعة توفرت له بضعة عناوين.

***

عود على بدء. ها هو يستنفر ذهنه يفعل شيئا. كان اعتصم في ديوانيته. اقتعد الأرض على السجادة. الكتب التي طلع بها تحيط به. يده .. أقرب كتاب.

"فرنسا تحت الاحتلال النازي".

فرنسا – الكويت، أوجه الاختلاف: التركيبة السكانية، الكثافة البشرية، الرقعة الجغرافية، المساحات والتنوع..

أوجه تشابه، واضطر سلطان يسلم أنها تنحصر في جانب واحد: المنحى الفاشي للمحتل، مع تميزه هنا. كونه عربيا.

تصفح الأوراق. تمثل عند: وحدات تنظيمية سرية. مجموعات صغيرة ضاربة سهلة التحرك والاختفاء. تعميم استخدام الشفرة. الأسماء رموز وأرقام. شكل ارتباط مكين يتخذ طابع البناء الهرمي.

***

دخلت عليه شيرين.

- ما زلت تعمل!

صوتها بمحبة مشوبة اعجابا. تنبه إلى الساعة. كانت جاوزت منتصف الليل طالعها ابتسامة حائرة.

- ولم أنجز شيئا!

عيناها تدوران على المكان. معظم الكتب بصفحات مثنية في أكثر من موضع. قال موضحا:

- اطلاع سريع، وتركيز على اختيار أجزاء تخدم الغرض.

صوتها يتردد مبدية استغرابا محببا:

- وتقول .. انك لم تنجز!!

لم يجد ما يعقب به. كانت جلست قبالته.

- ما الذي يمكن أساعد به؟

نشوة عرفانه تتنمله في صدره.

"هذا الحضور الرائق".

حافز نشاطه، واستعداده يعمل إلى ما لا .. كان كره يبدي اعتراضه تبقى.

***

توجه شيرين واستعدادها. كانت عهدت لنفسها مهمة تفريغ معلومات محددة منتقاة على بطاقات.

"الاعداد .. مرحلة أولى».

- مبعث فرح .. أراك تعود تكتب!

صوتها يشمله اعتزازا. صارحها رده:

- لم أكتب بعد.

ردها يتضمن ثقة هادئة:

- ستكتب!

ود يرقى حدود الثقة. الحافز الطموح، ووقت يتسرب كما من بين الأصابع. تنبه إلى أن الليل ما عاد. أنوار الفجر بفضيتها المنطفية تعبر زجاج النافذة.

البيت – ما وراء الباب المورب للديوانية ما زال ينام. تطلع في وجه شرين. آثار الارهاق تضفي هالة من جاذبية موحية.

- مفروض بك تنامي!

قالها مترددا. حدقت إليه في عمق عينيه.

- وأنت؟!

(19)

العالم بمتغيرات متسارعة. انهيارات بورصات. سعر برميل البترول يقفز ليصل واحد وثلاثين دولارا. دول آسيوية وأفريقية عديدة، ممن كانت تعتمد على البترول الكويتي والعراقي بدأت تبدي قلقها إزاء احتمال نضوب احتياطها من البترول.

مجلس الأمن يصدر قرارا بمقاطعة العراق مقاطعة شاملة.. حتى رضوخه للقرارات الدولية. القرار المذكور جاء بأغلبية الأصوات. اليمن وكوبا امتنعتا عن التصويت.

المملكة العربية السعودية - جراء الحشود العسكرية العراقية هائلة العدد على حدودها الشمالية - تطلب حماية مجلس الأمن الدولي.

الولايات المتحدة الأمريكية - احدى الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن - تستجيب لطلب المملكة العربية السعودية تبدأ ترسل طلائع قواتها. دول غربية أخرى- بريطانيا، فرنسا- تحذوان حذو الولايات المتحدة الأميركية.

القيادة العسكرية الأميركية تصدر أوامرها إلى حاملة الطائرات "اندبندنت" بالتحرك تجاه المنطقة.

بعدما عجز نظام بغداد يجد أيما شخصية كويتية يدفعها إلى واجهة الأحداث، تأكيدا على ما حدث ويحدث في الكويت لا يعدو كونه شأنا داخليا أساسا، كما سبق أعلن وما زال، وبسبب حساسية الموقف الدولي وما يترتب على استمرار غموض الحالة، اضطر النظام المعني يصيغ إعلان التشكيل الكامل للحكومة الكويتية المؤقتة بالأسماء والرتب مجموعة مفترضة لكبار ضباط مفترضين، مجهولين لدى عامة الكويتيين.

***

جفناه يطرفان. وحين فتح عينيه تفاجأ بضوء النهار يغمر ديوانيته. احساسه الوقت. حدق في ساعة معصمة. جاوزت العاشرة.

يبدو أن سهر البارحة .. تلفت حوله. الكتب باقية مبعثرة، وأصوات من في المنزل تصله عبر الباب الموارب.

أرهف أذنيه. الأصوات بحيوية لم يعهدها منذ أيام. خيل إليه أنه سمع جانبا من ضحكات.

«الأمر لا يخلو..».

لم يجد تفسيرا. تحامل على نفسه ينهض. جسده يحتاج مزيدا من نوم.

«ليس وقته».

أطل من الباب المؤدي إلى بهو المنزل. الجو العام أقرب لأن يكون احتفاليا. الجميع يلتفون حول التليفزيون. الشاشة تعرض شريطا لآليات عسكرية متحركة. دبابات مدرعات، حاملات جند. زاوية الكادر شاهد عددا من نسوة متلفعات بعباءات سوداء يحملن دفوفا ويرددون أغنية، أريد لها تكون وطنية عراقية، وغير بعيد عنهن وقف عدد من الأطفال نصف حفاة يشاركون بالتصفيق. شعور غامر بالدهشة يأخذ على سلطان حواسه.

«ماذا هناك؟!».

ما كان صرح عن سؤاله بعد، وكانت إيمان هتفت له مستبشرة:

- صباح الخير.

ما كان أجاب تحيتها بعد. كانت أضافت مخبرة بفرح باد، وأصبعها تشير إلى شاشة التليفزيون:

- الجيوش العراقية بدأت تنسحب من الكويت!

***

لوهلة أولى دار ذهن سلطان حول الفكرة دون أن يستوعبها. وصله صوت شيرين يسأله بمحبة:

- ترغب تفطر؟

وجد نفسه يغمغم:

- ليس قبل أن ..

لم يجد ما يستطرد به. الأمور بمعطيات وثوابت قابلة لإلمام محدد. ما سمعه وما يراه لا.. تنبه إلى عبد الله يعبر الباب داخلا. يوجه كلامه لإيمان:

- جنود السيطرة يسألون أن نعيرهم قدرا يطبخون فيه طعامهم.

الأمور بمعطيات وثوابت، فان لم .. اجتياحهم الكويت فجر يوم الخميس.. البيانات

والمراسيم. الإجراءات، وتدفق الجيوش.. مئات الآلاف من الجنود. التمركز والإنتشار. أحكام القبضة. حشود هائلة على الحدود مع المملكة العربية السعودية.

"أين لك قدرة التخيل؟!"

لوهلة أولى دار في ذهن سلطان:

"مع نظام مثل نظام بغداد لك أن تتوقع ما لا يمكن توقعه".

لعلهم فهموا ما الذي يعنيه إصرار العالم على معارضة ما قاموا به، وإدراكهم للنتائج الوخيمة التي ستترتب.. لو واصلوا احتلالهم الكويت.. لعلهم اكتفوا بما اقترفوه، وآثروا تداركوا..

تذكر لقاءه بالفلسطينيين أمس. تذكر إخوته. التكليف بالكتابة .. شعوره بالجهد المعلق. هامشية ان تسارع وتندفع..

«الانسحاب في حالته. من الذي يعيد الأمور إلى نصابها؟!.. إهانة شعب.. أعمال السلب والنهب.. والقتل.. الشهداء.. وأولئك الذين تشردوا في وطنهم.. أو بعيدا عنه!!.. مسؤوليات الاقتراف!!.. محاسبة من؟!».

يتوقف عرض شريط الآليات العسكرية. لتبرز على الفور يافطة من ورق مقوى كتب عليها خط اليد:

«الفرق الشعبية في محافظة البصرة تحتفل مرحبة بعودة قطاعات جيشنا العراقي المظفر».

شيء ما أشبه بالانتهاك يستبد بسلطان.

«انسحاب مظفر.. كيف؟!».

ليس عودة وعي. الاقتراف الوارد ما زال واردا. الإهانة والاستهانة.. يافطة الورق المقوى تنسحب، تحل أخرى.

«وحدات جيشنا الباسل تبدأ عودتها إلى أرض الوطن بعدما أنجزت مهامها القومية العظيمة الموكلة إليها».

«إذ كان احتلال الكويت..».

الخاطرة، وهي ترد، تبقى ناقصة المعنى، لا تجسد تفسيرا سوى طوفان حقد.

«رجع الصدى».

عينا سلطان تلتقطان عيني إيمان. سمعها تسأله بصوت ينشحن جزعا:

- تظنهم يكذبون؟!.

***

شاشة التليفزيون تعود تعرض شريط الآليات العسكرية المدبرة لثوان، يعقبه قطع، ومن ثم ظهور لمذيع عراقي ذي وجه استخباراتي.

"إليكم .. مشاهدينا الشرفاء قراءة النص الكامل للبيان الصادر عن مجلس قيادة الثورة العراقي..".

تنبه سلطان إلى القيافة المرسومة التي ظهر بها المذيع. ربطة عنقه المحكمة الشد بلونها الأحمر، وصوته المفرغ:

"بناء على طلب من مجلس قيادة الثورة في الجمهورية الكويتية الفتية الشقيقة وحكومتها المؤقتة..".

انسحاب كاذب؟!.. أم التفاف حول حقيقة لا وجود لها بهدف تأكيد زيفها؟!.. القائمون على نظام بغداد ومنحاهم صياغة اللاوقائع.

".. نظرا لاستتباب الأمن والاستقرار في ربوع الكويت الحبيبة وعودة الحياة إلى مجراها الطبيعي .. تقرر سحب وحدات جيشنا الباسل من أراضي الجار الشقيقة، على مراحل منتظمة، بدءا من اليوم..".

المذيع إياه يحتل موقع الصدارة من الشاشة.

«الرد الحاسم بالبرهان القاطع على نهازي الفرص ودعاة الفرقة من الذين اعتادوا التصيد في الماء العكر.. وإنها لفرصة مناسبة تثبت بها القيادة الحكيمة لعراق المجد والسؤدد إنها أبعد ما تكون عن التفكير بأطماع..».

لعبة الخداع لها قواعدها. وبعكسه..

«.. والآن .. مشاهدينا الأحباء.. إليكم قراءة لنص برقية الشكر التي تلقاها مجلس قيادة الثورة العراقي من نظيره الشقيق مجلس قيادة الثورة الكويتي..».

اللعبة، وانقلابها على اللاعب.. متى؟!.

«.. وإذ نغتنم هذه الفرصة لنرفع أسمى آيات..».

كان سلطان تململ في وقفته. عضلات وجهه تنشد جراء فعل غير مدرك. الاشمئزاز له مظاهره.

- أعد لك شايا!

شيرين تسأله برقة، تزمع تنشله من حالته، يطبع فمه ابتسامة إصرار هادئ. يجيب بما يعني عرض مشاركة:

- تنجز تصنيف أوراق عملنا عليها البارحة..أولا!.

***

أيام أربعة ويوم خامس على الاحتلال. النظام العراقي – بناء على شرائط تليفزيونية – يبدأ بسحب قواته من الكويت، ليس رضوخا لإرادة المجتمع الدولي، وإنما استجابة لطلب من أولي أمر كويتيين مفترضين، في وقت يجري فيها تعزيز نقاط السيطرة بنقاط أخرى، مع انتشار مدروس لمزيد من القطاعات العسكرية داخل المناطق الكويتية، ومضاعفة زخم أعمال السلب والنهب والتدمير، مصحوبة بحملة اعتقالات وإعدامات واسعة.

أنباء الداخل .. منطقة كيفان إثر صمود أسطوري دام أربعة أيام .. الدبابات والمدرعات وحاملات الجند .. اجتياح منظم. التصدي وحدة الاشتباكات. البندقية بمواجهة الدبابة.

أنباء الداخل.. مقاتلو كيفان ينسحبون بأسلحتهم. يختفون أمام زحف العدو، كما لو ابتلعتهم الأرض. إرادة قتالية.. ومن ثم ظهورهم يواصلون أعمال المقاومة – وحدات صغيرة – في مناطق أخرى شتى.

***

أيام أربعة ويوم خامس. مساحة من الزمن كفيلة تكشف عن مواقف الأشقاء بوضوح لا يقبل التأويل.

المملكة العربية السعودية ودول مجلس التعاون الخليجي الأربع الأخرى.. حالة حرب مع نظام بغداد. الاستنفار العام على مستويين: شعبي ورسمي، واستعداد فعلي لحرب فعلية. الاعتداء على الكويت اعتداء على الدول المذكورة.

الرئيس حسني مبارك - مصر - يبدي انزعاجا وغضبا لا حدود لهما. حليفه الأساسي في مجلس التعاون العربي - مصر ، العراق، أردن، يمن - نكث العهد، وقوض صيغ التعاون العربي كلها.

«كان وعد شرف!».

الرئيس المصري يقول ما معناه. يواصل:

«.. ان لا يقدم على إجراء عسكري..».

ضمير المفرد الغائب يعود على رئيس النظام العراقي.

«.. كان قال إن حشده جيوشه على الحدود الكويتية بقصد الضغط على حكومة الكويت لا غير..».

غضبه يتشبع مرارة:

«.. *أما .. القيم والأعراف عرض الحائط.. اجتياح بربري وحشي.. أفراد الجالية* المصرية هناك شهود عيان..».

اليمن تبدي عدم ارتياحها لما حدث، ترتأي حل الخلافات العربية عربيا، كما يجب تجري العادة، لكنها في الوقت نفسه تشجب وتندد وتدين تدفق القوات الأجنبية الامبريالية إلى المنطقة. تنبه إلى الخطر العظيم الذي سيترتب على مركزة الاستعمار في الوطن العربي، وتنوه إلى صورة مساندة النظام العراقي، ما دامت الضرورة، وما دامت قوى العدوان الغاشم تستهدف - بالأساس - تقويض منجزات العراق الحضارية.

تونس تبدي اندهاشها إزاء احتلال العراق للكويت. أوجه الخلاف مهما تفاقمت يجب ألا .. وبالتالي لا بد من التروي وأحكام العقل، وضرورة التوجه لإيجاد حلول من خلال مفاوضات الأشقاء مع بعضهم البعض، ولا مبرر لمنح الأجنبي فرصة يتدخل في شؤون عربية محضة.

الرئيس السوري حافظ الأسد لا يبدي استغرابه من اجتياح العراق للكويت. يقول ما مفادة.

«أمر متوقع من مثل نظام عدواني دموي توسعي كالنظام العراقي.. وها هي حربه الظالمة طويلة الأمد مع جارته إيران..»

عن الحدث الراهن يضيف:

«الاحتلال العراقي للكويت مرفوض شكلا ومضمونا. مطلوب إسقاط نظام بغداد. تخليص الشعبين: الكويتي والعراقي من نير..».

الجزائر، ليبيا، موريتانيا، الأردن، السودان.. موقف عام معلن:

«رفض فكرة احتلال بلد عربي لبلد عربي آخر، وصورة لجوء الأطراف المتنازعة إلى طاولة المفاوضات..».

موقف معلن أيضا:

«الشجب والتنديد لأي تدخل أجنبي .. بغض النظر .. ولزوم النظر إلى موقف العراق بصفته مستهدفا من قوى استعمارية شرسة».

المغرب، لبنان، الصومال، جيبوتي:

«إقدام النظام العراقي على احتلال الكويت عمل عدواني لا تقره الأعراف.. يجب: انسحاب فوري غير مشروط، وعودة الأوضاع إلى ما كانت عليه.. فيما يخص الخلافات الثنائية بالإمكان حلها بالطرق السليمة..».

***

انكباب سلطان جمعه المعلومات المستقاة من كتب البارحة، وبدء تصنيفها. انغمار شيرين معه تشاركه.

- أوشكنا ننتهي!

قالتها بارتياح باد. ندت عنه زفرة حائرة.

- لا أجزم!

تطلعت إليه. في عينيها نكرانه جهدهما. عز عليه يخذلها، واصل كمن يشرك الآخر همه:

-.. جمع المعلومات مرحلة تمهيدية.. لكنما الصياغة..

ضمن النصف الثاني من جملته معنى الاستحالة، وتركها مفتوحة. تظل مبقية عينيها على وجهه.

- وأنا التي تتلمذت على كتاباتك!

ليس شعورا بالخذلان بقدر ما هو بالتحدي. فمه ينفرج ابتسامة باهتة. أراد يوضح أكثر. قال:

- محاولة أقلمة يقينيات الأمس مع وقائع ماثلة!

تفاجئه بسؤال مستغرب بدا عفويا وحاسما في الوقت نفسه:

- لماذا الأقلمة؟!

***

حالة نادرة ومتميزة.. تجد انعكاس الجانب المغفل من شخصيتك لدى الآخر. حين أبدت شيرين استغرابها:

- «لماذا الأقلمة؟!».

أحس سلطان كما لو أنه أضيء داخل ذهنه. أعاد إلقاء السؤال على نفسه، ولم يجد تبريرا كافيا يحفزه البحث عن إجابة. ليخلص إلى استنتاج:

« لا إجابة»

ما كان عن موقفه أيام تعاطيه السياسة قبل سنوات، وما هو كائن الآن، ولا سبيل لمقارنة أو مفاضلة.

أيامه تلك وتوقه مشاركته تشكيل الحياة نحو وضع أفضل من خلال معارضة وضع قائم. أيامه هذه.. هيمنة الاحتلال واستهدافه الحياة ذاتها، تدمير الكيان العام، مسخ الهوية بقصد طمسها هيمنة الاحتلال واستهدافه الحياة ذاتها، تدمير الكيان العام، مسخ الهوية بقصد طمسها أبدا.

أيامه تلك .. مجال الاختيار يمنح إمكانية المفاضلة. أيامه هذه يتحدد اختيارك يكون، أو لا يكون بالمرة.

- «من منا تتلمذ الآخر؟!».

سؤال ورد ذهن سلطان ولم يصرح به لشيرين. كانت انتهت مما بيدها. وكان شنب نظرة امتنان، أو افتتنان.. لا فرق.

«حافز الفعل- في حقيقته- حافز الحياة».

***

ازماع الكتابة.. وكان ناس الداخل- أثر توقف الصحف الكويتية عن الصدور منذ اليوم الأول للاحتلال - عرفوا يتدالون، على نطاق واسع، العديد من الصحف الكويتية السرية، التي بدأت تتكاثر كما نبات الفطر. ساعد على ذلك غياب الإذاعة والتليفزيون المحليين، وتوق الناس لمعرفة ما يحدث لهم - بينهم - أولا بأول.

مجموعات صغيرة. بعض منها لها دراية صحفية، وبعض آخر لا .. خلايا نحل.. مواصلة النهار بالليل. كتابة باليد، أو الآلة الطابعة. الاستفادة من أجهزة التصوير. عشرات النسخ.. مئات، ومن يحصل على نسخة مسؤول يعيد كتابتها أو تصويرها، بهدف تحقيق انتشار أوسع.

اجتهاد صياغة أخبار الداخل. الاحتلال بإجراءاته القمعية، وما يترتب عليها، توازنها أخبار أعمال المقاومة الكويتية.. يضاف.. متابعة الأخبار الخارجية الهامة. الأخبار الكويتية القادمة عن خارج.. خصيصا.

اجتهاد صياغات إبداعية. قصائد عفو الخاطر، وخواطر تحث على المزيد من الصمود ومواجهة المحتل. إضافة إلى توجيهات ترشد الناس إلى كيفية التصرف في ظروف محددة. حرب شاملة أو حرب كيمياوية.

الصحف السرية.. وظيفة إعلامية جماهيرية تفي جانبا حيويا من غرضها الإعلامي. الاحتلال .. متابعة ما يجري.. حالة غضب هستيري.

«الإعدام لمن يعمل على إصدار صحيفة سرية!».

لأن الاجهار إعلاميا يمثل هذا القرار غير وارد.

«نظرا لاستتباب الأمن والاستقرار في ربوع .. وعودة الحياة إلى..»

جرى إبلاغ عامة الناس استعانة بجنود نقاط السيطرة.

«نصيحة خالصة!.. إذ أن الوضع الآن غيره أيام قارون!».

لا مكان للتهاون مع شعب غير قابل يُساس.

«عقوبة الإعدام لمن يلقى عليه القبض وبحوزته منشورات تخريبية!».

جنود نقاط السيطرة يمحضون الكويتيين نصيحتهم.

«حيث لا ينفع الندم!».

المعنيون يبتدعون وسائلهم. نسوة كويتيات يتولين مهام نقل الصحف المعنية وتوزيعها.

***

ازماع الكتابة. كان سلطان فكر يعمّق استيعابه للوضع بمراجعته مقتطفات من صحف المقاومة، وكان ارتأى على شيرين تعدها له.

- كثير جدا!!

أبدى سلطان دهشته عندما رأى حصيلة ما جاءته به شيرين، وتساءل مع نفسه عن موقع ورقة يزمع يصيغها وسط هذا الكدس الهائل من الأوراق.

(20)

- مرحبا .. أنا أبو الفدا.

يصله صوت الآخر في التليفون مخبرا، يواصل موضحا:

- .. من طرف أخيك هلال.

عمق طبقة الصوت وضخامته. خيل لسلطان أنه إزاء شخص عملاق، ولم يجد ما يقوله سوى:

- كان هلال خبرني.

يبقي جملته مفتوحة على فهم الآخر. يعوده الصوت:

- تحديد موعد لقاء!

يتشتت ذهن سلطان لثوان.. البارحة.. اليوم .. إطلاعه بعض الكتب.. الوريقات كان استخلصها، هو لم يستعد بعد. يعوده الصوت من جديد يسأله بصيغة لا تخلو من طابع آمر:

- الآن.. إن شئت!

جهد سلطان يتخيل ملامح وجه محدثه. لم ينجح. سمع صدى عرض الآخر:

- «الظرف لا يحتمل التأخير!».

رغب يسأل:

«أين؟! .. كيف؟!»

عندما استطرد الآخر مقررا:

- نصف ساعة .. أكون عندك.

أضاف كمن يطمئن:

- عنوانك واضح.

الأمور باستباقها. ليس أمام سلطان غير أن يستجيب موافقا. تذكر نقطة السيطرة عند المدخل الرئيسي لمنزله. نبه قائلا:

- أسلك الطريق الخلفية!

الآخر بامتثال متفهم:

- «صار معلوم».

***

حين وصل أبو الفدا.. مربوع القامة.. يميل إلى السمنة.. جاوز الثلاثين. بشرة بيضاء مشربة حمرة. عينان لوزيتان واسعتان.

- فيك الكثير من أشباه أخيك هلال!

قالها مبديا مودة غير مفتعلة وهو يمد كفه مصافحا بحيوية واضحة.

- هلال- ما قبل الاحتلال- يعرفني بشكل شخصي.

كلماته تتدفق من فمه بدلالة المكاشفة. سلطان يصغي إليه. كانا اتخذا مجلسهما متقابلين في ديوانية الأخير.

- تسمح لي أدخن!

قطع حديثه مستأذنا، وبادر – قبل سماعه الرد – أخذ لنفسه سيجارة. أشعلها، ثم واصل:

- ليس استباقا للأحداث..

كلماته أشبه بتمهيد لما يلحق.

-.. لكننا .. مجموعة شباب لبنانيين من المقيمين هنا. قررنا – منذ اليوم الأول للاحتلال. شكلنا وحدة مقاومة.

فمه ينفرج ابتسامة هادئة.

-.. لعله من المناسب أننا جميعنا .. خبرات قتالية مسبقة.. أعمال مقاومة في الجنوب اللبناني.

يسحب لصدره نفسا عميقا من سيجارته.

-.. ليس استباقا للأحداث أيضا..

مهد بها لما يليها، أكمل:

-.. أسمينا وحدتنا.. "وحدة أبو الفهود" اللبنانية.

ابتسامته الهادئة تتأكد حزينة على فمه.

-.. تيمنا بشهيد الكويت الأول .. الشيخ فهد الأحمد.

سلطان يتمعن كلمات محدثه. يتنبه يصغي.

-.. الشهيد – كما تعرف –

يستطرد أبو الفدا بمنحى المكاشفة ذاته. يضيف:

-.. سبق وقاتل في لبنان. كان متطوعا في صفوف ..

يخفت صوته فجأة:

-.. فتح.

سلطان لا يعقب بشيء. تسود لحظات صمت معبأ، سحق أبو الفدا عقب سيجارته خلالها. أشعل ثانية. حرك رأسته كمن يطرد خاطرا ما من ذهنه. حدق في وجه سلطان.

- هل نبدأ ما نحن بصدده!

***

الكويت – كوضع جغرافي – تختلف عن لبنان. مساحة مسطحة منبسطة ومكشوفة، حيث لا جبال، ولا وديان، لا غابات، لا تضاريس.

- القصد..

قال أبو الفدا، وأتم:

-.. ليس من إمكانية لإنشاء قواعد للتدريب أو التجميع، أو معسكرات، على أساس أنها مناطق مقصورة على حركة المقاومة، أو أنها من الأراضي المحررة.

- يؤمن سلطان بحركة موافقة من رأسه.

-.. انطلاقا من هذا الواقع الصعب.. علينا أن نتعامل مع الكويت كلها بصفتها قاعدتنا وميدان قتالنا في الوقت نفسه.

- شيء آخر ترتب على الحال القائمة للاحتلال .. مطلوب منك تعيش مع العسكر العراقيين، بينهم، تصاحبهم جهارا، وفي الخفاء..

- الأهم من هذا وذاك..

ابو الفدا يشدد على كلماته:

- .. مدى معرفتك عدوك. مفروض بك تعرف عنه عاداته، طقوسه، معتقداته،

أنماط سلوكه.

يختزل مفرداته:

-.. عليك تفهم منحاه التفكيري.

سلطان يتابع يسمع باهتمام.

- .. لو عرفت تفعل وصلت إلى مرحلة تفهم معها كيف يفكر عدوك، وبالتالي توصلت واستنتجت كيف يتصرف أو يسلك.

- دار في بال سلطان تساؤل:

- «هل سيستغرق الاحتلال وقتا.. بما يعني حجم المعرفة المقصودة ونوعها؟!».

- بما أن عدوك عربي مسلم مثلك..

أبو الفدا يواصل كلامه:

- .. لن تجد كبير جهد باستيعاب حدود شخصيته.

يتذكر يشير:

- ولن تواجه صعوبة حقيقية بالتأقلم مع معارفك عنه.

مرور الوقت. كان سلطان تذكر يسأل ضيفه:

- «شاي"!.. أم قهوة!

ضيفه وقد بدأ يتأقلم مع المكان:

- قهوة .. أولا.

***

مساحة الوقت والموضوع. بحث في العموميات بالدرجة الأولى. محاولة تشكيل ملامح رؤيا، عسى يجيء استيعاب ما هو مكلف به بعد ذلك.

- لعلك أطلعت على نماذج من المنشورات والصحف الكويتية السرية التي تصدت للاحتلال!

خاطب سلطان ضيفه، محاولا يشرك الآخر منحى تفكيره على طريقته. وصلته إجابة محدثه:

- معظمها .. إن لم يكن كلها.

وقبل أن تتوافر لسلطان فرصة يعقب، أكمل أبو الفدا مبتسما:

-.. نحن بدورنا أصدرنا بيانا باسم الجالية اللبنانية هنا. أدنا فيه الاحتلال منذ اليوم الأول.

خبره – وهو يدليه – بدا كما لو أنه تحصيل حاصل. واصل بما يعني الأهمية:

- ما تزمعون انتم كتابته يختلف عن كل ما سبقه..

سلطان يهتم ويسمع.

-.. ما كان حتى الآن.. صحف سرية إخبارية تحريضية تندد بالاحتلال، وتحث الناس على الصمود والتحدي..

يتحري دقته:

-.. هذا لا ينفي أهمية هذه الصحف والمنشورات وخطورتها، لدرجة أجبرت العدو يهدد بإنزال عقوبة الإعدام..

-.. ما أنتم بصدده .. كما فهمت من أخيكم هلال..

يفصّل كلماته:

- نهج تأسيس حركة مقاومة..

الإشارة والمؤشر. كان سلطان يجهد يلاحق أفكاره.

***

مساحة الوقت .. خوض تفاصيل بدت كل واحدة منها – لدى التعرض لها – أكثر أهمية مما سبقها.

المقاومة جهد نوعي بالدرجة الأولى، عليك أن تثبت لعدوك ببرهان فعلك أنه عاجز يهيمن على بلدك وناسك لينام ملء جفنيه.

اختيار الهدف بما يحقق عنصر مفاجأة العدو وذهوله. الابتعاد تماما – في ظرف التأسيس بالذات – عن الأهداف التي تحمل عنصر مخاطرة عال، حتى لو توفر إغراء إيقاع عدد كبير من الإصابات في صفوف العدو.. ليس أرخص من حياة العراقيين على نظام حكمهم.

ردود فعل انتقامية من جانب العدو أمر وارد. تجنيده طاقاته لكشف أي تشكيل للمقاومة .. مراقبة .. ملاحقة.. محاولات اختراق. أعمال تنكيل..

هيكلية حركة المقاومة يجب تأخذ طابع تنظيم سري، مركب من خلايا محددة العدد.

- المسألة، بهذا الخصوص، نسبية.. حسب ظرفها.

الذي يراه أبو الفد – إزاء وضع كوضع الكويت، واحتلال عربي.. بالأساس - ان لا يزيد عدد أفراد خلية المقاومة الواحدة عن خمسة، فان زادوا .. قسمت الخلية إلى اثنين. كذلك لا يجب أن يقل عدد أفرادها عن ثلاثة، فان كانوا أقل .. الحقوا بخلية أخرى.

أفراد الخلية الواحدة يعرفون بعضهم.. لا بدّ من إحكام سرية الخلايا الأخرى كافة.

بعد تشكيل الخلية المعنية مباشرة يجري اختيار واحد من أفرادها يتولى مهام الارتباط والتنسيق.

ارتباط الخلايا ببعضها يتم بناء على الموقع أو طبيعة العمل.. كل خمس خلايا بارتباط قيادي واحد، فأن زاد العدد.

***

- بسبب من ضيق الوقت..

قال أبو الفدا، واصل:

-.. جئتك هكذا.. دون استعداد مكتوب..

يدعم حجته بابتسامة ودودة.

- .. عدا أني كنت محتاجا أتعرف على الشخص الذي سأتعامل معه. فهم سلطان أنه المعني. بادله ابتسامة ماثلة. آثر يسمع المزيد.

- بعد عودتي مباشرة..

مهد أبو الفدا مخبرا، استطرد:

-.. سأنكب أدوّن معلومات ضرورية تهم عمل المقاومة، وستكون تحت تصرفك خلال أيام معدودة.

يصمت برهة قصيرة يحصر ذهنه فيها.

- هناك معلومات هامة تخص طرق الاتصال واستخدام الرموز والأرقام، وكذلك معلومات عن كيفية التعامل مع السلاح، إذ أن حياة رجل المقاومة مرهونة - في ظرف المواجهة - بسلاحه.

المقاومة - أيما حركة مقاومة - لن تتوفر لها فرصة تعيش وتفعل أن لم تغنم أساسيات استمرارها من عدوها.

- مطلوب منك تفكر كيف تغنم سلاحك من يد عدوك.

فمه ينفرج ابتسامة دالة.

- .. تقتله بسكين كي تأخذ بندقيته.. تقتله بالبندقية كي تستولي على مدفع رشاش..

القصد.. لا يأتي اعتمادك الأساسي بالتموين واستمراره على مساعدات خارجية، واردة أو محتملة.

- الاحتلال .. والحرب النفسية. ضرورة إيلاء هذا الجانب ما يستحقه من أهمية. الانتباه للأساليب التي يتبعها العدو .. مواجهتها بما يناسبها..

الاستفادة من نقاط ضعفه. شق وحدة صفوفه. استخدام سلاح الإشاعة.

- الاحتلال العراقي حالة هجوم. الكويتيون - في عقر دارهم - حالة دفاع.. خير وسيلة للدفاع هي الهجوم.

ابتسامته الدالة تتعمق على فمه.

- العمل بوتيرته الصاعدة. يتوجب عليك ألا تمنح عدوك فرصة يلتقط أنفاسه. فان فعل تفرغ لك، يلاحقك كي ينال منك.

الوقت بوتيرة متسارعة. تذكر سلطان موجبات الضيافة. ..

- قهوة؟!

سأل ضيفه، لكن اختيار الأخر:

- "شاي».

***

سلطان، ملاحقته لما يقوله محدثه. ذهنه ومحاولته يشكل الصورة. الخطوط

العامة. الرؤيا ووضوح يجب..

- أمر مهم جدا..

أبو الفدا يخوض تفصيلاته.

-.. المقاومة تتشكل بحوافز وطنية تطوعية. ان تنضم إلى صفوف المقاومة يعني إنك تقبل تموت.

التماعه اليقين تتبدى في عينيه.

- ..هذه الحقيقة – على صلابتها – لا تمنع الاختراق.

- صوته ينحو مخاطبة:

- .. مهما كانت معرفتك بعدوك وفهمك له.. إياك تتعامل معه على افتراض إنه غبي أو متخلف أو أحمق، حتى لو دلّت تصرفاته وممارساته على ذلك.

ينحو تحذيرا واضحا:

-.. تنبه دائما إلى .. عدوك يدس وسط صفوفك عونا من أعوانه، بهدف أن يكشف تنظيمك..

هاجس الخطورة:

-.. فإن كان له ما أراد، كانت القاضية بالنسبة لك!

***

ارتباط ايما فرد، ومن ثم قبوله عضوا، يجب يخضع لشروط تترتب عليها مراحل ذات طبيعة اختباريه، وقبل هذا وذاك لا بد من تزكية موثوقه متبوعة بتقص واف عن التركيبة السلوكية للفرد المعني، ماضيه، مواقف وممارسات سابقة منسوبة إليه.

- أمر آخر لا يقل أهمية..

أبو الفدا يواصل خوضه تفصيلاته:

-.. القدرات الجسدية والنفسية للفرد.

إصغاء سلطان يأخذ عليه حواسه.

-.. هناك أفراد يصلحون يتولون أعمال مراقبة وتجميع أخبار.، ويعرفون يوفقون

في هذا وحده.. وهناك آخرون يصلحون لأداء مهمات قتالية.. وبين الحالتين حالات شتى.

يصمت برهة قصيرة جدا.

-.. الرجل المناسب في مكانه المناسب. لا محسوبيات، لا عواطف، لا مهادنة، لا تهاون.

يبذل جهده يختار كلماته:

-.. الالتزام يعني الوفاء بالفعل، وليس الوعد بتنفيذه.

سلطان يبذل جهده يلاحق المعاني.

- النشاطات الميدانية تفرز قياداتها. القيادة - في خضم فعل المقاومة - تعني حجما من الخطر أكبر.

يتحول إلى أسلوب مخاطبة:

- أنتم ما زلتم في أول الطريق، والحديث عن تشكيل قيادة- الآن - سيكون سابقا لأوانه..

***

مدة اللقاء جاوزت ثلاث ساعات. كان أبو الفدا تأقلم خلالها أكثر. الحديث - بمنحاه التعليمي - شارف انتهى.

- بالمناسبة..

قالها أبو الفدا تمهيدا. مد يده إلى جيبه. ورقة مطوية.

-.. هذا بيان الجبهة الوطنية اللبنانية بخصوص الغزو العراقي للكويت، الموقف واضح لا يقبل التأويل أو اللبس.

يده تمتد إلى سلطان بالورقة.

-.. بإمكانكم الاحتفاظ به.

لم تتوافر لسلطان فرصة يرد.

- شيء ثان..

عاد أبو الفدا يتحدث. واصل:

- من جانبنا.. مجموعتنا نفذت أول عملية لها في الليلة الثانية للاحتلال.. شارع البلاجات.. غنمنا ثلاث بنادق كلاشنكوف..

عيناه تصرحان ابتسامة رضا.

-.. عملية ثانية .. أمس .. منطقة الفنطاس.. اضرب واهرب.. أوقعنا في العدو بضع إصابات .. لم نغنم أسلحة.

صوته يتأكد ثقة:

-.. حتى الآن .. لا ضحايا من جانبنا.. بصدد تشكيل وحدة ثانية.. تشكيلنا مقصور على اللبنانيين. هناك إمكانية ضم فلسطينيين إلينا..

يتردد قليلا:

- ..لكننا لم نفعل.

فضول سلطان يحفزه يسأل.

- لماذا؟!

- ربما لأننا لبنانيون..

معناه بين بين. أتم:

-.. ولأننا في الكويت.

من جانبه آثر سلطان لا يلح.

(21)

القطاعات العراقية باقية تنسحب من شاشة التلفزيون، والفرق الشعبية مصحوبة بالدفوف تستقبل الأبطال الميامين العائدين من ميادين القتال في جمهورية الكويت الفتية.

الإذاعات العالمية ووكالات الأنباء.. نقلا عن تصريحات مسؤولين من دول أعضاء دائمين في مجلس الأمن..

«أخبار مختلفة. القيادة العراقية ما زالت تدفع بالمزيد من حشودها العسكرية إلى الحدود الشمالية للمملكة العربية السعودية، وما زالت تكثف من وجود وحداتها داخل الكويت وحولها لغرض فرض سيطرتها الكاملة..».

أنباء لاحقة تفيد:

«الصورة المستقاة عن الأقمار الصناعية تكشف.. أن الوحدات العراقية ماضية على قدم وساق في عملية بناء استحكامات دفاعية، مما يؤكد إصرار نظام بغداد الإبقاء على الكويت المحتلة تحت سيطرته..».

الإذاعات العراقية العاملة تحتفي:

"الحكومة المؤقتة لجمهورية الكويت الصاعدة.. تتمنى للقطاعات العراقية المنسحبة عودة ميمونة معززة بالشكر وعرفان الجميل على المؤازرة الأخوية، وليس هذا بمستغرب ما دامت الشهامة العربية والنخوة..».

يضاف إلى ذلك:

"الحكومة الكويتية المؤقتة تعلن للعالم أجمع - بإرادتها المستقلة - عن قدرتها الذاتية للدفاع عن وحدة تراب الوطن أمام أي عدو طامع. أو مستعمر حاقد، بعدما وفقت شكّلت ميليشيات جيشها الشعبي الضارب، المؤلف من فتية كويتيين أحرار آمنوا بربهم .. حيث كانت فتحت باب التطوع..».

بناء عليه، وهذه الحقائق الدامغة ماثلة، فإن القيادة العراقية تعلنها بصوت عال.. أن لا أطماع لها .. لا في الكويت ولا في السعودية.. وبالتالي: لا مبرر لهذا الجزع والفزع العالميين.

***

المعارضون العراقيون الذين اعتقلوا من قبل الاستخبارات العراقية صبيحة اليوم الأول للاحتلال لا أثر، وإن كان على أعلام نظام بغداد فهناك أكثر من مسؤول أدلى بأكثر من تصريح:

«أخبار مختلفة لا أساس لها من الصحة، أطلقها أعداء الثورة من السادرين في غيهم، بهدف تشويه الوجه الناصع لعراق العزة والكرامة».

عن الكويت.. أخبار الإعدامات والاعتقالات والنهب وسرقة أجهزة طبية من مستشفيات كويتية..

«.. ليست سوى إدعاءات يروج لها الموتورون من الحاقدين أعداء الحاضرة والإنسانية والدين.. وها هي الجمهورية الكويتية الفتية في ظل حكومتها الوطنية المؤقتة ومجلس قيادة ثورتها وناسها من المواطنين الشرفاء .. ترفل بثياب العزة والأمان، وسحقا لقارون الكويت وزبانيته».

عن الصمود والإضراب العام الذي مازال .. وأعمال المقاومة..

«حفنة مخربين عملاء العهد المباد.. أذناب الاستعمار.. كان الشعب الكويتي لهم بالمرصاد .. قطع دابرهم..».

***

- وقت انشغالك مع ضيفك..

قالت شيرين. أكملت:

-.. مكالمة تليفونية لإيمان..

يتطلع إليها ينتظر توضيحها.

-.. غادرت بعدها.. على عجل.

قلق سلطان يتسربه.

- إلى أين؟!

- لم تخبر.

أجابته شيرين، أضافت تطمئن:

-.. قالت انها لن تتأخر.

***

قلق سلطان لا يتأتى عن احتمال تأخر إيمان، يقدر ما يترتب على مصدر المكالمة التلفونية التي تلقتها وغادرت اثرها.

يعرف عن إيمان ارتباطها الحركة الوطنية، نشاطها النسوي.. وجه خصوص. يعرف إنها دعيت لاجتماع طارئ، ويعرف عن الاحتلال منحاه الفاشي وردود أفعاله المسعورة إزاء الاجهار بمعارضته.

خشية سلطان - في خضم الأحداث الآن - يلجأ كويتيون يعارضون الاحتلال بصيغ درجوا عليها أيام ما قبل.. فتأتي النتائج ليست مخيبة للآمال وحدها..

«الأمور يجب لا تكون مواجهة مباشرة».

***

عادت إيمان بعد ساعتين،. كانت بوجه كامد وعينين منطفيتين.

- أخبار سيئة؟!

سألها سلطان مترددا. أجابت بعد تردد مماثل:

- ربما.

حيرته تغالب فضوله. تطلعت فيه، أشفقت عليه يسمع أخبارها، قبل أن تجزم تفضي.

- تدري عن رجال المعارضة الكويتية الموجودين داخل الكويت. أقتيدوا من منازلهم عنوة. بحجة إجراء مفاوضات حول مستقبل البلد مع كبار ضباط عراقيين.. أومأ برأسه دلالة معرفته ذلك، واصلت..

-.. أساليب الترغيب والترهيب.. لكن الكويتيين أجمعوا على رفض فكرة التعاون مع المحتل، بغض النظر عن الصيغ المقترحة.

معلومات سبق لسلطان عرفها. استحثها متسائلا:

- النتيجة؟!

باشرته ردها:

- جرى تأنيب بعض ممثلي المعارضة الكويتية..

تلكأ ذهن سلطان عند كلمة "بعض"، لكنه واصل يسمعها..

-.. نعتوا بضيق الأفق القومي، وعدم تغليب مصلحة الوطن على المصالح الشخصية.. قيل لهم: تذهبون إلى بيوتكم.. تتشاورون بينكم .. لديكم مهلة ثلاثة أيام تتخذون فيها قراركم.. ليكن في بالكم.. هذه الثورة أقيمت من أجل تسلمكم أنتم حكم بلدكم.. رفضكم التعاون يعني إحراج أشقائكم العراقيين أمام قوى التحرر العربي والعالمي.. لتعلموا أننا سنطلبكم ثانية.. نرجو أن يكون ردكم إيجابيا!

انتظر عليها حتى انتهت، ذكرها:

- قلت عن تأنيب بعض..

حزنها يتشرب صوتها لدى مقاطعتها له تجيبه:

-.. استخبارات العدو احتجزت عددا من وجوه المعارضة.. من المحسوبين أو المتعاطفين مع فكر الحزب الحاكم في بغداد..

سؤال سلطان يتضمن حيرته:

- رهائن؟

إجابتها لا تلغي الحيرة:

- أو رهن الاعتقال.

تصمت برهة قصيرة. تكمل بعدها:

-.. غضب رجال النظام العراقي من رجالنا هؤلاء بالذات اتسم بالحقد .. ما كنا يتوقعون رفض من هم بحكم المحسوبين عليهم..

***

الذين أمهلتهم الاستخبارات العسكرية العراقية ثلاثة أيام يتشاورن بينهم كي يصلوا إلى لقاء ثان يجمعهم بهم، خلصوا فيما بينهم .. قرارهم:

«لا سبيل للقاء آخر!».

مع عدوك المعني لا يمكنك أن تجزم بأساليبه تحقيق أغراضه.

«ما هو غير وارد وارد!!».

جزعهم تعرضهم لأنماط ضغوط تصل حد.. وجزعهم - يلجأ عدوهم في حالة عجزه

يوظفهم لمخططاته - يحتجزهم لديه كي يوظف أسماءهم بصفتهم متعاونين.

بناء.. عودتهم لم تكن لمنازلهم رأسا. غيروا عناوين تواجدهم، يحدوهم حافزهم بمغادرة الكويت بالسرعة والوسيلة الممكنة، إلى المملكة العربية السعودية أو أي مكان آخر، فان ابتعدوا عن دائرة العدو عرفوا اعلنوا ولاءهم للكويت وشرعيتها.

- ماذا عن أولئك الذين بقوا قيد الاحتجاز؟!

- احتمالات ترحيلهم سجناء إلى بغداد.. احتمالات الفتك..

***

كانت إيمان على عجلة من أمرها.

- استعداد مظاهرة تطوف شوارع منطقة الرميثية عصر اليوم.

لم تتوافر لسلطان فرصة يسألها .. لماذا الرميثية.

- تحاشيا لصدام دموي مع قوات الاحتلال جرى اتفاق أن تقتصر المظاهرة على النساء.

ود سلطان يتسأل:

- «من قال أن العدو سيرعى حركة..».

في حين واصلت إيمان:

- ليس من لجنة منظمة..

عيناها تؤكدان دلالة واثقة.

- فكرة المظاهرة انبعثت وتعممت من خلال اتصالات تليفونية، حيث حدد مكان التجمع ونقطة الانطلاق، وكذلك الوقت..

ما الذي يمكن أن يعقب به سلطان؟!

- لا بدّ نسمع المحتل صوتنا!

دلالتها الواثقة ترتسم ابتسامة على فمها.

- لا للاحتلال..

رددتها كما لو انها تتمرن أداءها. تابعت:

-.. نعم للشرعية الكويتية

***

كن تدبرن عددا كافيا من الأعلام الكويتية، إضافة إلى صور كل من الأمير وولي العهد.

- الشعارات وتحديد مسار المظاهرة!

هل يساررها. يقول:

- "خذوا حذركم!!».

الناس ورفضهم الاحتلال يتخذ صورا شتى. أمس كان جنود الاحتلال صادروا صبية من الجنسين، القوا قبضهم عليهم في شوارع منطقة الجابرية. التهمة المستقاة.. كتابة على الجدران.. شعارات معادية للثورة.

«عودوا إلى دياركم».

- كان الاتفاق نذهب أنا وسهى..

قالت إيمان، واصلت باعتزاز:

-.. هدى أصرت ترافقنا.

«الوطن ليس وقفا على سن دون غيره».

تذكرت إيمان أضافت بالاعتزاز ذاته:

- جاراتنا لدى سماعهن..

***

جنود نقطة السيطرة هيمنتهم على حديقة منزل سلطان ما وراء السور. كانو أقاموا خيمة كبيرة اتخذوها مهجعا، وأخرى صغيرة.. دورة مياه.

مياه الشرب. الاستحمام، وأغصان الأشجار القريبة حبال غسيل، لو كان الظرف غيره، لأصبحوا – مع مرور الأيام – أحد معالم المنزل.

عبد الله والتكليف الذي أنيط به. تلبيه طلبات لا بد منها، وقصر العلاقة بهم عبد وحده.

- هم أجلاف متملقون!

رددها مرة متضايقا، واستثنى:

-.. واحد منهم فقط يتسم بلباقة. شاهدته أكثر من مرة يقرأ كتابا..

صمت برهة قصيرة. واصل:

-.. هذا الواحد بدا وكأنه يعيش منفصلا عنهم.

عيناه تطلعتا في سلطان.

-.. اليوم .. وأنا أسلمه براد الشاي.. سألني إن كانت لدينا كتب تقرأ!

تظاهر سلطان أنه لم يسمع.

«لو كان الظرف غيره!».

لا خيار إزاء توطيد ايما نمط علاقة بأي منهم.

***

جنود نقطة السيطرة، هيمنتهم على الشارع الرئيسي. ناس "الفريج". شعورهم رقابة عدوهم مفروضة عليهم. محاولتهم تحاشيهم هذه الرقابة قدر إمكانهم، فكان أن حولوا نشاطهم الاعتيادي اليومي.. علاقتهم ببعضهم البعض بمنازلهم، بالخارج.. إلى الطريق الخلفية.

***

أيام ما قبل الاحتلال. الناس وانشغالها أمور يومها. علاقة الجيرة ما بين الناس لا تعدو كونها - في غالب أحيانها - عبارة ، تقتصر على المناسبات ، وتبادل تحيات عابرة، عدا حالات جيرات مخضرمة أو علاقات قرابة.

ما بعده .. حاجة الناس - هاجس الخطر الداهم - تلتم على بعضها، إضافة إلى فائض من الوقت ترتب على إضراب عام مفتوح.

علاقات الجيرة - بعدما كانت كيفما اتفق - أخذت تتعمق بالألفة، ومعرفة الناس بعضها حد المعايشة ووفاء الحاجة. الأطفال بدأوا يشكلون ارتباطاتهم لعبهم، "لصبية باهتماماتهم ومحاولاتهم تشبههم بالكبار، إصرارهم يكون لهم دورهم ضمن المسؤوليات العامة الطارئة. الكبار والمهام المتعددة المترتبة على غياب

حكومة وقطاعات خدمات.

كانت الفرصة - وسط الهم العام وخطورة الحال - توفرت للواحد أن يبدأ بالتعرف على عظمة الحياة من خلال بساطتها معقدة الصعوبة.

***

منزل سلطان. الشارع الخلفي.. صباح أمس.. كان محمد صالح وصل بسيارته تلحقه شاحنة عملاقة سدت الطريق، محملة بما يزيد على عشرة أطنان مواد غذائية معلبة.

- جزء من متبقى البضائع في مخازن الشركة.

لم يخف سلطان وقتها دهشته المرحبة بالمخزون الغذائي:

- معنى هذا .. هناك جزء آخر!

محمد صالح بدوره لا يخفي دهشته:

- كثير!

تند عنه ضحكة قصيرة:

-.. يخيل لي أن مخزون بضائعنا تضاعف على نفسه!!

اكتفي سلطان بابتسامة رضا.

-.. سأحاول أتدبر أمر حمولة مماثلة..

قالها محمد صالح، قبل أن يستطرد باشتراط لا يخلو من مرارة ساخرة:

- أما إذا تنبه مختصو النهب من العسكر المتواجدين في منطقة الشويخ إلى مخازننا هناك..

أبقى جملته مفتوحة على التوقع، في وقت نشط موسى وجعفر وصبية من عيال الجيران تنادوا .. إفراغ حمولة الشاحنة. توزيعها كميات على أماكن تخزين أعدت فورا في البيوت القريبة.

***

منزل سلطان. كانت الأم أولت نفسها مهام الطبخ تساعدها ليتا بالدرجة الأولى والابنة الكبرى حنان.

الحاج محمد .. انشغاله رعاية نباتات الحديقة، وفائض الوقت ساعده على توطيد صحبته مع رجلين من الجيران يماثلانه سنا. ساعات اليل. ارتياد خيمة "ديوانية" أقامها أحدهما. تبادل أحاديث ومتابعة أخبار مذياع.

رمضان.. اعتاد يقضي جانبا من نهاره يعمل في شبرة خضار الرقة مع شريك إيراني آخر. إيجاد مصدر دخل، ومحاولة توفير احتياجات البيت اليومية من خضار متوافرة.

***

سلطان يعتصم ديوانيته. انشغاله كله صياغة ما تجمع لدية من أفكار حول نهج تأسيس حركة مقاومة. تنبه.. شيرين دخلت عليه حاملة كوب شاي.

«هذه الرعاية الأنثوية الرائقة!».

عيناه ترحبان بقدومها.

-لم تنته بعد!

تساؤلها يتشرب عتبا لذيذا. ابتسم. أشار إلى أوراقه.

-لم أتوقع كل هذا الجهد!

قدحها الشاي أمامه. عيناها تحوطانه.

- تعبت؟!

سألته. سارع أجابها كمن ينفي تهمة:

- أبدا!

الجهد يرتبط بالحافز. المحنة.. واحتياج الجهد كله من ناس الكويت كلهم عبر اتساق وتناغم عام شامل غير مخطط له، كل حسب مبادرته.. ضمن قدرته. إثبات الولاء للوطن والذات، دون إمعان النظر في حساب النتائج.

- "أبدا!».

صدرت عنه في عفوية، كما لو إنها تنفي تشكيك ولاء.

عندما التقى إخوته في يوم الاحتلال وجدوا تبريرهم لعدم اتصالهم به.. واجهوه بعفوية دالة:

- «أنت محسوب على المعارضة!».

ان كان على سلطان بإخوته وحدهم فقد عرف يلوي عنق قناعاتهم.. يجد مكانا يتألف يعمل.

لكن المعضلة ليست طابع فرد بإخوة. هي ظاهرة لها تعقيدها الخاص على المستوى العام.

«كيف للمعارضة الكويتية أن تثبت ولاءها؟!».

التجربة البرلمانية الكويتية المتعثرة، وهذا الفهم المستعصي وقد أوجد شرخا وصل حد القطيعة.

النظام العراقي صادف اختار لعدوانه وقتا.. الوحدة الوطنية المتصدعة.. الفهم المستعصي، وفهم غيري وجد فرصته السانحة:

«أنت لست مع الحكومة الكويتية إذن أنت ضد الكويت.. مع الاحتلال بالإحالة أو بالتواطؤ».

الاحتلال - من جانبه - تعامل مع المعارضة انطلاقا من هذا الفهم.

«هذه الثورة أقيمت من أجل تسلمكم أنتم حكم بلدكم».

الاجتماع القسري مع ضباط أركان نظام بغداد، وحين توفرت الفرصة لمن يفلت..

- «عودتهم لم تكن لمنازلهم.. غيروا عناوين تواجدهم..“

كانت إيمان قالت خبرت، أضافت:

-».. يحدوهم حافزهم بمغادرة الكويت بالسرعة والوسيلة الممكنة..».

محنة الفهم محنة إثبات الولاء .. ان كان البعض غادر الكويت مخافة فتك الاحتلال، فإن بعضا آخر يضطر للمغادرة لكيلا يصير أداة فتك في الكويت ذاتها.

(22)

ليلك يتواصل بنهارك.. اليوم الواحد يبدو وكأنه عام. الأحداث بتواتر له طبيعة تراكم أفقي وعمودي يعجز الخيال عن ملاحقته. الأخبار داخل خارج. أحداث تسمعها منقولة عن آخرين. أحداث تراها. أحداث يفرض عليك أن تعيشها. وأخرى تلتقطها عن جهاز راديو.

العالم من أقصاه يغلي. رد فعل العدوان العراقي والآثار المترتبة. الكويت من أقصاها إلى أقصاها يجري الفتك بها، ولا تكف تردد:

«لا للاحتلال. نعم للشرعية».

المظاهرة النسائية التي أريد لها تطوف شوارع منطقة الرميثية استنفرت عسكر النظام العراقي. تنادوا فيما بينهم. أعدوا عدتهم. هاجموا النساء بالسيارات المصفحة وفرق مكافحة الشغب.

اعتادوا ممن تبقى من شعبهم داخل العراق يلبي طلبهم يتظاهر لأغراض إعلامية عند اللزوم، ويعكسه..

تصديهم لمسيرة النسوة الكويتيات، وحين اعترضهم شباب من الرميثية لجأوا إلى بنادقهم الأوتومتيكية. حصيلة المواجهة: عدد من الجرحى الكويتيين وشهيد.

الرد الكويتي اتخذ صفة قرار آخر: مظاهرة الغد ستطوف شوارع منطقة الجابرية.

عمر فاضل - المذيع الذي انتحل زيا كويتيا - يتطلع في شاشة تليفزيونه ينبه بصوت لا يخفي دلالات جزعه:

«.. الحذر.. ثم الحذر.. من الاندفاع الأعمى وراء مثيري الشغب والفتنة، من الذين دأبوا يتصيدون في المياه العكرة..».

لهجته تحتد أكثر:

«.. عملاء العهد القاروني المباد إلى لا رجعة.. من الموتورين.. خدم الاستعمار والرجعية المقبورة.. علما أن يد الثورة طويلة..».

لا يوفق يخفي انتماءة:

«.. وإزاء الادعاءات الرخيصة السمجة.. الحاقدة.. الهادفة إلى تشويه الصفحة الناصعة لعراق العزة والكرامة.. حيث إن النجدة الشهمة من جانب نشامى جيش

القادسية.. ما جاءت .. إلا استجابة لنداء استغاثة شعبنا الكويتي الثائر.. بقطاعاته العريضة التي كانت رازحة..».

أين لك بجبين يندى؟!

***

تسابق الأحداث، كان عمر فاضل أصر يحضر شاشة التليفزيون ثانية. صوته مزيج من الثقة والشماتة:

«.. أصحاب النفوس المريضة، الذين لا يفتأون يكيلون الافتراءات الكاذبة بحق الجنود العراقيين الأشقاء، ويروجون لدعاواهم الرخيصة.. متهمين نشامى جيش عراق المجد بممارسة أعمال سلب ونهب ممتلكات خاصة أو عامة..».

عيناه تشيران التماعة انتصار.

«.. إلى أولئك الأوغاد الحاقدين الطامحين بإيجاد أسباب فرقة بين الشعبين الشقيقين.. العراقي والكويتي.. إليهم وإلى مواطنينا الشرفاء هذا البرهان الدامغ على مرتكبي أعمال السلب والنهب.. حيث كانت لهم سلطاتنا الساهرة على أمننا وسلامتنا بالمرصاد، فألقت القبض عليهم متلبسين بجريمتهم المنكرة، لكي يقدموا إلى محكمة أمن الثورة.. فينالوا عقابهم الرادع على ما اقترفوه من ..».

قطع، أعقبه شريط مسجل. خمسة رجال شاحبي الوجوه، زائغي النظرات، قيل إنهم فلسطينيون.. أعضاء في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وقيل أن السلطات الساهرة كانت رصدتهم لدى إقدامهم على تنفيذ جريمتهم، اقتحام خزائن مصرف بيت التمويل الكويتي.

«.. دليل لا يقبل الدحض.. إيقاع القصاص العادل.. عبرة لمن اعتبر، وليكن في حسبان أولئك المتقولين ممن أعمى الحقد بصيرتهم..».

وما توفرت لمذيع الخبر فرصة يشير إلى أن المصارف الكويتية كافة.. كانت تحت تصرف سلطات احتلال .. منذ ساعات غزو أولى.

***

إشاعة اكتسبت قوة الخبر:

"وحدات استخبارات عراقية تتحرى أماكن إقامة أجانب محددي الجنسية: اميركان

وبريطانيين..».

سؤال جال في الأذهان:

«ما الذي تزمع القيادة العراقية تقدم عليه؟!».

في وقت أشارت فيه وكالات الأنباء العالمية إلى وصول دفعات أخرى من القوات الأمريكية وكذلك قوات بريطانية إلى أراضي المملكة العربية السعودية ودول خليجية أخرى.

في وقت صرح ناطق عراقي رسمي لإذاعة وتليفزيون بغداد ما مفاده أن القيادة العراقية تلتزم حرفيا بالمواثيق والمعاهدات الدولية كافة، وليس في نيتها العمل على خلخلة الأوضاع في الشرق الأوسط، وإن العلاقة بالجارة الشقيقة المسلمة المملكة العربية السعودية لم يطأ عليها أي تبديل أو تغيير، فالعراق - شعبا وقيادة وحكومة - يكن للجارة الشقيقة..».

تصريح الناطق الرسمي العراقي يشير بدلالة واضحة.. لا مسوغ لخوف القيادة السعودية من غزو عراقي محتمل، وليس من داع لرد الفعل المتضخم واستقدام قوات أجنبية، بما سيترتب على هذا الإجراء من تهديد صريح لاستقرار وأمن دول المنطقة ويخلص:

«جيش العراق العظيم يقف بالمرصاد لأيما طامع أجنبي حاقد في أيما جزء من أجزاء الوطن العربي، وبالتالي.. هو على أهبة الاستعداد لنجد المملكة العربية السعودية في حالة تعرضها لعدوان خارجي..».

من جانب آخر تناقلت وكالات الأنباء خبر اجتماع القائم بالأعمال الأميركي جوزيف ولسون مع السيد الرئيس القائد بناء على طلب الأول.

الولايات المتحدة الأميريكية على لسان القائم بأعمالها تجدد مطالبتها بانسحاب الجيوش العراقية من أراضي دولة الكويت، وتؤكد ضرورة إعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل الثاني من أغسطس.

الرئيس العراقي أبدى تفهمه لما سمعه. طمأن القائم بالأعمال الأميركي إلى أن القيادة العراقية تضمن الحفاظ على المصالح الأميركية والغربية الأخرى في الكويت، وأن لا داعي للقلق بهذا الخصوص.

***

نبأ لاحق تناقلته الإذاعات العالمية:

"الحكومة التركية - تمشيا مع قرارات مجلس الأمن الدولي - تبدأ إغلاق خط نقل البترول الخام العراقي المار عبر أراضيها، مع ما تمثله هذه الخطوة من خسارة لدخلها القومي».

النفط الخام.. المضاربة بأسعاره. القلق العالمي من جراء الغموض الذي يحيط أحداث المنطقة.. وزير النفط الفنزويلي - بصفته الرئيس الحالي لمنظمة الأقطار المصدرة للبترول .. أوبك.. يبلغ الولايات المتحدة الأميركية.. أن الدول الأعضاء في المنظمة - عدا العراق والكويت - قررت زيادة إنتاجها بما يعوض نقص البترول الخام الذي سببه الحظر الدولي على إنتاج نفط كل من العراق والكويت.

خبر لافت للنظر:

سويسرا - الدولة الأوروبية المعروفة بحيادها الراسخ إزاء الصراعات الدولية طوال العقود المنصرمة - تعلن، لأول مرة في تاريخها، ضم موقفها الرسمي إلى مواقف الأسرة الدولية، والتزامها بالقرارات الصادرة عن مجلس الأمن الدولي بتطبيق العقوبات على النظام العراقي.

إعلام نظام بغداد يتوقف برهة عابرة عند قرار الحكومة السويسرية، يفنده بسؤال دامغ:

«لماذا حافظت سويسرا على حيادها تجاه قرارات مجلس الأمن الدولي التي صدرت ضد الكيان الإسرائيلي طوال ما يقرب نصف قرن زمان.. ومن ثم سمحت لنفسها بأن خرقت حيادها حين اتصل الأمر بعراق العزة؟!».

***

آلمه يرى ليتا تبكي حرقتها وحدها. إحساسه مسؤوليته تجاه جميع من في بيته، ليتا - بصفتها أجنبية وحيدة منزله - على وجه الخصوص.

كانت تقف تنشغل أمام مغسلة الصحون، وكان سلطان مارا أمام باب المطبخ حين سمعها تنتحب بصوت مخنوق.

وخزة الم في صدره. الهم الظرف والمشاركة فيه. استدار داخلا، ظهرها إليه. جهد يشحن صوته اهتماما أليفا:

- ليتا!

انتفضت.. وقع المفاجأة ما كانت تنبهت لدخوله. بحركة عفوية منها حاولت تجفف عينيها بكم ثوبها.

- نعم سيدي!

التفتت. عيناها حمراوان محتقنتان.

- ما بك؟!

خنقها صوتها. أشاحت وجهها تداري دموعها وقد أثارها تساؤله.

- لا شيء سيدي.

أثقله استخدامها "سيدي"، هما وحدهما .. وحين كانا لوحدهما منذ ليال عرفت تتجاوز صيغة الاحترام الرسمي. لم يستسلم إزاء إصرارها تخفي أسبابها.

- ليتا!

أعاد أسمها بدلالة مشاركة. وصلته استجابتها مستضعفة:

- نعم!

أراحه إغفالها كلمة سيدي. أحسه أقرب إليها. شحن صوته اهتمامه:

- ما بك؟!

أعادت عليه إجابتها مختصرة:

- لا شيء.

فهم من نغمة صوتها ما يشبه نفاد صبرها. كانت كمن يصرح:

- «اتركني لحالي!».

تساءل مع نفسه:

«لعله حنينها لوطنها – تضاعف – خلل الحدث الجلل بفوضاه العارمة، إضافة إلى جزعها من أحداث أخرى قادمة غامضة مستعصية على الإدراك!!».

أرادها محاولة أخيرة.

- رغبتك السفر؟!

ورده ردها سريعا.

- ليس هذا.

اهتمامه يخالطه فضوله. سؤاله يسبق تردده:

- إذن؟!

***

قالت له بوازع اعتذار:

- رغبتها بعدم التحدث ناتجة عن إدراكها ألا جدوى من انشغاله بموضوعها.

قال لها:

- مسؤوليته تجاهها – ضمن الحالة العامة – لا تستثني موضوعا دون آخر.

قالت له بدافع إنهاء الموقف:

- الأمر لا يمسها مباشرة، وإلا لما ترددت بإخباره.

إحساسه بتطفله عليها.

- أسفه كونه تدخل بما ..

لم يجد كلمة مناسبة يختم بها. تطلعت إليه في عمق عينيه. لغة تخاطبها الصامت تشمله من داخله. أحسها صرحت معنى ما، وأحسها لا.

ود يضيف يقول شيئا، لكنه أحجم فجأة، فكرته ينصرف من أمامها تستبد به، لحظة عادت غمغمت بعتب مستسلم:

- ليس هكذا!!

***

كانت قررت تفضي.

- ما دمت تصر تعرف!

غافلتها زفرتها، أتمت:

- .. الأمر يتصل بالآلاف من الجالية الفلبينية.. ممن كانوا يعملون في وزارات الدولة أو الشركات، أو خدم منازل خلت من أصحابها – الأحداث التي تعصف في الكويت – وجدوا أنفسهم ضائعين..

دموعها تنبجس في عينيها.

- .. مبنى سفارتنا والأرض المحيطة بها تحولت مخيمات لاجئين. معظمهم لا مال لديهم..

تصمت برهة قصيرة .. تبذل جهدها. تتماسك.

- .. سفارتنا بإمكانيات محدودة..

تبقى جملتها مفتوحة.

- .. معضلة توفير طعام كاف..

ما عرفت تواصل تتحدث أكثر، وما عرف سلطان يجد كلمة مواساة تفي الموقف.

***

المأساة بدأت مغفلة، على هامش احتلال الكويت، وما كانت الفرصة توفرت للعالم كي يلم أبعادها، يتصدى لها بالإمكانيات والكفاءة اللازمتين.

الكويت بما يزيد على مليون ونصف عمالة وافدة.. معظمهم من دول آسيوية. الفلبين، الهند، سيلان، بنغلاديش، باكستان.. وجاليات عربية كبيرة العدد أيضا، إضافة إلى أعداد متفاوتة من جاليات غربية وأجنبية أخرى.

الآسيويون - بالذات - هم العمالة الأشد فقرا، كونهم يعتاشون على أجور محددة تكفيهم بالكاد.

الغزو المفاجئ، فكان أن وجدوا أنفسهم وسط حالة حرب باحتمالات لا يدركها التصور، إضافة إلى تعطل الأعمال والمصالح، مما أفقدهم مصدر رزقهم الوحيد.. العمل.

إلى جانب العديد من قصص بدأ الناس يتداولونها حول إقدام جنود عراقيين على اغتصاب نساء عدة من جنسيات مختلفة. عدا أعمال السلب والنهب والقتل في حالة التصدي. نقاط السيطرة، بدورها، صارت تتعامل مع الوافدين بناء على مواقف حكوماتهم من غزو الكويت.

إشاعة جرى تداولها بسرعة: سلطات الاحتلال تقوم بتجميع الرجال البنغلاديشيين، تركبهم باصات مُعدّة.

- "مكانكم ليس هنا!".

ترسلهم إلى الخطوط الأمامية لجبهة الحرب عند الحدود الشمالية للمملكة العربية

السعودية، لكي يقوموا – أعمال سخرة - تخديم الجيش العراقي.

إشاعة أخرى تأكدت فورها: نقاط السيطرة تصادر السيارات التي يقودها فلبينيون، هنود، أو باكستانيون.

- "لا مكان لكم هنا!.. غادروا إلى بلدانكم".

"مكانكم ليس هنا" .. إلى مصير مجهول.

"لا مكان لكم هنا".. إلى أين؟!

***

الاحتلال حالة انقطاع داخل الكويت، اتصالك مع العالم الخارجي يتحدد من خلال المذياع وحده ضمن صيغة سالبة.. تسمع الخارج، ولا تستطيع أن تسمع صوتك للخارج. الخطوط التليفونية للاتصالات الدولية قطعت بعد ساعات قليلة من حدوث الغزو.

مطار الكويت الدولي.. حالة دمار من جراء قصف اليوم الأول للاجتياح. مغلق في وجه الطائرات. الكويت ساحة حرب.. الغزاة حولوا المطار – لأسباب دفاعية – إلى معسكر يعج بآلياتهم وجنودهم.

الموانئ وحركة البواخر عامة.. البحر تحول عراقيا، أصبح منطقة عسكرية يمنع الاقتراب منها.

- ".. غادروا إلى بلدانكم!".

الكويت داخل باتجاه خارج. وإن كان قرار مغادرة يجب يتم عبر الأراضي العراقية. ومنها إلى دول تجاور العراق.. الأردن، تركيا، إيران.

إقدام اجتياز الأراضي العراقية .. ومنها إلى .. مخاطر غامضة ومرعبة في الوقت ذاته. أنت غير قادر تضمن حياتك مع عساكرهم هنا، فكيف تضمنها إذا صرت عندهم.. عقر دارهم؟!.

سفارة بلد ما مسؤولة عن رعاياها. صيغة رسمية دولية معترف بها. لها قدرة أن تتصدى وتجد حلولا..

بناء .. كان الفرار العام إلى السفارات، ولأن الأخيرة لها مبان محدودة المساحة تحولت الشوارع والأزقة والساحات القريبة من السفارات إلى ازدحام بشري خليط

كثيف، لم تشهد له الكويت مثيلا من قبل.

***

غياب حكومة الكويت عن الكويت لا يعني انتفاء المسؤولية. الكويت وجود وناس. حين يقف معك العالم كله، معنى هذا أنك جدير.

"لم لا؟!".

الفكرة وردت ذهن سلطان، فقررها موضع تنفيذ.

- عبد الله!

رفع صوته يطلب الأخير. جاءه الرد تساؤلا ممتثلا:

- نعم!

ابتسامة عرفان تطبع فم سلطان.

- نتعاون .. أنت، وأنا، جعفر، موسى"

قال، أضاف موضحا:

- .. حمولة إحدى سيارات "الهاف لوري".. مواد غذائية معلبة!

لم يسأله عبد الله السبب. كان استجاب من فوره:

- نبدأ الآن!

***

أقل من ساعة، كانت السيارة محملة جاهزة.

- تحتاجني!

سأله عبد الله بمودة، بادله سلطان ابتسامة عرفان.

- ليس الآن!

حث خطوه تجاه المطبخ. ليتا هناك، تنشغل بتنظيف الأرضية.

- تعالي معي!

لهجته تتضمن قرار آمرا. رد فعل بالدهشة يأخذ وجه ليتا. تطلعت إليه، ولأنه لم يعقب بشيء، غمغمت بتسليم لا يخلو استثارة:

- دقائق .. وأكون جاهزة!

أسرعت غادرت المطبخ، شيعها بعينيه.

"الألفة صيغ لا حصر".

***

ارتياحه الفكرة.. وضعها موضع التنفيذ مباشرة.

"مسؤولية أن تكون مواطنا كويتيا".

دار في ذهنه تساؤل "لعل غيره سبقه إلى ذلك!.." كان وقف عند السيارة. تطلع إلى قمرة السائق. مقارنة ارتفاعها عن مستوى أرض الطريق، مقارنة مع السيارات العادية. طول عمره لم تصادفه فرصة يتولى قيادة سيارة نقل عام. احساس طارئ بالتحدي يصاحبه آخر بالقلق.

ارتقى السيارة. استقر جالسا وراء مقودها. شعوره يطل على ما حوله من علو. أدار مفتاح المحرك، دوي المحرك وانتظام دورانه. انبعثت من داخله ابتسامة رضا. بعدها لمح ليتا قادمة.

كانت وصلت عنده، نظراتها تفصح استغرابها. فمه يوسع ابتسامته، أشار لها:

- اركبي!

لم تتفوه كلمة، استدارت تصعد لحظة ظهر سليمان راكضا دس نفسه بين ليتا وجسم السيارة.

- "أروح!".

ليتا تفتح الباب، سليمان يغتنم الفرصة، يسبقها. يتسلق السيارة. يدخل القمرة.

- "أروح معكم!".

صوته يتشرب طموحا ورجاء. عز على سلطان يخذل طفله. ابتسم مشجعا. شعت عينا سليمان فرحا غامرا. عندما سمع ليتا تسأله:

- إلى أين؟!

وجد نفسه يجيب:

- إلى السفارة الفلبينية.

(23)

ليتا، سليمان، سلطان.. مناخ من الصمت والترقب يهيمن على الثلاثة. السيارة تواصل سيرها. عبرت نقطة سيطرة أولى، ثم ثانية. ليتا تتلفت تحاول تستوعب الخارج. منظر الآليات العسكرية المدمرة يلفت انتباهها. سليمان - ما بين ليتا وسلطان - يختفي ركوبه سيارة نقل.

عند فتحة الشارع المتفرع عن الدائري الخامس باتجاه منطقة الجابرية داخل استوقفتهم نقطة سيطرة.

- هويتك!

سأله الجندي. مد سلطان يده ببطاقته المدنية. تناولها الجندي منه. دقق نظره فيها.

- كويتي؟

أومأ سلطان برأسه مجيبا. سليمان ونظرة قلق طفولي تبان في عينيه. كان التصق بليتا. وكانت ليتا أخذته إلى صدرها.

- ما اسمك؟

وجّه الجندي سؤاله إلى سليمان. أراد يبدي تودداً. سليمان كمن فوجئ. وجهه يمتقع. يحدق في وجه أبيه يستنجده. خوف داهم يطل من عينيه. ألم سلطان يعصره من صدره.

- ما اسمك؟

الجندي يصر يتودد بما يشبه التحدي. يشير لابنه يطمئنه. الأخير يقدم يغمغم بصوت مخنوق:

- سليمان.

رغبة الجندي أن يتلطف أكثر.

- الأخت زوجتك؟

سؤاله موجه إلى سلطان، والمعنية به ليتا. سلطان لا يتردد يجيب:

- نعم.

كان هدف ينهي حواره مع الجندي، الأخير يستجيب:

- "حياكم الله".

قالها وابتعد عن السيارة مفسحا طريق مرورها.

***

مواصلة السيارة سيرها. التفت سلطان إلى ابنه. رآه شاحب الوجه. حز في نفسه فزع ابنه. سأله:

- أنت خائف؟!

أومأ سليمان براسه إيجابا؟. رغب سلطان يعقب بما يطمئن ابنه. عامل كلماته في ذهنه. لم يجد ما يفي الموقف.ابنه له الحق أن يفزع، هو أيضا لا يخلو من ترقب فزع. تطلع إلى ليتا. رأى هاجس التوقع يطل من عينيها.

***

مع اقتراب السيارة .. مبنى السفارة الفلبينية أخذ سلطان بالمشهد الذي وقعت عليه عيناه.

حشود هائلة. آلاف من البشر. خليط نساء ورجال. يفترشون الشوارع والأرصفة المحيطة بمبنى السفارة .. جهاتها الأربع. وجوه مغبرة، قلقة، فزعة، حالة انتظارمعبأ باحتمالات غامضة.

السيارة تكاد تعجز – خلل الحشود البشرية – تشق طريقها حيث بوابة السفارة. ليتا تستعين بصوتها تخاطب مواطنيها. افسحوا الطريق.

لدى اقتراب السيارة.. بوابة السفارة سارعت ليتا فتحت بابها. نزلت. ركضت دخلت مبنى سفارتها.

سلطان وسليمان باقيان داخل كابينة السيارة. أعداد من الفلبينيين يحيطون السيارة يتطلعون، داخلها بفضول مؤدب.

بعد دقائق عادت ليتا مهرولة. كانت بدأت تتلبس مسؤوليتها. أشارت لسلطان بـ معناه:

- "بإمكاننا الآن"".

***

تم إفراغ حمولة السيارة خلال دقائق. عشرات من الرجال تناوبوا عليها. كان سلطان بصدد يغادر.

- "مرحبا".

أحدهم يقف عنده يسترعي انتباهه بأدب جم. التفت.

- "أهلا".

أجاب تحية الرجل. توفرت له فرصة يراه. رجل فلبيني أنيق. بدلة كاملة مع ربطة عنق، مما يوحي أنه أحد مسؤولي السفارة.

- أردنا نعرف الاسم!

تساءل الرجل بأدبه الجم ذاته. سلطان يكاد يبدي استغرابه، ولا يبديه. لم يمنع نفسه يسأل:

- لماذا؟!

فهم الآخر ينفرج ابتسامة متزنة.

- يهمنا نعرف صاحب هذه المبادة!

ما دار في بال سلطان يواجه سؤالا مثل هذا، وما دار في باله يتردد يُفضي إجابته:

- الشعب الكويتي.

***

- الأطعمة التي سلمناها سفارتنا..

سيارة النقل - إثر إفراغ حمولتها - تتراكض خفيفة على الطريق، أراحه أن ليتا - لدى حديثها لجأت واستخدمت ضمر الجمع. تنبه يسمعها. أضافت:

- .. تساوي آلاف الدنانير!

حسابات كهذه لم تخطر في ذهنه. ليتا تزمع تفي البادرة حقها من التقدير. لم يعقب بشيء. أبقى عينيه على الطريق أمامه. لاذت بصمتها لثوان قبل أن تعود تتحدث:

- حين كنا في طريقنا إلى السفارة:

لهجتها لا تدل نهجا إخباريا أو استفهاميا. كانت شبه مكاشفة حميمة بين اثنين.

استطردت:

- .. لما سألك الجندي العراقي عني..

ترددت برهة لتنتقي كلماتها.

- .. إن كنت..

تُبقي جملتها مفتوحة. تذكر سلطان صيغة السؤال المعني:

- "الأخت زوجتك؟!".

المعنى وانعكاسه داخله شفافية زائفة. حانت منه نظرة تجاه ليتا. لم يرى وجهها، كانت أدارت رأسها جانبا، تتطلع إلى ما وراء زجاج نافذة السيارة.

***

"الألفة البشرية بآلاف الصيغ".

ليتا معه في بيته منذ سنوات. علاقة الأجير بصاحب العمل. احترامك الآخر، وحقه يؤدي عمله بصمت.

"الألفة البشرية..".

وما خطر على بال سلطان في يوم من الأيام يقترب من ليتا للحد الذي يلمس فيه داخلها، يشاركها مشاعرها.

"هل هو الحدث العام بهيمنته الكلية؟!".

كانت الشمس غربت لتوها حين وصل سلطان بيته عبر الشارع الخلفي. أوقف سيارة النقل، وفي اللحظة تململ سليمان يرغب يسبق ليتا ينزل.

فتحت باب السيارة، أوسعت له مجال الهبوط، مما منحه فرصة يقفز، ويركض تجاه بوابة المنزل. لعله يتعجل يروي مغامرته للآخرين.

- كلمات الشكر..

قالت ليتا، ويدها باقية تمسك مقبض باب السيارة المفتوح، واصلت:

- .. لا تفي الغرض.

عرفانها يشحنه اعتزازا. تطلع إليها - عيناها - بشقيهما الضيقين - تشملانه. ثم

التواطؤ الكامن ما وراء النظرة المتألقة..

"الأنثى!!".

أحسها تطل عليه من داخله. لم يجد ما يقوله.

- أنا..

غمغمت كما لو أنها تهم تعترف ولم تكمل. كانت هبطت من السيارة، سارعت خطوها إلى بوابة المنزل. شيعها سلطان بنظراته. شيء بطعم الفرح الهادئ أخذ يتفرع صدره. ينتشر.

***

كان سلطان استقر على صياغة أخيرة لنهج تأسيس حركة مقاومة.

"ليس بالإمكان أفضل..".

الأفكار التي استخلصها عن الكتب، بالإضافة إلى ما أدلى به أبو الفدا.

"فإن جد جديد.. إمكانية التعديل واردة".

كانت الساعة قاربت الثامنة ليلا حين اتخذ قراره يذهب إلى إخوته.. منطقة الروضة. استوقفته شيرين مبدية قلقها:

- الوقت ليل!

أجابها مبررا:

- هناك أمور لا تحتمل التأجيل.

***

استقبله إخوته مرحبين مندهشين.

- هل أنجزت الموضوع؟

سأله أخوه عبدالمحسن بفضول. اختصر سلطان إجابته:

- إلى حد ما.

عقب مصطفى مبديا إعجابا:

- وقت قياسي!

حانت عن سلطان نظرة ناحية هلال.

- أبو الفدا.. هو صاحب الفضل.

مد يده إلى جيبه. أوراق مطوية. دفعها إلى هلال.

***

الوقت الذي استغرقته القراءة.

- نبدأ بتقسيم المجموعة إلى وحدات!

جاء اقتراح مصطفى، تلته اقتراحات أخرى، بدأت تأخذ حقها استعدادا لتنفيذها، ريثما تدخل عبدالعزيز بصوت ذي دلالة محبطة:

- استبعدوني من خططكم!

أنظار الجميع تنشد إليه.

- .. ما دمتم ضد فكرة الرحيل إلى السعودية..

صوته يتشرب إدانة عاتبة. أنتم:

- .. أراني مضطرا أرحل بعائلتي وحدي!

واجهه عبدالمحسن بضيق:

- افعل ما شئت!

***

خوض تفصيلات. تقسيم الوحدات. تسمية مسؤولي التنسيق. ضرورة توفير منازل احتياطية تحسبا لمداهمات مفاجئة. التعامل مع السلاح. شروط الاخفاء والتخزين. تغيير أماكن اللقاء بين وقت وآخر خشية وجود مراقبة غير منظورة. العمل الارتجالي مرفوض من حيث المبدأ. اعتماد مبدأ وضع خطط مدروسة.

"قدر الإمكان".

كانوا أوشكوا يفضون اجتماعهم .. تدخل مصطفى:

- اقتراح أخير!

لهجته تتضمن رجاءه. الآخرون يصغون إليه.

- .. نتسمى: "وحدات أبو الفهود!".

يتبادلون نظراتهم بينهم. تذكر سلطان ما سبق أدلى به أبو الفدا.

"تيمنا.. بشهيد الكويت الأول..".

- لا اعتراض.

قالها سلطان، مانحا نفسه حق التحدث نيابة عن الباقين.

***

لدى مغادرته جمع اخوته لحقه أخوه هلال.

- بخصوص تنفيذ كل الذي ورد فيما قرأته علينا.

مهد لكلامه، واصل:

- .. نحتاج وجودك معنا!

سلطان يجد إجابته:

- أنا رهن طلبكم.

بدا على هلال كأنه أسقط في يده. تردد برهة قبل أن يتذكر يسأل:

- هل حصلت على سلاح؟

ابتسم سلطان. تذكر سؤال هلال له في اليوم الأول. أجاب:

- ليس بعد.

يبادره أخوه عرضه:

- بإمكاني أوفر..

يقاطعه سلطان موسعا ابتسامته:

- ليس الآن.

***

ليل الاحتلال، وحشة الطرق المقفرة إلا من بعض السيارات العابرة ونقاط السيطرة.

- "الأخ كويتي؟".

سؤال لازمة اعتاد يسمعه عن الجنود.

- كويتي.

- لماذا خروجك ليلا؟

التحذير المصاحب:

- التجوال الليلي ممنوع!

يضطر بعدهم:

- لن أفعلها ثانية.

شعورك النقمة إزاء غرباء يمارسونك على هواهم.

"هل أفعلها ثانية؟!".

***

سيارته. وصوله منطقة بيان. سلوكه الشارع الخلفي المؤدي إلى منزله. مروره أمام خيمة الفريج. شاهد الحاج محمد وآخرين يلتمون على بعضهم يتسامرون.

"فائض وقت!".

ألقى تحيته عليهم. رفع الحاج محمد صوته يدعوه:

- "حياك!".

وجد عذره:

- وقت آخر.

***

دخوله بيته. وقوفه مشدوها.

"ماذا حدث؟!".

حالة من وجوم وقنوط ثقيلين تسيطر على جميع من في المنزل. أحس انقباض في صدره.

"حساب الاحتمالات!".

شاهد الأم تنتحي ركنا محاطة ببناتها الثلاث يتبادلن حديثا هامسا. حنان – من بينهن – تنتحب بصوت مخنوق.

شاهد عبدالله يجلس وحده ساهما مضيع النظرات. انتقل بعينيه حيث الصبي جعفر رآه يكفكف دمعه. موسى إلى جانبه نهب حيرة غامضة. سهى، هدى، وفاء.. الجميع رهن قنوط خانق. في حين بدأ سليمان يعاني حزنا لا يعرف مصدره.

- ماذا حدث؟!

سؤال سلطان يفصح عن جزعه. تتنبه له إيمان. تناشده:

- مهلك!

تنهض، تقترب، تأخذه من يده.

- تعال!

ينقاد إليها صامتا. تدلف به ديوانيته.

- حرصنا لا يسمع أبي الخبر!

قالت كمن يفسر أمرا لا يعرفه سلطان. الأخير لا يخفي إنزعاجه:

- أي خبر؟!

وجدت تبريرها:

- أنت لم تعرف بعد.

أضافت بصوت يتضمن نذير الكارثة:

- رمضان!

ملامح وجه رمضان تحضر مخيلة سلطان. كاد يسألها يستوضحها لولا استطرادها:

- .. خرج منذ صباح أمس ولم يعد.

"ما الذي يعنيه اختفاء في ظرف قائم؟!".

عدوى شعور الكارثة ينتقل إليه. وجد نفسه يوجه سؤالا غبيا:

- وبعد؟!

- كان ذاهبا إلى شبرة خضار الرقة..

قالت إيمان، أوضحت:

- عادته يعود ظهرا.. لم يعد.

حزنها يتشبث صوتها أكثر.

- .. توقعناه يعود ليلا..

تذكر سلطان ليلة البارحة. تذكر أنه لم يلحظ غياب رمضان. هل يعتب نفسه؟!.. أم يعتبهم كتمانهم عنه؟!.

***

في الساعات الأولى لغياب رمضان وجدوا تبريرهم:

"يقضي وقته مع أصدقاء له".

عبدالله رجح هذا الاحتمال.

- لديه العديد من الأصدقاء في خيطان والفروانية.

حلول الليل. كان القلق بدأ يساور زوجته حنان.

"ماذا لو أن مكروها.."

ليل الاحتلال، ولا سبيل لبحث أو سؤال. بذلوا جهدهم يطمئنون الزوجه.

"الغائب .. عذره معه".

الزوجة لا تجد العذر..

العذر مجيء رمضان ناتج عن مكروه أصابه.. وإلا كان أجرى اتصالا تليفونيا على الأقل!".

في الوقت ذاته بذل الجميع جهدهم يدارون قلقهم عن الحاج محمد. إصابته بمرض السكري وضعف القلب. خشيتهم لا يتحمل وقع الصدمة.

***

- تصرف خاطئ!

أبدى سلطان وجهة نظره، أضاف:

- من حق الحاج محمد أن يعرف!

واجهته إيمان بحجتها:

- أمي هي التي قررت.

واصلت بعدها:

- عدا ذلك كنا نأمل بعودة رمضان صباح اليوم..

تند عنها زفرة يأس.

- .. وفي أسوأ الاحتمالات كنا نأمل نسمع أخبارا عنه!

***

لأن الصباح لم يسفر عن شيء جرى تكليف عبدالله بالبحث. ذهب إلى شبرة خضار الرقة..

"لا أثر لرمضان ولا لسيارته".

بدأ جولة واسعة في منطقتي خيطان والفروانية، بحث عن أصدقاء رمضان المعروفين والمحتملين.

"لا خبر!".

القلق يأخذ منحى الفجيعة. الاحتلال وحالة البلد. ما يرد في الذهن:

"لو كان رمضان حيا.. لعرف يتصل تليفونيا، أو يبعث خبرا!".

***

- مع حلول المساء وردت في بال أمي فكرة.

إيمان تتحدث، تواصل:

- .. طلبت من أخي عبد الله يذهب ثانية إلى شبرة خضار الرقة، يسأل عن شريك رمضان بالاسم..

تصمت برهة قصيرة تحصر ذهنها فيها.

- .. انصاع عبدالله لطلب أمي. ذهب، ليعود قبل ساعة..

صوتها ينشحن توقعا:

- .. العاملون في شبرة الخضار خبروه بمجيء مفرزة من جنود الاحتلال ظهر أمس، سألوا عن المعني بالاسم، أخذوه مخفورا..

وردت ذهن سلطان فكرة..

"لو عرفنا المكان الذي أخذوا شريك رمضان إليه..".

سؤاله يسبق استنتاجه:

- إلى أين؟

أحبطته إجابتها:

- إلى جهة مجهولة.

لمزيد من الايضاح أضافت:

- .. فيما يخص رمضان.. أجمع العاملون في شبرة الخضار أنهم لم يروه منذ أمس الأول.

تطلعت فيه أن كان لديه ما يقوله. عتبه ما يزال يحز في نفسه. الأيام القليلة التي عايش أهلها فيها.. اللمة والتآلف. شركاء البيت شركاء المحنة. لم يتردد يتساءل:

- لماذا لم أعرف عن غياب رمضان في حينه؟!

عيناها تواجهانه. نظرة محبة مشوبة رثاء. قالت:

- ها أنت عرفت الآن!

أحسها كما لو انها تساءلت بتعجيز:

- "ما الذي تستطيع تفعله بهذا الخصوص؟!".

(24)

الكويت تحت الاحتلال. الاضراب العام بشموليته يذهل العالم، ويصيب المحتل بهستيريا، هي خليط من الغضب والحقد والحيرة والعجز، وليس من متنفس أمامه سوى البطش، ومزيد منه.

مقابل ذلك يتجلى - أكثر فأكثر - منحى التآلف والتآزر والإيثار ما بين الكويتيين والكويتيين وجماهير غفيرة من المقيمين.

شعور عام مدعم بقناعة راسخة.. ما هو حادث الآن لا يعدو كونه كابوسا مؤقتا مؤهلا يزول في أية لحظة قادمة.

الصمود قدر لا بد منه والمقاومة أيضا. الأمس.. اليوم .. الليلة.. حالة عبور - لا قبل ولا بعد - محفوفة بالموت والحب.

الاحتلاليون يبدأون يستوعبون ما الذي تعنيه الكويت كحالة مستعصية على التسليم. يبادرون - بطرق وأساليب جديدة أو قديمة - يحاولون إحكام قبضتهم.

الانتشار. الكم العددي الهائل من العساكر والآليات. الفتك والفتك المضاعف. الارهاب تنويعات متباينة. اعتقال يرافقه تعذيب ينتهي بإعدام. الاعدام يتخذ صيغة:

"عبرة لمن اعتبر".

مفرزة جنود بإمرة ضابط تأتي بالمعتقل الكويتي عند باب بيته. المعتقل عسكري من زبانية العهد القاروني المباد، أو أحد المخربين من الموتورين أعداء العهد الجديد الزاهر.

- هذا ولدكم!

العائلة الكويتية تفجع برؤية ولدها أو عائلها. آثار التعذيب لا تستثني مكانا من جسده. رغم هذا..

"مجيئهم به إلى بيته يعني انتهاء تحقيق .. يعني اطلاقه.. امكانية مواصلة حياة..".

الذي يحدث:

- ابتعدوا عنه!

ضابط المفرزة ينهر من يجرؤ يقترب. يكمل:

- .. دعوه يدخل البيت وحده!

"امتحان من نوع ما!".

ضابط المفرزة يصرخ بالمعتقل:

- هذا بيتك.. ادخل!

حيرة المعتقل وتبادل نظراته مع أهله. هل يقوى على المشي؟!

الضابط يؤكد أمره:

- اسرع!

المعتقل يخطو. نظرات أهله ترافقه. يقترب من باب بيته. في اللحظة.. مفرزة الجنود.. حشد من البنادق الاوتوماتيكية.. انهمار رصاص.. الجسد الكويتي يتلقى.. يتطوح .. يتهاوى مزقا.. ينتفض وهلة.. يهدأ .. الدم. مرأى الأهل، حتى الأطفال منهم..

"عبرة لمن اعتبر!".

***

الإرادة الدولية ممثلة في قرارات مجلس الأمن، العالم من أقصاه إلى أقصاه يطالب النظام العراقي بسحب جيوشه من الكويت، بهدف أن تعود لها شرعيتها. النظام العراقي يتحدى.. يرفض يستجيب.

طوق المقاطعة الدولية يزداد إحكاما يوما بعد يوم. الاحتلاليون يماطلون. يراهنون على الوقت.

محللون سياسيون من شتى أرجاء العالم يؤكدون.. احتلال العراق للكويت ليس سوى عنق زجاجة حشر نظام بغداد نفسه فيه.

"مسألة وقت"

الحكومة المؤقتة لجمهورية الكويت الفتية تجتمع وتقرر:

"بناء على الظرف العالمي المستجد، وحرصا منا على مسيرة الثورة، وحفاظا على المنجزات الوطنية والقومية، ونظرا للمصير المشترك الذي يربط الشعبين الشقيقين الكويتي والعراقي.. وبما أن الوحدة العربية قدر لابد منه.. نزف إليكم هذه البشرى..".

لحظتها تذكر سلطان ما أدلى به رحال في مكالمة اليوم الأول للاحتلال من خلال سؤاله:

- رأيك بالمتغيرات الحالية؟!.

البشرى المزفوفة تتضمن قرار اعلان وحدة فورية اندماجية. يترتب عليها تسليم كافة السلطات والمسؤوليات إلى الشقيق الأكفأ، والأقدر على التصدي للمتغيرات.

- "متغيرات؟!".

كان سلطان – في حينه – تساءل على رحال، فجاء التوضيح:

- ".. التي طرأت على الساحة الكويتية اليوم".

الساحة – تمشيا مع المتغيرات – ما عادت كويتية. النظام العراقي – برحابة صدر أخويّة – يتقبل عرض الكويت تندمج بالموطن الأم.. العراق.. ليبدأ على الفور إعلانها مجالا لاجتهاد آخرين.. غير اسم المحافظة الجديدة.. نداء.

برهان قاطع .. أولئك الذين كانوا كويتيين صاروا ندائيين، بعدما حاصرتهم ثورتهم، فتنادوا يطلبون نجدة جار الشهامة والنخوة.

***

يوم رابع لاختفاء رمضان. الكويت على صغرها وضاعت كل الجهود للعثور على أيما أثر له، أو لسيارته.

محاولة قبول الأمر الواقع. ضحايا الاحتلال العراقي لا حصر لهم، ورمضان ليس استثناء.

القنوط يهيمن على كل من في البيت. حنان – زوجة رمضان - أصرت – بدءا من أمس – تلبس سوادا. الصبي جعفر حالة ضياع، وضاعت محاولات موسى ووفاء بالتخفيف عنه.

سليمان – صغر سنه – يحدس المأساة. يعانيها، ولا يدرك سببها. كان يبذل جهده يلاعب الآخرين دون جدوى. الأم خصصت جانبا من وقتها للصلاة والدعاء. كتمان الخبر عن الحاج محمد له حدوده كان كلما ألح يسأل:

- أين رمضان؟!

تصله إجابة جرى اتفاق الجميع عليها:

- عند أصدقائه في خيطان.

ضحى اليوم حل وقته يعرف. كان دخل المنزل مصادفة شاهد ابنته الكبرى تبكي بمرارة. في حين كانت زوجته تأخذها إلى صدرها تواسيها. وقف أمامهما مذهولا لثوان.

- أنتم تخفون أمرا!!

تساؤله – حافة الفجيعة – يتشرب عتبا إدانة. زوجته تتطلع فيه مشدوهة، كانت كمن بوغت متلبسا.

- نحن..

أزمعت تجيبه، لكنه فاجأها بسؤال حاد آمر:

- ماذا أصاب رمضان؟!

زوجته حارت ماذا تجيبه. ابنته هي التي..

- لا ندري!

رددتها بلوغة، قبل أن ترفع صوتها معولة.

"ما الذي تعنيه معرفة تفصيلات لا تجدي؟!".

انطعن وجه الحاج محمد بالدم.

- لا حول ولا قوة إلا بالله!!

غمغمها بتسليم عاجز. استدار منصرفا. عادت الأم التقطت أنفاسها. خشيتها وقع الصدمة عليه.. ما عادت بالحدة ذاتها.

أثر انصراف الحاج محمد، طلبت ولدها عبدالله. قالت له توصيه مشيرة إلى الحاج محمد:

- لا تدعه يغيب عن عينيك!

***

ساعة الظهيرة وصل أبو الفدا. بدا على عجلة من أمره. قال:

- لن آخذ من وقتك الكثير!

مد يده إلى جيبه.

- وجبة أولى من ملخص محاضرات عن العمل الميداني للمقاومة المسلحة.

يدفع لسلطان رزمة أوراق. يواصل:

- .. أوافيكم بالوجبة الثانية حال توافرها.

سلطان يهم يعقّب. أبو الفدا يكمل:

- .. إن أردتم تعرفون أخبارنا..

عيناه تشعان توقعا.

- .. شكلنا وحدة مقاومة ثانية..

تعجله إفضاء أخباره.. آثر سلطان يصغي.

- .. عرفنا نتصل بإحدى مجموعات المقاومة الكويتية في منطقة الرميثية.. شفتاه تنفرجان ابتسامة رضا.

- .. لم يبخلوا علينا بالسلاح.. زودونا بخمس بنادق ذاتية وكمية كافية من العتاد. ألقى نظرة خاطفة على ساعة معصمه.

- لقاء مع الشباب..

المعنيون من الشباب هم أفراد مجموعته، أضاف:

- .. اعداد خطة عملية.. إمكانية تنفيذها الليلة.

***

أبو الفدا. مغادرته بالسرعة التي قدم بها. سلطان وشعوره العمل المكتبي.

"ما الذي يمنع المحاولة؟!".

فكرة مشاركته عملية مقاومة.. مواجهة مسلحة.

"ماذا لو انه سأل إخوته؟!".

تذكر انه سبق ورفض عرض أخيه هلال تزويده بسلاح.

"ليس الآن".

إن لم تكن الحاجة الآن.. متى تكون؟!.. أهي المكابرة؟!.. أم انها يقينية حدود الإمكانية؟!.

فكرة يتزود سلاحا.. يشارك مواجهة.. يطلق النار.. يقتل.

"لا تؤخذ الأمور هكذا!".

من خلال خارطة فعل المقاومة باتساعها كي يشمل الكويت كلها لا يجد سلطان نفسه يحمل بندقية.. يطلق..

ما بين هذا وذاك يترسب داخله احساسه عطالته، وهامشيته إزاء الأفعال المنجزة لغيره.. يبقى التعويض..

"حتى يجد جديد".

***

كان سلطان يشغل وقته يتفقد حديقته عندما وصل محمد صالح.

- آسف .. جئت من غير موعد مسبق!

قالها صيغة اعتذار. أضاف:

- .. لكنها الضرورة.

يطمئنه سلطان ملاطفا:

- مادامت الضرورة..

وصول محمد صالح بعث فيه جانبا من حيوية.

- فكرت نذهب إلى مكاتب الشركة!

قالها صيغة اقتراح، وانتظر رد فعل محدثه. مكاتب الشركة.. منطقة الصحن شارع فهد السالم - أومأ له سلطان برأسه يشجعه يدلي ما لديه.

- .. الفرق المتخصصة بأعمال السلب والنهب من جيش النشامى..

صوته ينضح سخرية مريرة..

- .. أنهت واجبها تجاه المحلات التجارية في شارع فهد السالم. مجمع المثنى - الكويت الكبير .. سوق الوطية..

تنبه سلطان إلى الحاج محمد يقترب. يقف على بعد خطوات يراقبهما - محمد صالح يواصل يدلي:

- .. هذه الفرق تحولت إلى مباني المكاتب..

الضرورة - كما يراها محمد صالح - .. السجلات الرسمية، الوثائق، العقود - جوازات سفر العاملين.. تلك أمانة، وهذه ذمة.. ولا أحد يدري..

مكاتب شركة سلطان لم تتعرض للنهب بعد، قبل قليل كان محمد صالح - رغبته ينجز المهمة بالسرعة الممكنة، لكن عساكرهم اعترضوه..

- "هل أنت صاحب الشركة؟!".

يعرفها حجة واهية، انما..

- .. اشتريت ذمة جنديين، بمبلغ من المال، طلبت منهما .. عيونهما عمي -

ريثما ما كان أمام سلطان إلا..

- نذهب!

***

سبقه محمد صالح إلى سيارته. أدار محركها. في اللحظة التي اقترب فيها سلطان من سيارة الأول سمع وقع خطوات خلفه. التفت. رأى الحاج محمد.

- هل .. ضروري .. تذهب؟!

كلماته ما يشبه الاستعطاف. عيناه تنمان طلبا راجيا. حز في نفس سلطان يراه هكذا، في وقت استغرب فيه تصرفه.

- لماذ؟!

وجه سلطان سؤاله مضمنا رقة. الحاج محمد لا يحير جوابا. سلطان يجد سؤالا آخر:

- هل هناك مانع؟!

جفنا الحاج محمد يطرفان.

- لا تذهب!

سلطان يبتسم في حيرة.

- لماذا؟!

تحركت شفتا الحاج محمد دون صوت. لعله رغب يقول شيئا. استدار بعدها على نفسه. مشى مبتعدا.

"أمر ما في باله!".

تساءل سلطان حائرا محبطا. ندت عنه زفرة تسليم. محرك سيارة محمد صالح ما زال يدور. فتح باب السيارة.. لحظة تداعى جسد الحاج محمد.. اسفلت الشارع، على بعد خطوات.

ندت عن سلطان صرخة مشروخة لا واعية. شاهد الجسد الكهل ينتفض كما الطير الذبيح.. تشنجات عصبية خرقاء. ركض. تنبه إلى عبدالله يصل راكضا. محمد صالح بدوره.

***

قال عبد الله:

- نوبة مرض السكري!

قال سلطان يوضح لمحمد صالح:

- عانى ضغوطا جراء اختفاء زوج ابنته الكبرى.

قال محمد صالح:

- مضاعفة ضغوطه العصبية.. خوفه فقدان زوج ابنته الأخرى.

لحظتها أدرك سلطان سبب إصرار الحاج محمد عليه يبقى.. الابتعاد عن البيت يعني احتمال الفقدان.

كان هو ومحمد صالح منهمكين يدلكان أطراف الحاج محمد، في حين تابع عبدالله تشنجات فكيه، خشية يعض لسانه.

حين استفاق بعد قليل تطلع في الوجوه المنحنية عليه بنظرات مستغربة زائغة. تساءل ببراءة طفل مضيّع:

- ماذا حدث؟!

أجابه محمد صالح مطمئنا:

- "حصل خير".

ساعدوه على النهوض.

- ماذا؟!

عاد يتساءل بحيرة، أجابه سلطان:

- ستذهب معنا.

(25)

كانت السيارة اجتازت الإشارة المرورية الحمراء لتقاطع شارع القاهرة بالدائري الثاني، سالكة طريقها في اتجاه المدينة. محمد صالح يتولى القيادة. سلطان يجلس إلى جانبه. الحاج محمد يحتل المقعد الخلفي صامتا، كان انقاد لطلب سلطان كما الطفل دون أدنى معارضة.

"غريبة!!".

تساءل سلطان صامتا. الشوارع تخلو من البشر والسيارات المتحركة عدا سيارتهم. سور النادي العربي على اليسار منهم. فتحات السور تتبدى عن آليات عسكرية تزدحم بها ساحات النادي.

- اتخذوه معسكرا!

قالها محمد صالح وصمت. فكر سلطان:

"الكويت كلها معسكرهم!!".

منطقة المنصورية تبدو وكأنها خلت من سكانها، وكذلك منطقة الدسمة على اليمين.

"الناس تعتصم بيوتها!".

اقترابهم من تقاطع الدائري الأول. حفريات الشارع باقية. العلامات الإرشادية.. المساحة المتبقية عن حديقة الحزام الأخضر مزدحمة بالدبابات والسيارات المصفحة.

فجأة تنبه سلطان.

- لا وجود لنقاط سيطرة!

رددها مستغربا. أجابه محمد صالح:

- جراء عدم وجود البشر.

تذكر يضيف:

- عدا عساكرهم.

***

السيارة، تواصل سيرها. مجمع الوقاف يمينا. موقف سيارات المجمع يزدحم بشاحنات عسكرية، وبضع سيارات تاكسي عراقية بألوانها المميزة، وعشرات من الجنود في حركة دائبة، يعملون على نقل أكياس بلاستيكية سوداء منتفخة.

- ينهبون محلات المجمع!

أشار محمد صالح، أكمل مبديا حقدا:

- حولوا الجيش العراقي إلى عصابات لصوص وقطاع طرق!

- لا حول ولا قوة إلا بالله!

غمغمها الحاج محمد من مقعده الخلفي.

"من أين تتأتي جرأة إعلانها وحدة اندماجية!".

***

المبنى القديم لوزارة الإعلام بمواجهتهم. المرة الأولى التي تتوفر فيها الفرصة لسلطان يرى قلب المدينة ما بعد الاحتلال. حركته في الأيام الماضية اقتصرت.. بيان - الروضة - السالمية - المناطق الواصلة بينها.

هناك.. بشر حركة، سيارات على قلتها، هنا.. مدينة أشباح بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.

حطام سيارات. هياكل. أبنية خاوية. شوارع مقفرة، عدا زمر من جنود يتحركون بخفة في ظلال الأبنية، حاملين أكياسهم البلاستيكية السوداء.. يظهرون فجأة .. يختفون بأسرع.

"ما الذي يحدث؟!".

وهذا الانقطاع المطلق عن العالم الخارجي. قرارات دولية تتخذ في الخارج. جيوش لم يشهد لها التاريخ مثيلا من قبل تحشد.. في الخارج، أما الداخل.. استباحة حرة بمصاريعها كافة على الحدود غير الفاصلة مع العراق.

"حياكم الله!".

بناء على مقتضيات المصير المشترك للشعبين الشقيقين.. وبما أن الوحدة العربية قائمة وقسرية رسمنا بما هو آت..

إلغاء الكيان الهزيل لما كان يدعى دويلة الكويت بعدما ثبتت عمالتها وتبعيتها الذيلية للاستعمار والامبريالية بصفتها قاعدة للصهيونية والجاسوسية العالمية، والحكم بالاعدام على كافة أزلام العهد المباد، ومصادرة أموالهم السائبة بالسرعة الممكنة.. وإليكم قراءة لجانب من سيل برقيات التهنئة والتأييد..

***

الكويت صارت نداء، والمطلاع صدامية، ما الاسم الذي سيطلق على شارع فهد السالم؟!.

أكوام نفايات. كراتين فارغة. أبواب وواجهات زجاجية مهمشة. الطوابق العليا لمبنى مؤسسة الخطوط الجوية الكِويتية محروقة. ما الذي دعاهم يستثنون الطوابق السفلى؟!.

الطائرات الكويتية صبغوها عراقية، وما عرفوا يطيرون بها بعيدا، من جراء إحكام الحصار العالمي.

باصات النقل العام الكويتية أبقوها عامة طمسوا كلمة كويتية بصباغ بوية، سيروها في شوارع بغداد ومحافظات شقيقة لمحافظة النداء.

العام بالخاص.. والوحدة تعني الاستباحة .. ليست شريعة غاب، لكنها قوانين صدرت بمراسيم.. ولم تفهم علنا.

ما تراه لا علاقة له بالدهشة أو الاستغراب. ضمن ساحات أرض الفراغ الكائنة بين شارع الخليج وأي شارع آخر مواز له تصادفك مقبرة للسيارات ما كانت موجودة قبلا.

آلاف من هياكل حديدية عارية. لا عجلات، لا نوافذ، لا مرايا، لا أضوية، لا أبوابن لا محركات، لا زجاج أمامي أو خلفي، لا فرش..

الذي يعرفه سلطان.. مقبرة السيارات في مكان ما بين منطقة الجهراء ومقبرة الصليبخات.

النشامى حولوا مدينة الكويت إلى مقبرة أخرى، كل السيارات التي اضطر أصحابها أن يتركوها يوم الغزو.. مر عليها جراد نظام بغداد.. عراها من كل ما يمت لامكانية الاستفادة بصلة.

- لماذا لم يستولوا على السيارات كاملة؟!

تساءل الحاج محمد بذهول. أجابه محمد صالح مشيرا:

- هذا فعل جنود أفراد .. يتاجرون ببيع القطع..

الحاج محمد لا يكاد يفهم.. مما يدعو محمد صالح يستطرد موضحا:

- .. لو أخذوا السيارة كاملة صالحة للاستعمال.. أخذتها حكومتهم منهم.

***

مكاتب الشركة تقع في مبنى يطل على البحر. ولأن عساكر الاحتلال يصرون يتحصنون مواجهة البحر.. كانوا وضعوا أيديهم على المبنى. ثلة من الجنود يرابطون عند المدخل.

- هم لم يبدأوا بتنظيف المبنى بعد.

قالها محمد صالح يطمئن من معه. خفف من سرعة سيارته ريثما أوقفها. رفع يده يحيي الجنود.

- السلام عليكم!

أحد الجنود يتطوع يرد السلام، ينبه محذرا:

- اقضوا حاجتكم بسرعة.. خشية وصول ضابط الدورية!

أدرك سلطان أن اتفاق محمد صالح معهم مازال ساري المفعول.

***

بضعة أيام منذ انقطع يجيء مكتبه. من أين يجيئه احساسه بانقطاعه عن المكـ منذ أمد سحيق؟!

العتمة النهارية خلل الهواء الراكد، والرائحة المتخمرة المترتبة على الاحساس بتر الغبار ضمن حيز مكاني مغلق.

- علينا أن نسرع!

غمغم محمد صالح. لحظة تلفت الحاج محمد حوله:

- ما الذي يمكن أساعد به؟!

تطلع محمد صالح في وجه سلطان، أبدى الأخير وجهة نظره:

- نبدأ بالوثائق والمستندات المهمة!

***

سباقهم مع الوقت. سلطان ومحمد صالح توليا فرز ما هو مهم. الحاج محمد تولى مهمة النقل.. حيث السيارة.

- ماذا عن الأجهزة؟!

تساءل محمد صالح. كانوا أوشكوا على الانتهاء. اعمل سلطان ذهنه برهة.

- جهاز تصوير .. ربما..

التمعت عينا محمد صالح موافقة. أضاف:

- آلة طباعة.. أيضا..

فوجئوا بظهور أحد الجنود بينهم.

- تأخرتم!!

صوته فيه هاجس انزعاج. بادره محمد صالح ويده تشير إلى جهاز التصوير:

- خذ هذا إلى السيارة!

لم تراود الجندي فكرة يجادل. سارع احتضن الجهاز، ادبر به، وهو يردد يوصي:

- حاولوا .. بسرعة!

اثر انصرافه أبدى سلطان دهشته:

- امتثل دون اعتراض!!

اختصر محمد صالح إجابته:

- قبض أجره.

***

لدى إزماعهم مغادرة المكتب تنبه الحاج محمد إلى أن الخزانة الحديدية بقيت مفتوحة.

قال لسلطان مذكرا:

- أنت لم تقفلها!

- تعمدت ذلك.

أجابه سلطان، أتم:

- .. لكيلا يضطروا لكسرها.

عند مغادرتهم تعمد محمد صالح ترك الباب الرئيسي للمكتب مواربا. قال إحالة على ما قاله سلطان:

- للسبب نفسه.

***

سلوكهم طريق العودة. كان الحاج محمد بدأ يصبح جزءا من كيان المغامرة ممثلة بما قاموا به. كان غادر شعوره الضياع. عادت التماعة الاقبال على الحياة تبان في عينيه.

- إذا صادفكم مشوار آخر..

أومأ سلطان موافقا:

- "لا تستغني".

***

مع انعطاف السيارة بهم من طريق فحيحيل السريع تجاه مدخل منطقة بيان حدث ما لم يكن بالحسبان. كان الحاج قفز في مكانه من مقعده الخلفي.

- .. ذاك الرجل!

صرخ مأخوذا بفرحة عارمة، وأصبعه تشير باتجاه مساحة الأرض الفضاء في الجانب الآخر للطريق. وأكمل:

- .. رمضان!!

دقق سلطان نظره. رمضان يمشي مجرجرا قدميه بإعياء واضح. وجهه إلى الأرض ذقنه تكاد تلامس صدره. كتفاه منهدلتان.

"أربعة أيام غياب لا غير!!".

تساءل سلطان مع نفسه باستغراب لا حد له. كان رمضان شاخ عشرين سنة زيادة.

***

الفرح وحده لا يكفي. حين وصلت السيارة بوابة المنزل كان جعفر هناك، ما أن توفرت له فرصة يرى أباه حتى رفع صوته عاليا:

- جاءوا بأبي!

الجميع يتراكضون إلى البوابة. ضحكات الفرح تختلط بالدموع.

- كيف؟!.. أين؟!.. متى؟!.

أسئلتهم تدافع بعضها. تصدى لهم الحاج محمد بصفته صاحب الانجاز:

- عثرت عليه عند مدخل بيان.

***

التفاف الجميع حول رمضان. فرحهم بعودته لم يمنعهم بإبداء جزعهم إزاء ضمور خديه، هزاله العام، تقطع أنفاسه لدى متابعة حديثه. تنبهت زوجته إلى أنه فقد سنا من أسنانه الأمامية. قال:

- كلوني بأخذيتهم على وجهي!

تنبهت الأم سألته:

- أنت جائع؟!

- آخر وجبة تناولتها..

ندت عنه ضحكة مخنوقة.

- .. كانت هنا.

انتقل بعينيه إلى وجه سلطان يستشهده، أتم:

- .. الشيء الوحيد الذي كان متوافرا.. ماء الحنفية في دورة مياه غرفة توقيف المخفر.

عيونهم جميعهم تنشد إليه. حانت عن سلطان التفاتة ناحية الحاج محمد. رآه يتابع يصغي، ودموعه تنبجس من عينيه. كان استعاد عافيته كاملة بعودة زوج ابنته.

(26)

يوم خروجه من هنا في طريقه إلى شبرة خضار الرقة صادف رمضان نقطة عند جسر الفنطاس. جنود تلك السيطرة استوقفوه، سألوه عن جنسيته.

- إيراني.

فاجأوه برد فعلهم:

- ما الذي يدعوك تبقى هنا؟!

أصدقهم قوله:

- أنا أعيش هنا.

اثنان منهم كانا يتفحصان السيارة باهتمام.

- ذلك على أيام قارون..

واجهه أحدهم هازئا، واصل:

- .. أما الآن..

لم يكمل جملته. حار رمضان ماذا يقول. اضطر يردد:

-لم أفهم!

أجابه الجندي بصيغة غاضبة:

- يجب ترحل إلى بلدك!

غمغمته الحائرة:

- "أرحل؟!".

احساسه أن هذا الجندي لا يملك حقه يأمره يغادر الكويت. الموقف و مسايرتهم هواهم. قال هادفا يوضح:

- لكني أعيش هنا منذ ما يزيد على عشرين سنة!

انطباع بالغضب يأخذ وجه الجندي. قال:

- أوراقك الثبوتية!

ناوله رمضان بطاقته المدنية. الجندي لم يكتف.

- ماذا لديك غيرها؟

ناوله رخصة قيادته. لم يكتف.

- جواز سفرك!

أبدى رمضان دهشته:

- ليس في حوزتي.

يبادره الجندي:

- أوراق السيارة!

وعندما تسلمها أصدر أمره إلى رمضان:

- انزل!

رمضان حالة ارتياب مشوبة قلقا. تساءل مترددا:

- لماذ؟!

أجابه الجندي دون أن يخفي انزعاجه:

- نريد نفتش السيارة.

***

أدرك رمضان لحظتها أن حدثا ما ينتظره، وما كان أمامه – كي يتحاشى إثارتهم سوى انصياعه لأوامرهم.

أوقفوه بحراسة أحدهم على بعد خطوات من سيارته. فوهة البندقية تجاه صدره، في حين انهمك الباقون يفتشون.

- يكفي!

ارتفع صوت أحدهم طالبا من رفاقه الكف عن البحث، أضاف مخبرا:

- وجدت الدليل!

أحس رمضان بقلبه يهبط داخل صدره.

"ما الذي وجدوه؟!".

الجندي ذاته يقترب. يمد كفه تحت أنف رمضان.

- ما هذا؟!

تساءل بتشف. تطلع رمضان في الكف تحت أنفه. شاهد ثلاث رصاصات نحاسية

اللون. ذهنه لا يكاد يعي الحالة في التو. أعاد تساؤل الجندي بغمغمة ضياع:

- ما هذا؟!

يجيبه الجندي يزجره:

- طلقات كلاشنكوف.

رمضان نهب حالة ضياعه مازال..

- من أين؟!

يجيبه الجندي يزجره:

- من داخل سيارتك.

ذهن رمضان يلم بالموقف. هناك من يهدف يوقع به. قال كمن يدافع عن نفسه:

- أحدكم هو الذي..

لم تتسن له فرصة يكمل. كان الجندي لطمه على وجهه.

- تتهمنا يا مجوسي!!

***

طلبوا منه يصعد سيارته. اركبوا معه جنديين ببندقيتين مشرعتين. أمروه بالتوجه إلى مخفر منطقة الصباحية.

لدى وصوله هناك أدخلوه بسيارته من البوابة الخلفية للمخفر. أخذوه غرفة التوقيف. قالوا له:

- ريثما .. الضابط المسؤول.

وحده. وحشة المكان. عتمة نهارية حد الإظلام. أول مرة في حياته يحدث له يعتقل. "لماذا أنا بالذات؟!".

سؤاله يجلد ذهنه. ما حدث أشبه بكابوس غير قابل للتصديق. يبقى أمله.. لعل مثوله أمام ضابطهم يسفر عن..

***

جاءوه بعد ساعة. فوجئ بهم يضعون قيدا حديديا في يديه. يأخذونه إلى ضابطهم.

- اعترافاتك!

نسأله الضابط وجها لوجه. أحس رمضان كما لو أن الأمور تخذله.

- بماذ؟!

سأل مترددا. أجابه الضابط بصوت صارم:

- علاقتك بالمخربين الذين تعمل معهم!

فهم رمضان يستعصي عليه. ما قبل الاحتلال كان يعرف يحدد الجهة التي يتعامل معها، أما هؤلاء الأغراب..

- أنا لا أعرف مخربين.

النفي بحد ذاته لا يكفي. كان الضابط حدق إليه في عينيه.

- إن لم تعترف طوعا..

نذيره في صوته.

- .. سنعرف كيف ننتزع اعترافاتك منك!

شعوره بالظلم الواقع عليه. لم يجد ما يقوله سوى:

- أنا عندكم!

قالها بصفة من يندب حظه. يدري أن حربا ما شرسة سبق قامت بين العراق وإيران.. يدري بها دامت سنوات.. سمع عنها توقفت. طوال كل تلك السنوات لم يغادر الكويت إلى إيران. لم يغادرها إلى أي مكان آخر.

"العراقيون الآن!!".

***

كان وجه الضابط نم عن امتعاضه.

- الاسلوب الإنساني – على ما يبدو – لا يجدي معك!

رفع صوته طالبا أحد جنوده، وما أن دخل الأخير..

- خذه إلى غرفة التحقيق!

- أمرك سيدي.

أبدى الجندي استعداده، قبل أن يلتفت إلى رمضان.

- "امش!".

يسوقه أمامه. يدخله غرفة كبيرة عارية إلا من منضدة مع كرسي في الزاوية البعيدة، ومروحة قديمة تتوسط السقف يتدلى منها حبل قصير بأنشوطة.

غادره الجندي مغلقا الباب من ورائه. تفحص رمضان المكان بدقة أكثر. لفت نظره وجود حزمة عصي وخراطيم ماء ملقاة على بعضها في أحد الأركان.

***

- علاقتك بالمخربين؟!

الضابط يتخذ كرسيه وراء المكتب. جنديان عملاقان، بجسدين ضخمين، يقفان إلى جانبي رمضان.

"المخربون المعنيون.. كيف؟!".

دار في بال رمضان قبل رده:

- لا أفهم ما الذي تسألوني عنه!!

فوجئ بالجنديين يتناوبانه يلكمانه على وجهه. ندت عنه صرخة ألم غير مدركة. عيناه .. شيء ما أشبه بالشرر. مادت الأرض بقدميه.

- لعلك فهمت الآن!!

سخرية الضابط تنضح صوته.

"من أين؟!".

وجه رمضان. رأسه ينبض بألم حاد مدوخ. لم يسبق له عهده. راودته رغبته ينخرط يبكي. لكنه في حضرة هؤلاء.. سخريتهم ستكون أشد..

- ما الذي تقوله؟!

يعود ضابطهم يسأله. دوار رمضان يعصف رأسه. أعاد سؤال الضابط مبديا ضياعا عاجزا:

- ما الذي أقوله؟!

الجنديان يتناوبانه يلكمانه من جديد.. يداه .. القيد الحديدي. بذل جهده يبقى واقفا على قدميه، وبذل جهده بحبس أنفاسه، يضغط فكيه، يمنع نفسه يصرخ.

***

- علاقتك بالمخربين؟!

الضابط، إصراره يعود يكرر سؤاله ذاته، رمضان ودائرة العجز المطلق. لو أنه يعرف ما الذي يهدفون إليه؟!.. لو أنهم يواجهونه بأسئلة يعرف يجيب عليها؟!

لكماتهم تتوالى على وجهه. بعد وهلة من الضرب بدأت المرئيات تتداخل في عينيه. خطوط متقاطعة من ضوء منطف. خدر حاد يتشبث رأسه كله، يزداد تنمله في مؤخرة رأسه. حالة من وهن مقيت تعصف به من ركبتيه. تذكر أن أحدا من أهله لا يعرف مكانه. تذكر أنه تهاوى، وتذكرهم يركلونه بأحذيتهم.

***

حين أفاق وجد نفسه مكوما على الأرض العارية. احساسه الألم ينبض في رأسه. فتح عينيه. أجالهما حواليه. الجنديان ما زالا منتصبين عن قرب. تنبه إلى وجود ضابط آخر شاب يقف مسندا جسده إلى طرف المكتب.

- اسمي طارق ياسين.

قال الضابط مشيرا إلى صدره. لهجته لا تخلو هامش سخريته. أصبعه تشير إلى رمضان.

- ما اسمك أنت؟!.

رمضان لا يملك حق يستغرب. تحامل على نفسه كي يقف. حالة من دوار باقية تعصف به. فمه.. حرك لسانه .. هناك فجوة في أسنانه الأمامية. طعم الدم. عليه ألا يفكر.

- رمضان خسروي.

أجاب السؤال الموجه إليه. الضابط يؤمن بحركة استحسان من رأسه. يسأل ثانية:

- من أي بلد أنت؟

- من إيران.

يعود الضابط يؤمن بحركة من رأسه.

- اسمع يا خسروي إيران!

"من يملك حق ماذا؟!".

حواس رمضان تستوفز. يسمع.

- .. نحن لا نعرف شيئا اسمه كتم المعلومات.

يبقي رمضان عينيه معلقتين على فم الضابط ينتظر توضحيه.

- الاعتراف..

قالها الضابط مشددا على كلمته، أكمل:

- .. أو الموت.

أحس رمضان رعدة مثلجة تهز جسده. لماذا هو بالذات؟!.. غمغم بدفاع عن النفس ضعيف:

- أنا لا أكتم معلومات!

- جيد.

عقب عليه الضابط يجاريه، قبل أن يسأله:

- أسماء الأشخاص الذين تتعامل معهم؟

حيرة رمضان تعود تحاصره. من أين له بأسماء؟!.. عيناه تزوغان صوب الجنديين. العملاقين. خشيته يبدآنه.. فهم الضابط عليه. قال مشترطا:

- ما دمت تتكلم..

خلاصه كيف؟!.. مطلوب منه يتكلم!.. قرر يفعل.

- كنت راكبا سيارتي في طريقي إلى شبرة الخضار..

فاجأه الضابط سأله:

- لماذا؟؟

أجابه رمضان على طرف لسانه:

- أعمل هناك.

فاجأه الضابط سأله:

- مع من؟!

لحظتها أحس رمضان نفسه وكأنه ينزلق إلى هاوية لا قرار لها. غمغم معترضا بصوت ضعيف:

- ليس هكذا!

***

إصرارهم انتزاع معلومات محددة. عدم قدرة رمضان على الاستجابة. أراد يقنعهم.

- هناك سوء فهم!

قال لهم:

- لست الشخص المطلوب!

واجهوه مجتهدين:

- لسنا بسبيل إضاعة الوقت!

سألوه بنفاد صبر:

- تتكلم؟! .. أم لا؟!.

حين لم يجد ما يجيب به صدرت عن الضابط إشارة إلى جنديه.

"الرحمة!".

صرخة استغاثة احتفظ بها رمضان لنفسه. الجنديان يهرعان إليه. يحملانه. يقلبانه. رأسه إلى أسفل.. أحس بهما يدخلان قدميه في أنشوطة الحبل المربوط إلى المروحة السقفية.

"التعامل مع بشر آدميين..".

ابتعدا عنه. أحس بنفسه يهوي، لينشنق من رسغي قميه. ثقل جسده يشجه إلى أسفل. الأرض ليست بعيدة عن متناول يديه المقيدتين. حبل الأنشوطة يشد عظام قدميه، يسحقها كما كماشة جبارة. ثقل جسمه آخذ بالازدياد. دماؤه تتجمع في وجهه ورقبته. المرئيات بأوضاع معكوسة. صعوبة التمييز، وهذه الدموع التي أنبجست في عينيه غلالة زجاجية مظللة، تفاقمت بعدها الحال مع الحركة اللولبية التي أخضع لها جسده كله جراء دوران المروحة.

"التعامل مع بشر.. كيف؟!".

عجز مطلق تصحبه آلام كريهة تخضه كلها. جسده .. حركة لولبية مقذوفة إلى الخارج بقوة خارقة آخذة تتزايد.

أحس برسغي قدميه - سينفصلان عن جسمه. ليتطوح بعدها.. إلى أين؟!

عيناه - شعر بهما - تنتفخان.. تكبران. تجحظان من محجريهما. قلبه معلق ضمن فراغ أجوف مترام. أذناه تحاصران رأسه بطنين مدو لا قبل له..

- أسماء شركائك!

صوت الضابط نفذ إليه من بعيد. كان وعيه بسبيله يتلاشي عندما بدأت حركته اللولبية تتباطأ تدريجيا.

***

كانت المروحة كفّت عن الدوران. جسده كفّ يدور. وجد نفسه يتنفس بصعوبة. الآلام والدوار وهذا الذهن المشوش. لماذا هو بالذات؟!.. سمعهم يكررون سؤالهم:

- أسماء شركائك!

صعوبة رؤية وجوههم وهو في وضعه ذاك. تمنى يكاشفهم:

- "ليس كما تفهمون!".

خشي ردة فعلهم. فكر يمهد بالمعنى ذاته:

- أنا أعمل في شبرة خضار الرقة.

لم يتحولوا عن صيغة سؤالهم:

- أسماء شركائك!

مثل في مخيلته شريكه شاه بردي.. عجوز جاوز الستين. فكر:

"ما دام لا مفر.. ما داموا .. أصروا .. لعلهم إذا عرفوا اقتنعوا!!".

***

أبقوه معلقا من قدميه. غادروا الغرفة. أغلقوا بابها.

"ما الذي تعنيه حياة البشر هنا؟!".

آلامه تعصف به. ساعتان.. ثلاث.. منذ تعرضوه.. من أين خلاصه؟!. لو أنزلوه.. هل سيعرف يمشي ثانية؟!.. أم أن قدميه .. لو أبقوه عندهم ما شاؤوا. لو مات بين أيديهم.. من يتولى يخبر أهله؟!

بعد ساعة فوجئ بهم يدخلون يسوقون شاه بردي أمامهم. قامته القصيرة، هزاله، وجهه المجلد.

كان مفزوعا، حين وقعت عيناه على رمضان معلقا من قدميه اتسعت عيناه ذهولا.

- ماذا حدث لك؟!

ليتلقى أثرها صفعة مدوية من الضابط لدى إصداره أمره:

- تكلم العربية!

عنصر المباغته. تطوح وجه العجوز جانبا. تعثرت قدماه. تدارك توازنه، حدق في وجه الضابط بعينين وحشيتين.

***

اتخذ الضابط مجلسه وراء المكتب. أصدر أمره إلى جنديه مشيرا إلى رمضان:

- انزلاه!

الجنديان يهرعان حيث رمضان. يتولى أحدهما إسناد جسده من وسطه، في حين يقوم الثاني بتخليص قدميه من الأنشوطة.

تداعى جسد رمضان. الألم - كما اشتعال النار - يتأجج في رسغي قدميه. ضغط فكيه مانعا نفسه من الصراخ.

- تعال هنا!

ضابطهم يزجره. كان مكوما على الأرض. استعان بذراعيه كي ينهض، لكن قدميه.. الجنديان يبادرانه. يسحبانه أعلى. يجرانه حيث مكتب الضابط .. مهمة وقوفه على قدميه.. مطلوب منه يجالد..

- تعال هنا!

ضابطهم يزجر شاه بردي. أصبعه تشير إليه أن يقف بمواجهة رمضان. شاه بردي يمتثل صامتا.

- الآن وقد تواجهتما تكلما!

رمضان وشاه بردي يتبادلان نظرات حائرة مضيعة. الضابط يواصل:

- باقي أعضاء الشبكة!

يصمت برهة قصيرة. يضيف:

- الدور المحدد!

يغمغم شاه بردي بلغته قائلا لرمضان:

- هم يلفقون تهمهم .. لماذا؟!

يبلغ غضب الضابط مداه . قبضة يده تضرب سطح مكتبه بقوة.

- تكلم العربية!

شاه بردي يبقى عينيه على وجه رمضان يردد لغته بتصميم غريب:

- لن أتكلم لغتهم!

يحقن ضابطهم وجهه بدمائه.

- ألا تتكلم العربية؟!

أحد الجنديين يتطوع يجيب ضابطه وهو يومئ ناحية شاه بردي:

- عندما داهمناه في دكانه كان يتكلم العربية بطلاقة.

- هكذا إذن!!

رددها الضابط بحقد من بين أسنانه. نهض عن مكتبه. أمر أحد جنديه مشيرا إلى رمضان:

- خذه إلى غرفة التوقيف!

الجندي يمتثل:

- أمرك سيدي!

لحظة دفعه الجندي أمامه أدرك رمضان أن أمرا جللا سيحدث لشاه بردي. ود لو ينصحه:

"عنادك هذا.."

قبل وصوله الباب سمع شاه بردي يخاطبه بلغته للمرة الأخيرة كمن يُنذر الجميع:

- أنا مريض بالقلب!

أدرك رمضان أن واجبه يدعوه يبلغ الضابط. التفت.

- قلبه مريض!

قالها يتوسل ضابطهم بها. عاجله الجندي دفعة قوية. سمع الضابط يردد بتشف:

- سنتأكد من ذلك.

***

أعادوه غرفة التحقيق. أقفلوا بابها عليه. لم يعنوا يفكوا قيد يديه. كان الوقت ما يزال ظهرا.

ساعات معدودة منذ كان وسط عائلته، لكن احساسه الزمن.. حياته بما كانت عليه

ذكرى بعيدة، عليه يجهد ذهنه يستعيد شيئا من تفاصيلها.

شاه بردي بين أيديهم. أرهف أذنيه عله يسمع ما يدل .. انتظرهم أن يطلبوه ثانية، لم يفعلوا.

نهار أول. ليلة أولى. آلام قدميه أخذت تخف، لكن ألم معدته .. الجوع.

نهار ثان. ليلة ثانية. . انقطاع .. كما في عالم ناء.. غرفة التحقيق في الركن الأبعد من مبنى المخفر.. صدى أصوات الجنود .. وقع خطواتهم.. ولا شيء غير ذلك.

"ما الذي فعلوه بشاه بردي؟!".

جدران غرفة التوقيف تكاد تطبق عليه. شعوره الذنب يقترن مسؤولية.

"مات بين أيديهم!!".

فكرته تستحوذه لدرجة كادت تنسيه معاناة جوعه. وحين تذكر حاله..

"تراهم قرروا تركي هنا ريثما أنفق جوعا؟!".

***

يوم رابع لرمضان. تواصل حالة الانقطاع. الأحداث بتواترها الشرس. مسؤوليته عن انتفاء شاه بردي. آلام الجوع ومحاولة التعويض بشرب ماء حنفية الحمام. كان ذهنه بدأ حالة انعدام احساس بالوقت. اليأس حدود للموت، والموت حالة تلاش تدريجي، في زمن ما .. هناك .. كانت له حياة.. علاقات ..أما..

مع انتصاف النهار أو بعد بقليل جاءه – على غير توقع منه – أحد الجنود. تنبهت حواسه، سمع الجندي يقول له:

- الضابط يطلبك!

"ما الذي يريدون أيضا؟!".

سؤال احتفظ رمضان به لنفسه، وهو ينقاد للجندي.

***

ضابط آخر وراء مكتبه. رمضان يقف مواجهته. الجندي غير بعيد عنه.

- رمضان خسروي!

رددها الضابط بعدما قرأ ورقة أمامه. يجيبه رمضان غمغمة:

- نعم.

شفتا الضابط تتفرجان ابتسامة غامضة. قال:

- صدر حكم إعدامك .. اليوم!

اختلجت عضلات وجه رمضان. فاجأه وهن في ركبتيه. تمالك جسده. حدث نفسه يائسا:

"التشريع بالموت..".

تنبه إلى الضابط يحدق فيه. غمغم بتسليم هابط:

- أنا عندكم!.

عقد الضابط حاجبيه. سأل بما يشبه التحدي:

- ألست خائفا؟!

أصدقه رمضان رده:

- خائف.

الآخر يبدي دهشته:

- تضحي بحياتك من أجل حفنة مخربين ارهابيين!!

تاهت كلمات رمضان. ود لن امتلك جرأة شاه بردي. ود لو وجد شجاعة تؤهلة يقول:

"ما دمتم حكمتم بالاعدام..".

فكر بالركلة التي سيتلقاها من الجندي الواقف عنده. سمع الضابط يعود يسأل:

- ألست متزوجا؟!.

أجاب:

- بلى.

يواصله الضابط بسؤال آخر:

- عندك أولاد؟!

صدر سلطان يخزه بقوة عنده. قال:

- عندي.

- إذن..

يوسع الضابط من ابتسامته الغامضة. يواصل:

- .. ما الذي يدعوك تتستر على مجرمين؟!

تاهت كلمات رمضان ثانية. شاه بردي راح.. ارتاح.. أما هو.. الضابط لم يكف بعد.

- لو انك اعترفت على شركائك..

يده تشير إلى الباب دلالة، يكمل:

- .. أطلقنا سراحك حالا!

- من أين؟!

ندت عن رمضان شاكية ملتاعة. أمعن الضابط نظره في وجهه.

- الرصاصات التي كانت بحوزتك.. من أين؟!

"يعرفون ويسألون!!".

حانت عن رمضان نظرة خاطفة إلى الجندي. تردد برهة قبل اتخاذه قراره..

- أحدهم دسها علي..

الضابط لا يكف يسأل:

- لديك أعداء؟!

خطر في ذهن رمضان أن الضابط يستدرجه لمنحى آخر مغاير لسابقه. خفق قلبه. تذكر زمنه عندهم. لم يتردد يقول:

- كثيرون.

يضع الضابط عينيه في عيني رمضان.

- هل تقسم انك بريء؟

"الأمور غيرها!!".

***

استجاب رمضان أدلى قسمه.

- نطلق سراحك..

تعلقت عينا رمضان بشفتي الضابط. كان الأخير أضاف:

- .. لقاء غرامة مالية.. ألف دينار كويتي!

"مثابة ماذا؟!".

الأمل لحظة وأده.

- من أين؟!

تساءل رمضان يائسا. قال له الضابط:

- نعرفك لا تحمل هذا المبلغ معك.

لم يهدف رمضان يقاطع الضابط كلامه، لكنها الحال..

- ولا في البيت!

صدرت عنه عفوية صادقة. فوجئ بالضابط يزجره:

- تدبر أمرك!

رمضان احساسه هاجس ابرام صفقة. تشجع. تساءل مشيرا بالقيد الذي يكبل معصميه:

- كيف أتدبر..

يقاطعه الضابط:

- سنطلق سراحك بضمانة أوراقك الثبوتية.. سنحتفظ ببطاقتك المدنية ورخصة القيادة.. لحين..

هاجس ابرام الصفقة. حيوية رمضان تدب في أعضائه.. في صوته:

- المسألة في هذه الحالة هينة!

قالها كمن يعد بالكثير .. الضابط يشير إلى موقع في ورقة أمامه. يقول:

- اسمك وتوقيعك وعنوانك!

رمضان يبتسم مشيرا بيديه. الضابط يأمر جنديه:

- فك قيده!

***

انشغال رمضان بالكتابة.. نبهه الضابط:

- مهلة ثلاثة أيام لاحضار المبلغ!

رمضان يهم بالإجابة عندما تدخل الجندي:

-سيدي!

ضابطه يسمعه. يواصل مشيرا إلى رمضان:

- .. إذا عجز عن دفع المبلغ نقدا.. بإمكانه دفعة بشكل عيني.

رمضان لا يكاد يفهم. الجندي يختم موضحا:

- تلفزيونات .. فيديوات..

موافقة الضابط مشفوعة بإيماءة من رأسه:

- الأمر متروك له.

***

أوان مغادرة رمضان. تساءل بأدب:

- مفاتيح السيارة!

يبدي الضابط جهله متسائلا:

- سيارة؟!

رمضان يستجيب:

- سيارتي.

يضيف موضحا:

- .. عندما قبضتم علي كنت أركب سيارتي..

الضابط يصرح نظرة تدل جهله بالأمر. رمضان يضيف مؤكدا:

- .. موجودة في الساحة الخلفية للمخفر!

يتطوع الجندي من عنده يدلي ينفي بشكل قطعي:

- لا توجد اية سيارة في حوزة المخفر.

يحدق إليه الضابط نظرة طاردة تتضمن كفاية معنى.

- ربما كنت نسيت!

رددها رمضان كمن يعاتب نفسه. استدار. مشى. لم يلتفت.

(27)

كانت حنان بادرت استبدلت ثوبها الأسود بآخر زاهي الألوان. عودة رمضان.. عودة حيوية كل من في المنزل. جعفر وموسى يبدآن بالتخطيط لوسائل لهوهما. سليمان يعرف يجد لنفسه مكانا بينهما. الأم أعدت وجبة طعام على عجل، أقبل عليها رمضان بشراهة، وعندما فرغ اقترحت عليه حنان:

- خذ لنفسك قسطا من الراحة!

ابتسم لها في عينيها. عقّب مبديا دهشة:

- بعد أيام النوم في غرفة التوقيف!

تطلع فيه الحاج محمد برهة. تساءل قلقا:

- ما الذي ستفعله بخصوص الألف دينار كويتي غرامة؟!

أجابه رمضان بما لا يخفي حقده على معنيين.

- بعدما سلبوني سيارتي.

عيناه تتظللان بسحابة حزن ثقيل. يستطرد:

- .. وسلبوا شاه بردي حياته..

يبقى جملته مفتوحة على النية. مما حدا بالحاج محمد يعود يتساءل:

- ماذا لو عرفوا ووصلوا إليك؟!

تند عن رمضان ضحكة قصيرة مخنوقة. يجيب بصيغة اشتراط:

- لو عرفوا بقوا!!

ثقته تتشرب صوته. التفت إلى سلطان. واصل صيغة طلب:

- أريد أن أُكلف مهاما أعرف أقوم بها!

سلطان يتفاجأ بطلب رمضان. دار في باله:

"الأمور لا تؤخذ هكذا!!".

ألح عليه خاطر ألا يحبط الآخر طموحه. طبع على فمه ابتسامة مشاركة. قال كمن يعتذر بلباقة:

- عليك أن تستعيد عافيتك أولا!

***

وسائل إعلام نظام بغداد تحشد طاقاتها..

"مرسوم صادر عن مجلس قيادة الثورة.. بسم الله الرحمن الرحيم.. وقل اعملوا .. استنادا إلى المرسوم القاضي بإلحاق المحافظة التاسعة عشرة، وبناء على الحقوق التاريخية الثابتة والمعترف بها.. وبما أنه لا وجود لكيان مفتعل اسمه دويلة الكويت.. رسمنا بما هو آت:

أولا: إغلاق السفارات والقنصليات والممثليات والهيئات الدبلوماسية التي كانت عاملة لأسباب معروفة في المحافظة المذكورة.. لدول العالم كافة، ومنحها مهلة زمنية محددة تنتهي في الخامس العشرين من أغسطس.. آب الجاري، لغرض تصفية أعمالها ومتعلقاتها.. ولا تستثني مكاتب وهيئات ما يدعى بالأمم المتحدة.. وما يتفرع عنها.

ثانيا: تعتبر مدينة بغداد - العاصمة المعتمدة للجمهورية العراقية-المركز الرسمي الوحيد لتواجد هذه الممثليات، وبعكسه يحق للحكومة العراقية اتخاذ الاجراءات المناسبة.

ثالثا: صدر في بغداد، وافهم علنا".

***

دول العالم من أقصاه إلى أقصاه تصاب بحالة ذهول يمازجها شعور حاد بإهانة مقصودة.

"لماذا إصرار دفع الأمور إلى حافة الهاوية؟!".

النظام العراقي يلطم وجوه كل أولئك الذين يطمحون يجدون حلا يجنب العراق قبل غيره، والمنطقة بأسرها، حربا.. ليس بإمكان أي .. يدرك حجم وطبيعة الدمار المترتب على نشوبها.

القرار المنوه عنه مرفوض عالميا، ومستنكر واقعيا وأخلاقيا، وعلى نظام بغداد بجميع وسائله يخلي السفارات والهيئات بالقوة.

تشتد حالة الذعر والفوضى لدى المقيمين، الآسيويين قبل غيرهم. يزداد تدفق الجموع على سفاراتهم، يتضاعف تزاحمهم حول مبانيها.

نظرا لطبيعة الظرف.. وضخامة الأعداد البشرية - تجاوزت مئات الآلاف- وجود تلك السفارات - على قلة امكانياتها وانقطاع سبل اتصالها بحكومات بلدانها -

- مشاكل هائله، تتصل بتوفير الغذاء والدواء والسكن والأمان.. وليس في الأفق القريب بوادر حل أو انفراج.

***

موعد لقاء سلطان بإخوته تحدد بعد ساعة، المكان.. بيت الحريبي. إخوته كانوا اعتمدوا عمليا مبدأ تقسيم الوحدات وتغيير الأماكن.

وهو يزمع يغادر إلى موعده ذاك في منطقة الروضة واجهته مشكلة لم تخطر له قبلها.

كان - بمساعدة شيرين وهدى - أعد آلة التصوير للعمل. أبو الفدا، وأوراق كان جاء بها..

- "وجبة أولى من ملخص محاضرات عن العمل الميداني للمقاومة المسلحة" حاجة العمل لمجموعة نسخ. كمية الورق - بعد النسخ - وصعوبة إخفائها بقصد نقلها. الطريق، نقاط السيطرة واحتمالات تفتيش دقيق. ما تعرض له رمضان مازال آنيا ماثلا.

- قبل أن أعمل مقاول بناء..

مهد رمضان لما يهدف يقول. استطرد:

- .. عملت ميكانيكي سيارات.

كان عرف حيرة سلطان نقله أوراقه.

- .. الأمر المطلوب في الظرف الراهن أن توجد مخبئا سريا داخل سيارتك، يكون معروفا لك وحدك وبمتناول يدك عند الضرورة.

خيال سلطان يؤخذ بالفكرة.

- "أرجوك!".

رددها دالة. ابتسم رمضان. أجاب:

- الأمر يتطلب عمل ساعات.

خيبة أمل تكاد تبدو على وجه سلطان. لحظة واصل رمضان:

- سأعد لك مخبأ مؤقتا داخل باب السيارة.

يوسع ابتسامته بعطاء واثق.

- .. بعد عودتك من موعدك.. أتفرغ لسيارتك.. استحدث لك مخبأك السري الفعلي.

***

سلطان، سيارته، طريقه إلى الروضة، اجتياز نقاط سيطرة. كانت الشمس غربت لتوها. الليل بدايات أولى، هذا اللون الرمادي يهيمن على كل شيء. الخارج والداخل، بامتداد يطال الزمن ذاته.. اللون والنكهة الرمادية..

"لماذا ارتباط الاحاسيس بما هو محيط؟!".

أيام ما قبل الاحتلال كانت هناك اهتمامات أخرى بأحاسيس أخرى، بدت غريبة وبعيدة، وكأنها مرتبطة بزمن فلكي آخر.

حين أوقف سلطان سيارته غير بعيد عن بيت الحريبي، رأى الأخير بانتظاره عند الباب.

- "حياك!".

صوته يتشرب ترحيبا ودودا، أتم مخبرا:

- الاخوان في الداخل.

في الداخل وجد سلطان ثلاثة من أخوته بانتظاره.. "عبدالمحسن، مصطفى، هلال".

جهد التآلف مع المكان. إخوتك.. ولقاء اتخذ صيغة عمل ذي طبيعة تؤكد استثنائيتها قدر تجاوزها لها.

- حتى الآن..

بادره أخوه عبدالمحسن قائلا، أكمل:

- .. تجمعت لدينا ستة أسماء من فلسطينيين متعاونين مع الاحتلال.. جاءتنا من خلال اتصالنا بالوحدات الأخرى.

يده تمتد لسلطان بقصاصة ورق.

- .. عناوينهم مثبتة إزاء اسمائهم.

- الإشاعات التي عمت البلد..

عقّب هلال بارتياح، استطرد:

- .. لدرجة أعتقدنا أن عدد المتعاونين سيكون بالعشرات.

تدخل مصطفى منوها:

- الأمور لم تتضح كلها بعد.

رغب سلطان يتحول بالحديث. قال:

- الأوراق المطلوبة مني..

يده تمتد بمظروفه لهلال.

- .. دفعة أولى محاضرات عن العمل الميداني للمقاومة المسلحة.

هلال يتسلم.. يزن المظروف في كفه. تند عنه ضحكة قصيرة.

- "كان الله بالعون!".

***

لقاء الاخوة. ظرف عائلي بطبيعة غير عائلية. لا احتمال لما هو شخصي.

- فيما يخص الأسلحة وضرورات الحذر..

مهّد مصطفى، موجها حديثه لسلطان:

- .. كنا اتفقنا نخفي أسلحتنا في أماكن يصعب اكتشافها احتياطا لمداهمات تفتيش من جانب العدو غير متوقعة، على أن تصار حيازتها عند وجود خطة عملية معد للتنفيذ..

سلطان يصغي. مصطفى يواصل:

- .. الحاجة الماسة ضمن الحالة العامة اضطرتنا إلى تجاوز اتفاقنا هذا.

ينبري عبدالمحسن يبدي وجهة نظره.

- في السيارة بالذات.. أنت معرض تواجه موقفا خطيرا لا ينجيك منه سوى سلاحا

هلال يتدخل:

تفشي ظاهرة سلب الكويتيين من جانب جنود الاحتلال.

مصطفى يضيف:

- الكثير من حالات السلب كان مصحوبا بعمليات قتل.

تذكر سلطان ما سبق وقاله محمد صالح:

- "حولوا الجيش العراقي إلى عصابات لصوص وقطاع طرق!".

عبدالمحسن يؤمن على كلام أخويه:

- ان لم يكن من الموت بد..

يحدق إلى سلطان في عينيه. يتم:

- .. ليكن في حالة دفاع عن النفس!

- لهذا السبب.

مصطفى يوضح:

- .. بدأنا نستحدث مخابئ سرية في سياراتنا .. تكفي لإخفاء مسدس على الأقل، وتكون في متناول يد السائق عند الضرورة.

"توارد الأفعال!".

- لدي من وعدني..

قال سلطان، أضاف:

- .. يستحدث لي .. الليلة.. مخبأ سريا في سيارتي..

كان الحريبي التزم جانب الاصغاء ريثما قال عبدالمحسن.

- البادرة من الحريبي..

يده تشير إلى الأخير يدعوه يتحدث.

- رتبنا موعد لقاء مع رجال من الشيوخ..

سلطان كمن تفاجأ بالخبر. الحريبي يستطرد.:

- .. موعد اللقاء الساعة العاشرة والنصف..

تحين منه نظرة إلى ساعة معصمه. يبتسم، مستطردا:

- .. بعد ساعتين من الآن.. هنا.. عبدالمحسن وهلال سيحضران الاجتماع.. يختم بهامش من خجل:

- .. وأنا.

سلطان ومفاجأته.. الذي يعرفه أن العائلة الحاكمة كانت مستهدفة منذ اليوم الأول للاحتلال، وأن خلاص أفرادها يعني مسارعتهم بمغادرة الكويت.. أن يكون البعض منهم هنا.. وأن يجري ترتيب اجتماعات..

- يبدو عليك استغربت؟!

سأله أخوه عبدالمحسن. أجاب:

- إلى حد ما..

الآخرون ينتظرون عليه توضيحه. قال:

- .. وجود بعض الشيوخ يمثل مخاطرة جسيمة على حياتهم..

تذكر يضيف:

- .. ويشد من عزيمة الكويتيين الصامدين..

***

الشويخ الذين سيجرى الاجتماع بهم.. عذبي وخالد، من أبناء الشهيد الشيخ فهد الأحمد، وكذلك فهد ابن الشيخ سالم العلي..

- سنسألهم مدى إمكانية تزويدنا بما نحتاجه من سلاح..

قال هلال، أثنى عليه الحريبي:

- أو مال.

أبدى سلطان ملاحظته:

- لكن صعوبة الظرف!!

طمأنه الحريبي:

- لديهم مصادرهم.

فكرة سلطان تحتدم في ذهنه.

- مع الأخذ بعين الاعتبار..

قال واستطرد:

- .. إلا أننا لا نستطيع المراهنة على مصدر بعينه إلى ما لا نهاية.

اهتمام الباقين ينشدّ إليه.

- .. الاحتلال.. مدة بقائه.. الاجراءات التي يقدم عليها.. نوعها.. شدتها.. احتمالها نشوب الحرب..

ينقل نظراته على وجوههم.

- .. مسؤوليتنا - كما أراها - لا تقتصر علينا كأفراد.. أو عوائل ما دمنا بدأنا شكلنا وحدات أو مجموعات..

هلال يعقب مؤيدا:

- قابلة للزيادة.

يؤمن سلطان على كلام أخيه بإيماءة من رأسه.

- فيما يخص الجانب المالي.. الغذائي بالذات..

يتوخى اختيار كلماته:

- .. علينا نضع نصب أعيننا احتمال دوام الاحتلال لأسابيع قادمة أو أشهر.. تعلو فمه ابتسامة باهتة.

- .. لا بأس أن نتشاءم.. ونتخيل أياما سوداء قادمة.. لا يجد، وقتها، البعض من الكويتيين ما يأكله.

يغمغم مصطفى:

- وغير الكويتيين.

يعود سلطان يواصل:

- الاحتلال العراقي بدأ منذ يومه الأول .. وما زال عمليات نهب واسعة تهدف إلى إفراغ الكويت.. مخزونها الغذائي قبل غيره..

عبدالمحسن لا يتردد يقاطع متسائلا:

- إذن؟!

***

- هذا الموضوع يتسم بأهمية خاصة.

قال مصطفى لافتا اهتمام الآخرين إليه.

- .. اقترح.. نشرك واحدا من ذوي الاختصاص.

يشجعه عبدالمحسن:

- "البركة فيك".

مصطفى يستطرد:

- صديق أثق به وبمعارفه. استاذ اقتصاد في جامعة الكويت.

يصدر عن هلال سؤال:

- كويتي؟

يومئ مصطفى برأسه موافقا. يتم:

- بيته في منطقة الجابرية .. اتصل به.. وارتب معه موعد لقاء.

لا يغيب عن بال عبدالمحسن يوصي مصطفى.

- السرعة!

***

- ما دمتم بصدد لقاء الشويخ الليلة..

سلطان يخاطب كلا من عبدالمحسن وهلال.

- .. موضوع يتسم بخطورة قصوى..

يتأكد من جذب اهتمام الاثنين إليه. يكمل:

- .. الجاليات الآسيوية وسفاراتها..

مسؤولية الكويتيين بغياب حكومتهم. جموع الوافدين وحال البلد. الجزع. الفزع. انقطاع السبل. الغذاء.. الدواء.. المأوى.. عشرات الآلاف.. مئاتها ..احتمالات.. حبل الأمن. مجاعة، تفشي أوبئة.. المعضلة بحجم هائل يتسع يوما اثر يوم..

النظام العراقي. أرخص ما عليه هو الحياة البشرية.. ضرورة المبادرة هنا.. وأهمية لفت أنظار المجتمع الدولي هناك..

سلطان يختم:

- محاولة معرفة ما الذي يمكن عمله بهذا الخصوص!

***

لحظة الانفضاض دخل أخوهم أسعد.

- أمر طارئ!

تعجله باد عليه. عيناه تزدحمان بنظرة توقع لاهف.

- ..عسكري عراقي.. غير بعيد عن هنا.. عند تقاطع شارع المغرب بالدائري الرابع.. تحت الجسر..

كلماته تتدافق من فمه.

- .. يتسلح برشاش كلاشنكوف .. يستوقف سيارات الكويتيين.. يسلبهم ما معهم

من نقود .. ساعات.. حلي..

يشير له هلال بيده.

- اهدأ!

قبل أن يوجه سؤاله:

- هل ذلك العسكري وحده؟.. أم ..

يقاطعه أسعد مؤكدا:

- وحده.

يعقد هلال حاجبيه قائلا بصيغة تساؤل:

نقطة السيطرة الكائنة فوق الجسر؟!

- فوق الجسر..

إجابة أسعدب تحصيل حاصل، استطرد:

- .. لكنها معزولة عن موقع العسكري الكائن تحت الجسر تماما..

عيناه تلتمعان لدى إضافته:

- .. فإذا اعتمدنا عنصر المباغتة..

- يقطع عليه تدفقه متسائلا:

- أقرب موقع عسكري عراقي ينكشف على المكان؟!

- أسعد يعمل ذهنه.

- عند المدخل الجانبي المؤدي إلى منطقة النقرة.. قبالة جمعية الاصلاح الاجتماعي الجهة الأخرى لشارع المغرب.

هلال بدوره يحصر ذهنه.

- زهاء مائة متر!

يثني عليه أسعد:

- وزيادة.

صمت هلال مفكرا لثوان.

- التنفيذ سيكون كالآتي..

96 ـــ ٢٠٠٣

(28)

فكرة هلال: يغادر أسعد من فوره، يعرج على المجيمي، يوليه قيادة السيارة، من أجل أن يتفرغ بدوره لإطلاق النار في اللحظة المناسبة.

مطلوب من أسعد والمجيمي أن يعودا بالسيارة يسلكان طريق الدائري الرابع غربا، لحين وصولهما جسر شارع دمشق. يستديران يسارا تحت الجسر جهة السرة، يعودان يسلطان الجانب الآخر من طريق الدائري الرابع باتجاه النقرة، لحين وصولهما جسر شارع المغرب.. حيث موقع العسكري المعني.

الشق الآخر لفكرة هلال:

- من جانبي سأصحب الحريبي معي.. سنسلك طريق الروضة إلى شارع عبدالسلام عارف، ومنه إلى شارع المغرب باتجاه موقع العسكري إياه.. مهمتنا تقتصر على الاسناد والتغطية..

يتذكر يضيف:

- .. إذا لزم الأمر.

يفكر برهة.

- الطريق التي يسلكها أي منا في الانسحاب مرهونة بالاتجاه الأكثر سلامة، على أن نلتقي بعدها في بيتي.

يلقي نظرة خاطفة على ساعة معصمه. يتطلع في وجه عبدالمحسن.

- لدينا متسع من الوقت للقاء الشيوخ.

يعود بعينيه إلى وجه أسعد.

- الساعة الثامنة والنصف.. التنفيذ لن يكون قبل عشرين دقيقة من الآن!

يوافقه أسعد بحركة من رأسه. هلال يتذكر:

- مسدسك محشو!

يطمئنه أسعد:

- محشو.

حيوية أخاذة تدب في صوت هلال لدى قوله:

- نتحرك إذن!

لحظتها تدخل سلطان:

- لدي اقتراح!

فكرة أخذت عليه ذهنه دفعت بالدماء ساخنة إلى وجهه، الآخرون ينصتون، يواصل:

- أنا أرافق أسعد!

صيغة طلب تتضمن رجاء. وضح:

- أتولى قيادة السيارة!

مشاركة عملية اطلاق نار. عنصر المغامرة. المخاطرة. فوجئ باحساس من رهبة يأخذ عليه حواسه.

"الفكرة مازالت مجردة!!.. كيف إذا..".

تنبه إلى أخيه هلال يتطلع فيه كمن يقول له:

- "لست مطالبا تثبت شيئا!".

سمع أخاه عبدالمحسن يحذر:

- خبرة إطلاق النار!

جهد سلطان يبتسم.

- سأتولى دورا مساعدا!

سمع أخاه مصطفى يتساءل:

- الضرورة؟!.

سمع نفسه يجيب:

- إن عاجلا أو آجلا.

جاء رد فعل هلال مقررا:

- ما دمت تصر..

التمعت عينا أسعد ببريق أثارة.

- نبدأ!

تدخل هلال مادا يده إلى سلطان بمسدسه.

- ربما تحتاجه!

مسدس برونيك اتوماتيكي يغطي مساحة الكف ويزيد.. شعر سلطان بثقل وزن المسدس، واستشعر جسامة الخطر القادم..

***

وهما يجتازان بوابة سور بيت الحريبي قال سلطان لأسعد:

- نستخدم سيارتي.

ابتسم الآخر بتسليم..

- "لا بأس".

الليل، ومساحات من الاظلام والاضاءة حسبما توفره إنارة الشارع. دار في بال سلطان:

"سبق لأسعد شارك في تنفيذ عمليات المقاومة.. لديه من الخبرة .. وبالتالي لا مبرر للخوف..".

احساسه الرهبة حكمه أكثر. في وقت أخذ فيه وجيب قلبه.. مرة أولى في حياته.. طرأ على ذهنه سؤال:

"هل ستكون الأخيرة؟!!.

عاد يوازن الأمور.

"نجاح المهمة أولا!".

تذكر ينبه نفسه.

"واقع الحال.. ضرورة حضور الذهن.. التعامل مع الظرف بصفته مهمة شأنها شأن غيرها..".

يصلان سيارة سلطان. الأخير يفتح بابه. أسعد بدوره يفعل. يركبان.

"حكم الانجاز!".

دس مسدسه في حجره، أحس برودة المعدن تتشرب جسده خلل ثوبه. وصله صوت أخيه يسأله:

- نتحرك!

***

شارع الروضة.. اتصاله بالطريق الدائري الرابع.

- مفروض بنا نسلك هذا الاتجاه!

قال سلطان مشيرا بيده يمينا. أسعد يتطلع فيه، لم يفهم عليه قصده. سلطان يستطرد:

- نذهب من هنا!

قرن قوله بفعله. انعطف بسيارته يسارا.

- لدينا متسع من الوقت.

أضاف قائلا لدى تجاوزه فتحة الرصيف، أسعد وقد شُده بتصرف أخيه لا يحير جوابا.

- دقيقتان أو ثلاث!

سلطان يهدف يوضح، كان سلك بسيارته مساحة الأرض الفضاء الكائنة ما بين البيوت ورصيف طريق الدائري الرابع ميمما شرقا باتجاه شارع المغرب عند الجسر.

- نلقي نظرة على موقع ذلك العسكري.

قالها سلطان مبررا. غمغم أسعد معترضا:

- خروج عن الخطة المتفق عليها مع هلال!

طمأنه سلطان:

- نلقي نظرة .. ونعود نلتزم بالخطة.

الأضواء الأمامية تتراقص جراء عدم استواء الأرض الترابية. أسعد لا ينوي يواصل اعتراضه:

- سينتبه العسكري لسيارتنا.. مما يؤدي..

يقاطعه سلطان جازما:

- لن يتنبه!

يده تمتد إلى مفتاح أنوار السيارة. الأضواء الأمامية حالة اختفاء، في حين بدأ يخفف من اندفاع السيارة.. الجدار الكونكريتي العملاق للجسر يتسامق صاعد عن يمينه.. بضعة أمتار، ومن ثم مرتفع الأرض.. يطل .. يشرف على الموقع.

***

شارع المغرب. التقاطع. الإنارة الأقرب إلى المبهرة . شاهد رتلا من السيارات تصطف وراء بعضها. في المقدمة سيارة بيضاء. العسكري العراقي يقف يمين السيارة، عند نافذة الباب الأمامي. يطل داخل السيارة، لعله يتفحص شيئا ما. ظهره ناحية الرصيف. بندقيته الرشاش مدلاة إلى كتفه.

جال سلطان بعينيه. جمع السيارات وهذا العسكري وحده. رفع عينيه إلى الجسر، نقطة السيطرة هناك ما وراء منحنى ظهر الجسر.

"ما الذي يمنع؟!".

قرار سلطان يولد قطعيا.

"مسألة ثوان لا غير!".

اندفع بسيارته إلى أمام.

- ماذا تفعل؟!

سؤال مأخوذ صدر عن أسعد. أجابه سلطان بسؤال قطعي:

- مسدسك جاهز؟!

كان أسعد أخذ بالمباغتة..

- جاهز.

السيارة باندفاعتها.. مهبط الرصيف بالكاد. غمغم أسعد محذرا بما يشبه الجزع:

- الرصيف مرتفع!!

أجابه سلطان:

- سيارتي مرتفعة أيضا!

تفكيره كان محصورا بالحركة التي سيؤديها بسيارته. ارتجت السيارة وهي تهبد بعجلتيها الأماميتين. سمع أسعد يعود يحذره:

- سينتبه لنا العسكري!!

أجابة سلطان بحزم:

- وقته لن يسعفه.

العجلتان الخلفيتان للسيارة تهبطان الرصيف بدورهما. مال بمقود السيارة يسارا. مما جعلها بوضع معاكس لاتجاه باقي السيارات. مقدمتها اليمنى - ناحية مقعد أسعد - تكاد تلامس جسد العسكري.

- سلطان!!

همس أسعد مأخوذا. العسكري ينتبه يلتف.

- ماذا؟!

رددها العسكري بقلق لا يخلو من انزعاج. أموره تختلط عليه، لعله تساءل مع نفسه:

"من هذا الذي تجرأ هكذا؟!".

ولعل فكرة أن يكون أحد مسؤوليه..

- نعم؟!

تساءل بفضول وهو يخطو يحاذي باب السيارة حيث أسعد. كف الأخير تطبق على مسدسه عند مسند الباب.

- الآن!

هتف سلطان بأسعد. الكف القابضة على المسدس ترتفع. فوهة المسدس عند أنف العسكري.

- لا!!

ندت عنه عاتية مذهولة تتضمن فزعا لا حد له. كان حاول يتراجع، لكن الرصاصة الأولى كانت فعلت..

دوي الاطلاقة. خيل لسلطان أن مساحة وجه العسكري ما بين عينيه تهشمت. كف رأسه تطوح إلى الوراء، لحظة عاجله أسعد برصاصة ثانية في صدره.

- يكفي!

وجد سلطان نفسه يأمر أسعد. سائق السيارة البيضاء يندفع بسيارته أمامه. صوت احتكاك عجلات السيارة باسفلت الشارع. جسد العسكري يتداعى أرضا. السيارة

الأخرى تبدأ تتفارر.

حانت من سلطان نظرة إلى وجه أخيه أسعد. رآه شاحبا، دماؤه كانت غاضت منه.

- البندقية!

هتف بأسعد، انشداه الآخر، واضطرار سلطان يستعيده حضروه.

- خذ بندقيته!

يفتح أسعد باب السيارة. جسد العسكري مازال ينتفض. سمع سلطان ما يشبه الشخير الحاد. مد أسعد يده بامتداد ذراعه، انتزع البندقية عن كتف العسكري بقوة.

"إذن!!".

كان سلطان تحرك بسيارته. مال بعجلة قيادته يسرا. الرصيف بمواجهته. حرص يرتقي بعجلة أمامية واحدة أولا، ومن ثم الثانية.. ثم ألحقهما بالعجلتين الخلفيتين. ذهنه حالة تبلد بارد. أحس كما لو أنه يمارس نفسه بفعل ميكانيكي محض. السيارة تستوي على مساحة الأرض الترابية، تنطلق من حيث جاءت.

منفذ جانبي ما بين البيوت. حاد بالسيارة يمينا. التقطت أذناه صدى طلقات عن بعد.

"إذن!!".

كان تغلغل بين المنازل.

***

فاجأته الرعدة في ركبتيه. أحس بقدمه تكاد لا تستقر عند ضغط دواسة التحكم بسرعة السيارة.

"كيف!".

تساءل مع نفسه مستغربا حالته. في وقت انتشرت فيه رعدته لتشمل كتفيه، ذراعيه، تتركز أكثر فأكثر في فكيه. ظن أنه سمع اصطكاك أسنانه. زم فمه بقوة.

"ردة فعل بمثل هذا العنف!!".

أبدى دهشته له صامتا. عرق بارد يتفصد جبهته. صدره. تحت ابطه.

"يجب أتحكم!".

لكن احساسه انسيابية أعضائه.. فكر يسأل أخاه أسعد يتولى قيادة السيارة بدلا منه.

التفت إليه. واجهه أخوه نظرة عتب حاقد.

- القتل بهذه الصورة!!

غمغمها أخوه من بين أسنانه. تابع:

- .. وجها لوجه!!

لم يجد سلطان ما يعقب به. عاد أسعد يقول كمن يكاشف نفسه:

- .. لا أظنني أعرف أنام الليلة!!

"إذن!!".

رددها سلطان داخله بخواء ولم يضف. صرف ذهنه أن يسأل أخاه مساعدته.

***

السيارة. مواصلتها سيرها. شعور سلطان أن ذهنه أشبه بحالة جيلاتينية.

- "القتل بهذه الصورة!!".

كلمات سعد عادت ترددت في ذهنه . كان الآخر يلوذ صمته محدقا بين قدميه.

"أو أية صورة أخرى!!".

تساؤل حاد أخذ يطفو على سطح ذهن سلطان، لحقه آخر:

"من أين يجيء الاختيار؟!".

ليجد حاله يقر مع حاله:

"أنت تقتل لكي تبقى حيا".

اتفاق سبق قبل مغادرة بيت الحريبي.. لقاء ما بعد التنفيذ يكون في بيت هلال تنبه سلطان إلى أنه يوقف السيارة بمواجهة بوابة سور بيت هلال. ما كان أحد سيطرته الكاملة على أعضائه بعد.

***

بيت هلال غارق في الظلام. سبقه أسعد بالدخول حاملا البندقية الكلاشنكوف متـ

ردد مخبرا:

- هلال يصل بعد قليل.

اكتفى سلطان يسمع. امتدت يد أسعد إلى مفتاح النور. كانا دلفا إلى البهو.

- سأعد قهوة.

قال أسعد. كان سلطان تدارك نفسه جلس. عندما سأله أخوه.

- تشرب!

حبس زفرة كادت تفلت عنه.

- اشرب.

وضع أسعد الكلاشنكوف غير بعيد عنه غادر إلى المطبخ. توفرت لسلطان فرصة رؤية السلاح عن قرب. رآه يختلف عما اعتاد يراه لدى جنود نقاط السيطرة. كان بعاضة حديدية مغلقة ومن دون مقبض خشبي. شيء ما أقرب إلى الرشاقة، مع التأكيد على قدرة الفتك. مد كفه. لامس جسد السلاح نعومة المعدن وصلابته.

"واقع الانجاز!".

لحظتها أحس قدرته يستعيد توازنه.

(29)

حين دخل أسعد حاملا قهوته شعت عيناه ابتسامة رضا. كان استعاد، بدوره، توازنه. جلس إلى جانب سلطان. قال:

- آسف!

رددها بدفء الأخوة. أضاف:

- كنت منفعلا !

ابتسامته تتأكد فمه.

- المباغته.. السرعة.. المواجهة..

سلطان يواصل اصغاءه، محتسيا قهوته.

***

بعد قليل دخل هلال.

- يبدو أن وحدة مقاومة أخرى سبقتنا إلى العسكري العراقي..

قال بما يشبه الاحباط. كان وصل إلى الموقع حسب الوقت المتفق عليه. الأمور – كما وجدها- محسومة. جثة العسكري باقية وسط الشارع.. لا أحد جرؤ يقترب. وما خطر في باله أن أخويه هما .. ريثما وقعت عيناه على قطعة السلاح..

- ما هذا؟!

هتف مندهشا. اقترب. انحنى على السلاح. رفعه يتفحصه.

- كلاشنكوف كسر.

سلطان يسمع التسمية الصفة للمرة الأولى. هلال يكمل مشيرا بالسلاح:

- نوع متميز من الكلاشنكوف.. خاص برجال الاستخبارات العراقية.. سلطان يجهل مثل هذه المعلومات. هلال يستنتج:

- معنى هذا أن العسكري المقتول لم يكن جنديا فردا!

التفت بعدها إلى أسعد متسائلا مبديا استغرابه كله:

- كيف نفذتما عمليتكما؟!

***

اندفع أسعد يروي بحماس مبديا إعجابه بأخيه سلطان. قال عن التعديل الذي طرأ على الخطة، ليبدو كما لو أنه جاء عفوا، تحدث بتفصيل عن جرأة سلطان ورباطة جأشه وأعصابه الحديدية.

سلطان لدى سماعه احتفظ بابتسامته الباهتة داخله. كان تذكر الرعدة العنيفة. عرقه البارد.. عجزه التحكم بحركة أعضائه..

- ليس خروجا عن الخطة التي اتفقنا عليها..

قال هلال بعتب ودود مشوب بالاعجاب، استطرد:

- لكنه نسف لها!

رغب سلطان يبدي اعتذارا. في حين واصل هلال واجدا مبررا:

- .. إنما ما دامت مرة أولى تشاركنا عملياتنا..

ليكمل جملته. كان عاد يتفحص قطة السلاح في يده.

- أنت تستحقها بجدارة.

قال لسلطان باعتزاز، أكد من خلال مناولته:

- .. يجب تكون لك!

لا يمد سلطان يده كي يتناول. يقول:

- هي لك.

حاجبا هلال يرتفعان دهشة، في حين واصل سلطان:

- فيما يخصني سأحتفظ بالمسدس الذي كنت زودتني به.

ندت عن هلال ضحكة قصيرة جذلى. عيناه تزدحمان بفرحه. سبق لأخيه سلطان رفض عرضه له بأن يتزود سلاحا.

- لا اعتراض.

***

هدأة الليل، وصدى اطلاقات مدفع رشاش يسمع من بعيد. الساعة جاوزت التاسعة

لدى مغادرته منزل أخيه هلال.

- لقاؤنا غدا صباحا.. عندك.

خبره أخوه هلال قبل افتراقهما، أكمل:

- .. اطلاعك على نتائج اجتماعنا بالشيوخ.

علاقة سلطان باخوته .. ما كان وما جدّ.. وطموح انتظام الأمور عبر اتساق مؤهل يتأكد ليقوى يوما بعد يوم.

يبقى احتمال تواتر الأحداث أكثر فأكثر مما يولد مهاما أو مسؤوليات أخرى غير متوقعة، بالتالي..

حاول يصرف ذهنه آنيا عما هو قادم. تذكر مسدسه. كان بادر أخفاه داخل باب السيارة.

الوضع بما هو عليه.. سلاحك رفقتك يمنحك شيئا من الأمان، وآخر من قوة.. الاحتمالات وفكرة امكانيتك دفاعك عن نفسك.

لكن المسدس.. استقراره داخل باب السيارة.. يلغي قابلية الاستخدام في الموقف الطارئ. احتياجك تنزع بطانة الباب، ومن ثم .. يطمئنه: رمضان وعده أن يستحدث مخبأ في المتناول تحت السيطرة.

***

اجتاز نقطة سيطرة أولى.. جسر الدائري الرابع لدى تقاطعه مع شارع المغرب.

"لعلهم رفعوا جثة العسكري من تحت..".

اجتاز ثانية.. جسر الدائري ذاته لدى تقاطعه مع شارع تونس.

"فكرتهم .. ان يحكموا البلد بنقاط سيطرة!!".

لن تصادفه ثالثة قبل وصوله جسر بيان - الدائري الخامس. مد يده إلى مفتاح المذياع. لم يعن - منذ ساعات- يسمع أخبار. نقل مؤشر المذياع بين عدة محطات.

"الرئيس المصري حسني مبارك - في مؤتمر صحفي تم تنظيمه اليوم - يدعو إلى انعقاد مؤتمر قمة عربي طارئ يعقد في العاصمة المصرية بأسرع وقت ممكن.

عندما طالب عبد الكريم قاسم بالكويت قضاء تابعا لمدينة البصرة كانت مفازعة

الرئيس المصري جمال عبد الناصر.

منحى احتفاء تخالطه نكهة انضواء. الانتماء لم ينتزع عن آخره. المذيع يواصل يدلي خبره:

- ".. الرئيس المصري ينذر بمستقبل أسود مظلم ينتظر الأمة العربية ليحيق بها ان لم يجر تدارك الأحداث الرهيبة المتسارعة المترتبة على اجتياح جيوش نظام بغداد لدولة الكويت".

امتداد شارع الاستقلال. مستشفى هادي إلى يمينه. الطريق يقفر إلا من سيارته. شعور بالوحشة. لو أن الكويت عادت.. فهل ستعود الحركة إلى ما كانت عليه؟".. تركيبتها السكانية، وقتها، كيف؟!.. الحالة.. تواتر الأحداث.. إعادة النظر بماذا؟!

المذيع - في تقريره الاخباري - يتحدث عن ردود أفعال العواصم العربية إزاء دعوة الرئيس المصري .. استجابة متحمسة لدى عدد من العواصم.. الخليجية قبل غيرها. وأخرى فاترة أو مترددة.. عواصم متفرقة..

ناطق رسمي بلسان إحدى الحكومات العربية يؤكد ضرورة انعقاد مؤتمر القمة العربي بالسرعة اللازمة بهدف مناقشة الوضع الخطير الناجم عن التواجد الأجنبي في المنطقة والذي يتهدد حاضر الأمة العربية ومستقبلها بالخطر الجسيم.

"ليس قصور فهم..".

مسؤول عربي يتساءل من موقعه عن جدوى إشراك الأجنبي الطامع في إيجاد حل لخلاف عربي عربي بالأساس.

"ليس قصور وعي..".

كان اقترب من نقطة السيطرة الكائنة.. جسر بيان .. تذكر المذياع. مد يده، تحول بالمؤشر إلى أقرب محطة ناطقة بلسان بغداد.

***

جنديان من السيطرة يسدان الطريق برشاشيهما. شاهد سلطان يد أحدهما تشير إليه، تأمره:

"توقف بسيارتك جانبا!".

توجس جانب خطر. امتثل.

"احتمال. ماذا؟!".

الجندي يقترب منه. فوهة البندقية الرشاش بالاتجاه. ردد آمرا:

- انزل!

توجس سلطان خطرهم كله.

"احتمال.. كيف؟!"

عندما فتح باب سيارته كي يترجل تذكر المسدس حيث هو.. تساءل مع نفسه كمن يؤنب:

"لماذا المصادفة؟!".

سمع أحدهم يأمره:

- ارفع يديك!

حضور شعور حالة الحرب. رفع يديه. أحدهم يقترب منه. يخضعه لتفتيش ذاتي دقيق.

"لعل الأمور تنتهي عند هذا الحد!".

اثنان من الجنود يبدآن تفتيشا دقيقا داخل سيارته.

"ماذا لو .. اكتشفوا مخبأ المسدس؟!".

تتبدى له من داخله ابتسامة سخرية مريرة.

"مرة أولى .. ويكون هذا!!".

كان الجندي أنهى تفتيشه الذاتي. وكان سلطان باقيا رافعا ذراعيه.

- تسمح لي!

تساءل متشبثا أطراف أدبه. أومأ له الجندي أن انزل ذراعيك.

- شكرا!

استجاب سلطان مغمغما بعرفان مدروس. عليه أن يتحلى بما هو ضده.

"لبوس الحالة..".

تذكر حادثة رمضان.. متابعتهم تفتيش سيارته. انتابه ما يشبه دوار.

"لو سوّل لهم يدسوا رصاصة أو..".

لم يكتمل تساؤله في ذهنه.

- لم نعثر على شيء.

أحدهم يخبر غيره. استعاد سلطان توازنه.

"امكانية خلاص!".

أراد يركب سيارته.

- عندك!

خضه صوت جندي منهم يزجره. قرر ألا يسلم.

- لماذا؟!.

يساءل بوزاع دفاع عن حق، ليتذكر في التو:

"الموقف .. لبوس الحالة".

واصل باحتجاج مستضعف:

- .. منع التجول لم يبدأ بعد!!

زجره آخر منهم:

- لا تجادل!

اصبعه تشير إلى مكان قريب. أضاف بالصيغة ذاتها:

- قف هناك!

***

راوح قدميه وقوفه.. ساعة معصمه.. دقائق لا غير.. وهذا الشعور بالأبدية!! مبنى محول كهرباء منطقة بيان هناك.. عشرات أمتار.. بيته ما وراء هناك. أمورهم هناك وهو هنا، احتجاز كما الارتكاب.. الجنود يتداولون حديثهم بينهم.

"إقدامهم تداولهم إياه.. كيف؟!".

أحدهم ينفصل عنهم. يقترب من سلطان.

- أنت كويتي؟!

سؤالهم جاء لا حقا لأوانه. صوت الجندي أشبه بحالة تطفل أكثر من كونها حـ

استنطاق.

"سنوح فرصة..".

أومأ سلطان برأسه إيجابا ليجد فرصته يسأل هادفا يضمن صوته استضعافه المدروس:

- ما سبب احتجازي؟!

ترده إجابة الجندي:

- الأوامر.

كلمته بدلالات لا حصر..

"توقع ماذا؟!".

الاحتلال. الاستباحة. عزلة الكويت.. بانقطاعها عليها.. العالم كله في الجانب الأبعد من الغياب.

- أوامر؟!

وجد سلطان نفسه يرددها بغياب.

- الليلة بالذات..

قالها الجندي بصيغة مسارة. واصل:

- .. زاد نشاط المخربين.

تذكر سلطان يعقب متظلما:

- والأبرياء يدفعون الثمن!

تنبه إلى الآخر يهدف يطمئنه:

- دقائق لا غير..

"مباسطته حديثه لا تخلو من .. ماذا؟!".

إكمال الجندي حديثه:

- .. ننتظر وصول ضابط الدورية.

يقين مفاجئ يحتل ذهن سلطان.

"ليس هذا!!".

شيء ما في نغمة صوت الجندي يدلل، وعلى سلطان أن يعرف. قرر مجاراة الآخر مسلكه. ضمّن صوته منحى مساومة:

- بيتي هناك..

اصبعه تشير ما وراء المحول. أتم:

- .. الأولاد وحدهم.. وأخشى..

يترك جملته مفتوحة. يباسطه الآخر تساؤلا مشروطا:

- المسألة ضرورية؟!

تفرع الأمل في صدره.

- جدا!

أجاب بلهفة هدف لها تكون متماسكة. توقع من الجندي يعقب أو يبادر يتصرف. لكن الأخير لازم حالة انتظار صامتة.

"المبادرة لا بد..".

وما تردد يدس يده في جيبه.

***

سيارة سلطان، معاودتها سيرها. اقترابه بيته. أفرحه كونه عرف ينفذ، وأغضبه.. جنديهم استولى على نقوده كلها.

"الغاية والمنحى!".

كان بإمكانهم أن يسلبوه نقوده منذ البدء، دون حاجة إلى "سيناريو.." حين مد الجندي يده خطف الأوراق النقدية حانت منه نظرة إلى ساعة سلطان.

- من أين اشتريت هذه الساعة؟!

سؤاله بإيحاء محدد. أحس سلطان كما لو أنه يُمس أشد. ضبط انفعاله، أجاب بما لا يحتمل مساومة أكثر:

- هدية من زوجتي.

تأمل جنديهم إجابة سلطان وهلة قصيرة، قبل اتخاذه أمره:

- اركب سيارتك!

صوته لا يخلو من هامش نصح تحذيري:

- .. تحاش المرور بنقطة سيطرة أخرى!

الغاية وأسلوب تحقيقها..

"لماذا اسباغ صفة إبرام صفقة؟!.. تحاشي الشعور بالذنب؟!.. أم تأكيد صيغة تعاون فريدة؟!".

مذياع السيارة. تنبه يسمع مذيعهم يهدر:

".. الأنظمة السادرة في غيها.. أذناب الاستعمار.. إبرام صكوك التبعية والاستسلام مع العدو الصهيوني الغادر..".

من أين تجيء المناسبة؟!

- ".. معاهدة سيناء سيئة الصيت، وما ترتب عليها من اعتراف كامل بالعدو الاسرائيلي القذر..".

الضرورات الاعلامية تقتضي..

- ".. إن أمتنا العربية العظيمة لن ترضخ. وأن المصير الأسود الذي واجهه السادات..".

مبادرة الرئيس المصري حسني مبارك، وسرعة استجابة النظام العراقي.. مذيعهم يواصل ويهدر:

".. حلت ساعة محاسبة الخونة ممن باعوا ضمائرهم.. سيواجهون مصيرا شنيعا مجللين بالخزي والعار..".

لحظة التقاط أنفاس.

".. أما الخونة من شذاذ الآفاق حكام دمشق..".

حال دخول سلطان بسيارته مرآب منزله فوجئ برمضان يطلع عنده، فمه، ينفرج ابتسامة ودودة.

- اترك لي مفاتيح السيارة!

تذكر سلطان وعده رمضان يعد له مخبأ سريا في متناول السائق.

- لحظة!

رددها مستمهلا. انشغل يحرك بطانة باب السيارة الذي عنده. مد يده داخل تجويف الباب. حيوية لذيذة تسري في أعطافه لدى ملامسته معدن المسدس.

- ليكن المخبأ بهذا الحجم!

قال وهو يضع المسدس في كف رمضان، عندما وصله صوت إيمان يستحثه:

- تعال بسرعة!

النداء بحد ذاته لا يتضمن هاجس خطر بقدر ما ينحو استثاره. سارع خطوه إليها. أخذته من كفه. أسرعت تقوده داخل المنزل.

- انظر!

يدها تشير إلى مصدر صوت بدا لسلطان وكأنه مألوف لأذنيه.

".. وان انجازاتنا الخلاقة في عهدها الزاهر..".

كان شاهد وجه رحال يملأ عليه شاشة تلفزيونه.

«يتبع»

هوامش غير ضرورية

هامش أول:

جراء هيمنة حالة الارتكاب جرى العديد من الارتكابات المقصودة للغة الكتابة.

هامش ثان:

اختصارا للجهد المشترك تم حصر جمل التذكر وحوار الذات وما هو منقول سماعا داخل أقواس صغيرة.

هامش ثالث:

الفعل الروائي هنا حدثي آني، ولا يطمح يرقى إلى مستوى التسجيلية بالمدلول المتعارف.

هامش رابع:

الأسماء والأماكن شهود حدث.

هامش خامس:

الفعل الكتابي وظيفة انسانية.. بالأساس.

مؤلفات إسماعيل فهد إسماعيل

أولاً: الروايات

1 - كانت السماء زرقاء

2 - المستنقعات الضوئية.

3 - الحبل

4 - الضفاف الأخرى

5 - ملف الحادثة 67

6 - الشياح

7 - الطيور والأصدقاء

8 - خطوة في الحلم

9 - النيل يجري شمالاً: البدايات

10 - النيل يجري شمالاً" النواطير

11 - النيل الطعم والرائحة

12 - إحداثيات زمن العزلة: الشمس في برج الحوت - كتاب أول

13 - إحداثيات زمن العزلة: الحياة وجه آخر - كتاب ثاني

14 - إحداثيات زمن العزلة: قيد الأشياء - كتاب ثالث

15 - إحداثيات زمن العزلة: داوئر الإستحالة - كتاب رابع

16 - إحداثيات زمن العزلة: ذاكرة الحضور - كتاب خامس

17 - إحداثيات زمن العزلة: الأبابيليون - كتاب سادس

18 - إحداثيات زمن العزلة: العصف - كتاب سابع

19 - يحدث أمس

20 - بعيداً إلى هنا

21 - سماء نائية

22 - الكائن الظل

23 - مسك..

24 - عندما رأسك في طريق واسمك في طريق أخرى

25 - في حضرة العنقاء والخل الوفي

أولاً: قصص ومسرحيات

1 - البقعة الداكنة: مجموعة قصص

2 - الأقفاص واللغة المشتركة: مجموعة قصص

3 - مالا يراه نائم: مجموعة قصص

4 - النص: مسرحية

5 - للحدث بقية: مسرحية

أولاً: دراسات

1 - القصة العربية في الكويت

2 - الفعل والنقيض في أوديب سوفوكل

3 - الكلمة الفعل في مسرح سعدالله ونوس

4 - علي السبتي.. شاعز في الهواء الطلق

5 - مبدعون مغايرون.. كتاب مغامرة

6 - ما تعلمته الشجرة.. مجتزأ من سيرة ليلى العثمان

الشمس في برج الحوت

تعد السباعية تسجيلاً غير متعارف عليه لحدث آني رهيب، إن هذه الرواية تأريخ ذاتي لتاريخ عام. وهذا ما أكسبها روعتها وما قيدها بقيود جاهزة في نفس الوقت.

فهذه الرواية ترصد جانبين: الأول: ذاتي يتمثل في تحولات سلطان الذاتية في فترة الاحتلال باعتباره الشخصية الرئيسية في الرواية، والثاني: موضوعي يتمثل في رصد نشاطات بعض رجال المقاومة باعتبار سلطان مشاركاً في هذه النشاطات، إن الذاتي والموضوعي يقدم في الرواية من خلال رؤية شخصية متفاعلة مع الحدث، ولهذا وصفت هذا التسجيل بأنه أرخنة للذات وتذويت للتاريخ، ولعلي أكون مغالياً، ولكني أعتقد أن هذا التأريخ الذاتي - في هذه الرواية - أصدق وأعمق وأدق من التأريخ بمعناه الأكاديمي الدقيق، وذلك لأن التأريخ الذاتي - في هذه الرواية - يعايش التاريخ مباشرة، ويصنع التاريخ في بعض الأحيان، ويكتب التأريخ في كل الأحوال من الداخل.

مرسل فالح العجمي

- 1 -

أحداثيات زمن العزلة

سباعية روائية

www.novapluskw.com

نوفا بلس للنشر والتوزيع
NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING